AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01143 3111

DD
247
H5
A845

هتلر فى الميزان بقلم عباس محمود العقاد

هتلر يوضح نفسه

923.243
H638a

٩٢٣,١٤٣
هـ٤٤٠

21239

مقدمة

فى هذا الكتاب ما أنا بقاض ، ولا يسرنى أن أكونه

لأننى لا أحسن التسوية بين الخصمين فى قضية الطغيان والحرية الانسانية . وأحمد الله أننى خصم قديم فيها منذ نيف وثلاثين سنة ، أى فى السن التى يراع فيها بعض الناس بمظاهر السطوة والاقتحام ، والتى يخيل إليهم فيها أن الشجاعة والبغى شىء واحد ، وأن العزة هى إذلال الآخرين ، وأن بعد الذكر هو حسب الانسان من المجد ، ولو كان ذكراً بالفتك والشر والايذاء

فمنذ نيف وثلاثين سنة كان لى شرف الخصومة فى هذه القضية الخالدة ، وكنت أبحث فى أعماق نفسى فلا أحس فيها غير المقت والازدراء لأولئك الذين سموهم عظماء التاريخ لأنهم طلبوا المجد والشهرة من طريق الغزوات والفتوح ، وقاسوا عظمتهم بمقدار احتقارهم « للانسان » .

وقد صدرت فى مصر كتب ومجالات أشاد أصحابها يومئذ بتمجيد هؤلاء العظماء وفى طليعتهم نابليون الأول ، فكتبت [1] أقول :

« . . . يعظم مثل نابليون فى عيون الهمل بقدر استهانته بأرواح الناس ، وتكبر قيمة حياته بمقدار استصغاره لحياتهم ، وليس هو من قبيل أولئك العظماء الذين يكبرون وزان ما لهم من المقدرة على تهذيب الناس واصلاح شئونهم ، وليس فى طاقة العامى أن يتصور كيف أن رجلا يميت الألوف لا يكون أهلا للاجلال والتبجيل

---

(١) الجريدة فى السابع من شهر يوليو سنة ١٩١٢

« . . . نابليون رجل من مجانين المطامع ، أولئك الذين تملك عليهم الأثرة عقولهم فلا تدع فيها موضعاً لغير أطماعهم وشهواتهم . لا يدور بخلدهم إحساس لغيرهم أو أمل غير أملهم ، فلا يحسبون أن فى الوجود أرواحاً تجب صيانتها غير أرواحهم ، أو أن لسواهم أملا يحرص عليه كما أن لهم أمانى وآمالا

« . . . . لقد جعلوا نابليون مثالا لقوة الارادة ، ويظهر أنها أقل صفات نابليون قبولا للمنازعة فى رأى الناس . على أنى لا أظن رجلا يأتى مثل هذه الأعمال مطلق الارادة أو مختاراً بأتم معنى الاختيار

« فالارادة عند جماعة السيكولوجيين قوتان : قوة دافعة تغرى صاحبها بالاقدام وتهون عليه العوائق ، وتكون هذه القوة على نهايتها عند المجنون الذى لايكاديهم بأمر إلا فعله ، ولا يتضح له نهج إلا سلكه ، غير متدبر فى العواقب ولا حاسب حساب العوائق

« وقوة مانعة تقعد بالنفس عن كل ماتهم به فلا يكاد صاحبها يقدم على أمر لفرط توجسه وكثرة ما يمثل له وسواسه من أسباب الفشل والخيبة ، وهى عند المرورين الموسوسين على أشد ما تكون

« والارادة الصادقة هى الموازنة بين هاتين القوتين ، والمداورة بينهما آناً إلى هذه وآناً إلى تلك ، كما تقضى به الحال ، وأتم أشكالها حسن الترجيح بين الدواعى والموانع ، وتقديم عامل الاقدام فى موطن الاقدام ، أو عامل الاحجام فى موضع الاحجام .

« وما كان نابليون قوى الارادة بهذا المعنى ، ولكنه كان رجلا قوى طموح الأمل شديد اندفاع المطامع ، حتى لقد ينسى وهو ناهض إلى أمله ما لاينبغى أن ينساه المجرب الحكيم ، ولولا ذلك ما صرعته مطامعه صرعات ، آخرها تلك الصرعة التى أوقعته فى يد هدسن لو »

ثم ختمت ذلك الفصل قائلا :

« إن من طبع المرأة الضعيفة والولد الصغير أن يستكينا إلى القوة حيث كانت وهما اللذان يعجبان بالقوى ولا يطيقان أن ينظرا أثر قوته فى نفع النوع الانسانى والاضرار به . أما الناقد الاجتماعى فيجب أن يكون أبعد من ذلك نظراً وأصدق حكما .

« وما أشبه أخلاق الجمهور باخلاق المرأة والطفل . فانه لينتظر من يتأله عليه فيعبده ، وقد كان ذلك شأنه مع نابليون

« كان هذا الرجل يسبح فى لجة من الدم والناس تنظر إليه فلا يعنيهم من أمره إلا أن يشاهدوا براعته فى السباحة .

« كان يهدم المدن ويدمر الأقاليم و يدك الممالك وهم ينظرون من كل ذلك إلى خبرته بصف المربعات العسكرية ، ودربته على تنظيم المواقع واطلاق النيران

« لقد مضى زمان تلك العظمة . وحق على الكتاب فى هذا العصر أن يعودوا الناس إكبار العظمة التى يجمل بهم اكبارها . . »

* * *

هذا ونابليون هو نابليون .

والفرق بينه و بين طغاة الحرب الحاضرة كالفرق بين المارد والأقزام .

والخطر منه وهو فى حوزة التاريخ ممتنع كل الامتناع ، إلا أن يكون خطر القدوة والايحاء .

فاليوم والخطر قريب ، والعالم قد مضى عليه مائة ونيف وعشرون سنة بعد حروب نابليون ، والناس يحق لهم أن يربحوا ولا يخسروا من تجارب هذه السنين ، لا يطيب لى أن أقضى اليوم حيث خاصمت بالأمس ، ولا أرى من واجب الكاتب أن يحكم و يقول : هذه أسباب الحكم ، بل أرى واجبه الذى لاواجب

له غيره أن يخاصم ويقول : هـذه أسباب الخصومة ، وأن يتحرى الصدق فى خصومته والاستقراء الصحيح فى بيانه ، لأن الخصم الصادق فى قضية الطغيان والحرية الانسانية أعدل من القاضى الذى لا يميل هنا أو هناك فى هـذه القضية

والخصومة الصادقة هى التى أعد بها القارىء فى هذه الصفحات

الفصل الأول

مخلوق الظروف والمصادفات

تمهيد

كثيرا ما يكون النظر فى حركة عالمية أو حرب عالمية ، بمثابة النظر فى حياة رجل واحد هو الرجل الذى ابتعث تلك الحرب أو اقترنت باسمه تلك الحركة ، كما هى الحال فى اقتران اسم هتلر بالحرب العالمية الحاضرة

وهنا الصعوبة الأولى !

فما هو المقياس الذى نرجع اليه فى تقدير رجل من رجال الحوادث أو رجال التاريخ ؟

تختلف المقاييس هنا أشد اختلاف ، ولكنْ مامن خلاف قط فى أن المقياس الذى يعتمد عليه الذهن العامى أو يعتمد عليه جماهير الدهماء من الناس — هو أبعد المقاييس قاطبة عن الصواب وعن الانصاف

لأنهم يعظمون الرجل بمقدار السيطرة التى فى يديه ، أو بمقدار الضجة التى يثيرها من حوله

والخطأ ظاهر فى كلا المقياسين

إذ الوصول إلى السيطرة مما يتاح ، فى أيام القلاقل خاصةً ، لأناس لا خطر لهم فى سائر الأيام ، وليست لهم قيمة انسانية رفيعة إذا وزنوا بميزان الأخلاق والفضائل التى يعتز بها « بنو الانسان »

وقد وصل « باچى سقا » وهو ابن سقاء قاطع طريق إلى كرسى الامارة فى بلاد الأفغان ، ووصل قاطع طريق آخر يجهل القراءة والكتابة إلى رئاسة الدولة فى بلاد المكسيك وهو فرانسيسكو بانشو (١٨٧٧ — ١٩٢٣) الذى اشتهر باسم فيفافيلا [1] وشغل العالم الجديد فى أيامه عن كل بطل وكل كوكب من كواكب الشهرة السياسية أو الفنية

وعلينا أن نذكر أن الكفاءة الضرورية للوصول إلى السيطرة لاتقاس بحجم الدولة التى يسيطر عليها الرجل . فالروسيا ، مثلا ، عدتها وعدة البلاد الخاضعة لها زهاء مائة وثمانين مليونا من النفوس الآدمية ، ولا يلزم مع هذا أن يكون ستالين أقدر من مصطفى كمال بضع عشرة مرة . . . لأن الترك أقل عددا من الروس بهذا المقدار

بل يتفق كثيرا أن يكون الوصول إلى السيطرة فى البلاد الصغيرة أصعب من الوصول اليها فى الدول الضخام ، كما يتفق كثيرا أن تكون قيادة الزورق الصغير أصعب من قيادة السفن « الراسيات فى البحر كالأعلام »

ومتى وصل الرجل إلى السيطرة فى دولة كبيرة فما أسهل مايشغل العالم و يثير الضجيج و يملأ الاسماع ! وما أعسر التغلب عليه واجلاءه عن مقعد الحكم ومرجع التصريف والتدبير !

ان الذى يحارب يومئذ ليحارب الدولة بأسرها ، وانه ليحتاج إلى ثورة جائحة لاتندفع اليها الشعوب فى كل لحظة ، ولا تجازف بها إلا فى حالة القنوط . وربما بلغت الشعوب حد القنوط بعد أن يكون حاكمها المسيطر عليها قد فارق الحياة

فلا ضخامه الحوادث إذن ولا ضخامة الدولة ولا اتساع مدى السلطان بالمقياس الصحيح لكفاءات الرجال

---

(1) Francisco Pancho , Viva Villa

وانما المقياس الصحيح أن نفصل بين فعل الرجل وفعل الظروف التى لافضل لله فى خلقها ولا يد له فى توجيهها ، وان ننقله من ظروفه لنعرف ماهو مستطيع أن يعمل وهو بعيد عنها

أو المقياس الصحيح هو أن نقيس ظل الرجل بعد نزوله من رأس القمة التى هو واقف عليها . فلعله لو وقف على الأرض ولم يقف على رأس تلك القمة لما ألقى من الظل بعض مايلقيه سائر الناس

وما نعرف أحدا من الحاكمين بأمرهم فى عصرنا هذا قد أفادته «الظروف» مثل ماأفادت أدولف هتلر زعيم النازيين على التخصيص

فهو بحق مخلوق « الظروف » والمصادفات : لو انتقل من بيئته أو من زمانه أو من جيله لما تخيلتَ له شأنا كهذا الشأن الذى انتهى اليه

فلو رجعنا إلى موازين الدهماء لما كان مصطفى كمال شيئا إلى جانب أدولف هتلر . قياساً إلى الفارق العظيم بين مايقدر عليه حاكم الألمان ومايقدر عليه حاكم الترك فى مجال السياسة العالمية

لكنّ الواقع أن القياس معكوس ، وأننا نجحف أبلغ الاجحاف إذ نسوى بين الزعيم التركى والزعيم الألمانى فضلا عن ترجيح هذا على ذاك ، لأننا فى هذه الحالة نسوى بين من يعارض التيار ومن يحمله التيار ، وننسى أن مصطفى كمالا نجح والدنيا كلها عقبات وسدود فى وجهه ، وان أدولف هتلر نجح والطرق كلها مفتوحة بين يديه

فما من طائفة ولا حادثة وقعت فى ألمانيا خلال الجيل الماضى إلا أفادت هتلر على عمد أو على غير عمد

وما من شىء كان عائقاً له الا كان فى الوقت نفسه عائقا لألوف من ذوى الجاه والسلطان يسعون لرفعه عن الطريق ، ويستفيد هو من سعيهم بغير مجهود

كان الألمان جميعا يطلبون تبديل الحال التى كانوا عليها بعد الحرب العظمى وكانوا فى ذلك فريقين :

فريقاً يريد تبديل الحال للعود إلى ألمانيا القديمة : المانيا التى تسيطر على الدنيا وتتأهب للغارة الكبرى كرة أخرى ، وهم أصحاب المصانع والضياع والقادة والضباط ولا سيما الصغار منهم الذين ضاعت وظائفهم بضياع الجيش الألمانى كما

ضاعت عليهم أحلام المجد والخيلاء

وفريقاً يريد تبديل الحال لبناء الدولة الألمانية على أساس جديد ، وهم الفقراء والأوساط والعمال ، ودعاة الحرية وأعداء العهد القديم

وكلا هذين الفريقين كان يضرب بمعوله فى أساس النظام القائم ، ويفتح من وراء كل ضربة يضربها ثغرة فى السد الذى كان يصد النازيين ويحمى عليهم مدارج الصعود

كان المحافظون من الأغنياء حانقين ، لأنهم فقدوا ما كان لهم من الجاه فى الدولة القديمة ، وأصبحوا على خطر من الشيوعية والاشتراكية وسائر المذاهب الحمراء .

وكان الأحرار من أوساط الناس حانقين ، لأن هبوط أسعار النقد ضيّع ما ادخروه وضيع ما يكسبون من رزق ضئيل

وكان العمال حانقين ، لأنهم لايجدون عملا وقد بلغ عاطلوهم فى بعض السنوات سبعة ملايين .

وكان المظنون — أو كان الواجب — أن يحارب الشيوعيون هتلر وأشياعه كما يحاربون ألد الخصوم

غير أنهم جروا على حماقتهم المعهودة فى ايثار الديمقراطيين والاشتراكيين المعتدلين بالعداء قبل كل عداء ، لأنهم يخشون من دعوتهم أن تنزع منهم جميع أنصارهم . ولا يخشون كما اعتقدوا ، فى ذلك الحين ، أن يهجرهم أنصارهم ليلحقوا بالنازيين والمتشددين من أحزاب اليمين

واتفق من غرائب المصادفات فى الوقت الذى ظهر فيه هتلر أن رجحت كفة ستالين فى الروسيا على كفة تروتسكى المبشر بتعميم الدعوة الحمراء فى أنحاء العالم ، فقررت حكومة « السوفييت » أن تنفض يدها من الشيوعيين فى البلاد الخارجية

فلا تمدهم بالمال والمعونة ولا تساعدهم بالدسائس ونشر الدعوة ، فما هى إلا أسابيع معدودات حتى نفدت أموال الشيوعيين الألمان وعجزت صناديقهم عن اطعام العمال العاطلين وعن بذل الاجور والمرتبات للموكلين بشئون الحزب والداعين إلى نشر مبادئه حيث يقدرون لها الرواج والاقناع . فتحولوا الوفا الوفا إلى معسكرات النازيين : إلى المعسكرات التى كان ملوك الصناعة فى تلك الآونة يترعون صناديقها بالاتاوات والامداد ، ويهيئون لهـا شراء المعدات والأجساد بالاطعمة والأزواد !

وأعجب من هذا أن تجىء المعونة بعد المعونة لهتلر وأشياعه من موظفى الدواوين وهم أيدى الحكومة وعيونها والمفروض فيهم أنهم أنصارها وأعوانها على أعدائها . ولـكنهم كانوا — إلا قليلا — جنود العهد القديم وتلاميذ الاستبداد ، فبذلوا لهتلر وأشياعه قصارى ما استطاعوا أن يبذلوه ، وما هو بقليل

فلما قضى القضاء على هتلر بالسجن خمس سنوات (١٩٢٣) لأنه شهر السلاح فى وجه الدولة وأقدم على العصيان — لم تمض عليه تسعة شهور فى السجن حتى عفى عنه خلافاً لأحكام القانون التى تحرم العفو عن كل مجرم عائد سومح قبل ذلك فى العقوبة ولم يتب عن مقارفة الاجرام ، وكان هتلر قد حوكم وحكم عليه قبل ذلك بالحبس ثلاثة « أشهر موقوفة التنفيذ » .. فلم تحل هذه السابقة دون العفو عنه مرة أخرى ، بعد شهور قضاها فيما يشبه معيشة القصور ، بل لم يقبل المحلفون توقيع

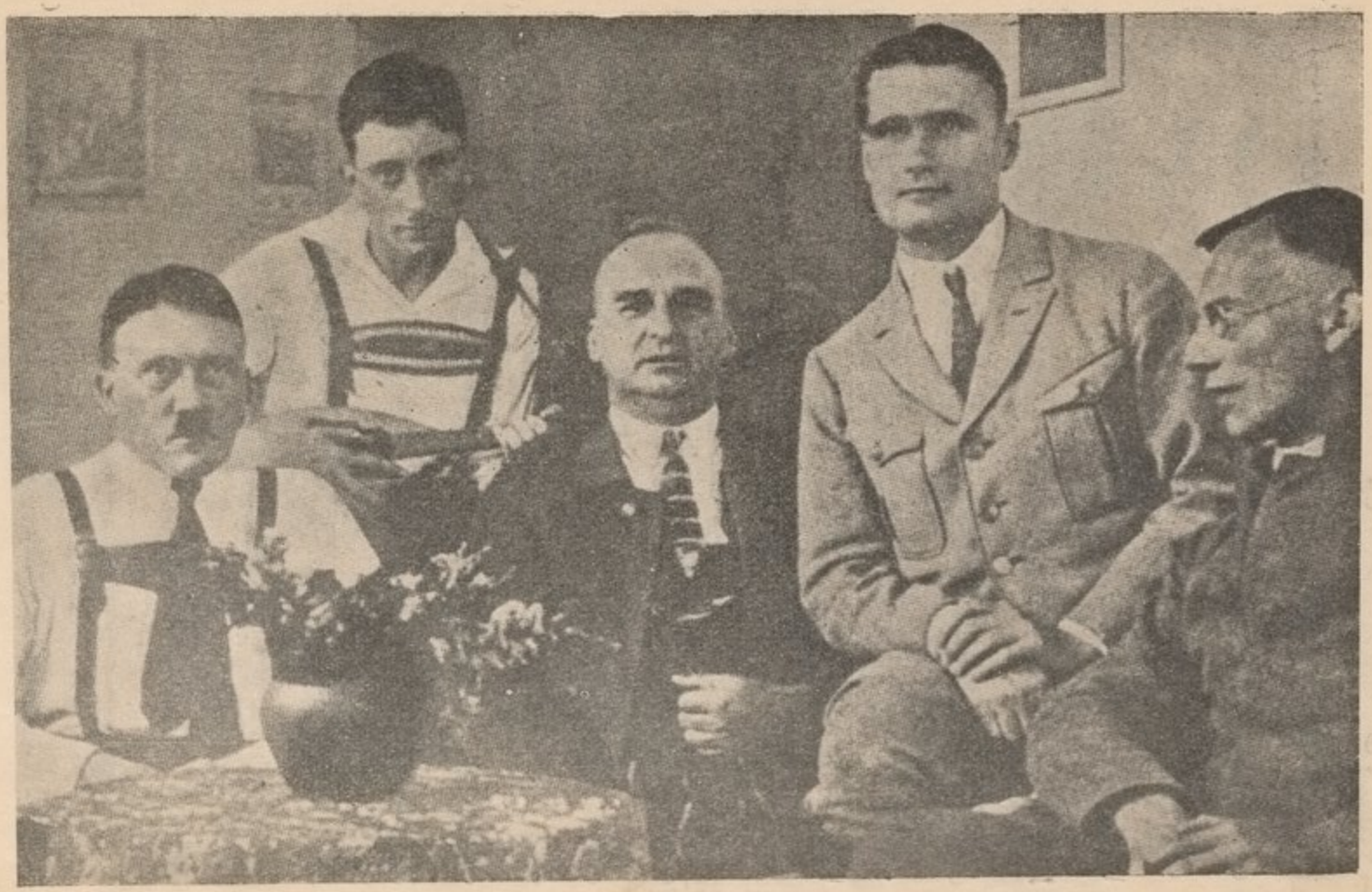

هتلر وزملاؤه فى السجن ﴿ تلاحظ هدية الزهر التى كانت أمامه ﴾

الحـكم إلا بعد أن أكد لهم رئيس المحـكمة أن العفو صادر لامحالة . فلا ضرورة لاظهار القضاء بمظهر المخالف لنص القانون الصريح

ولما تبين أن « الجنسية الألمـانية » لا تشمله لأنه رعية الحـكومة النمسوية احتالت وزارة برنسويك على الأمر بتعينه فى وظيفـة « شرفية » تسمى وظيفة الاستشارة فى تلك الحـكومة Regierungsrat ليصبح المـانى الجنس بحكم التوظيف ، وفاقاً لدستور فيمار الذى يشمل بالجنسية الألمـانية كل أجنبى يشغل وظيفة فى حكومات الولايات ، أو حكومة الريخ الـكبرى

ويبدو من هذا وأشباهه مبلغ الاغضاء والاملاء الذى حف بهتلر وأشياعه وهم ينشرون دعوتهم ويهددون خصومهم ويستكثرون من أذنابهم ، آمنين مطمئنين لايجازفون ولا ييأسون من المعونة عند الحاجة اليها . لأن دستور فيمار قد الغى حكم الاعدام فلا خوف منه .. ثم لا خوف من السجن الذى يعقبه العفو بعد قليل

* * *

ثم أنمت الدسائس فى حاشية المارشال هندنبرج مابدأته الحوادث والازمات ، فانتقلت بهتلر من شغب الطريق إلى ديوان الاستشارة

وكان المارشال الـكبير قـد وهن واستسلم ، وثقلت عليه وطأة السنين ، فأصبح أرجوحة تتردد بين رجلين من دهاة زمانه : أحدهما أمين سره القديم الجنرال فون شليخر الذى قيل فيه أنه أحق بقيادة البحر « لبراعته فى ارسال القذائف تحت المـاء » . . وثانيهما فون پاپن الذى كان يساكن الرئيس هندنبرج فى قصر واحد ، وقيل فيه أن قدرته على خداع المحترسين منه العارفين بخداعه أكبر من قدرته على خداع الواثقين به المطمئنين اليه !

كلا الرجلين كان يريد ان يضرب منافسه ويقضى على نفوذه وأن يستخدم

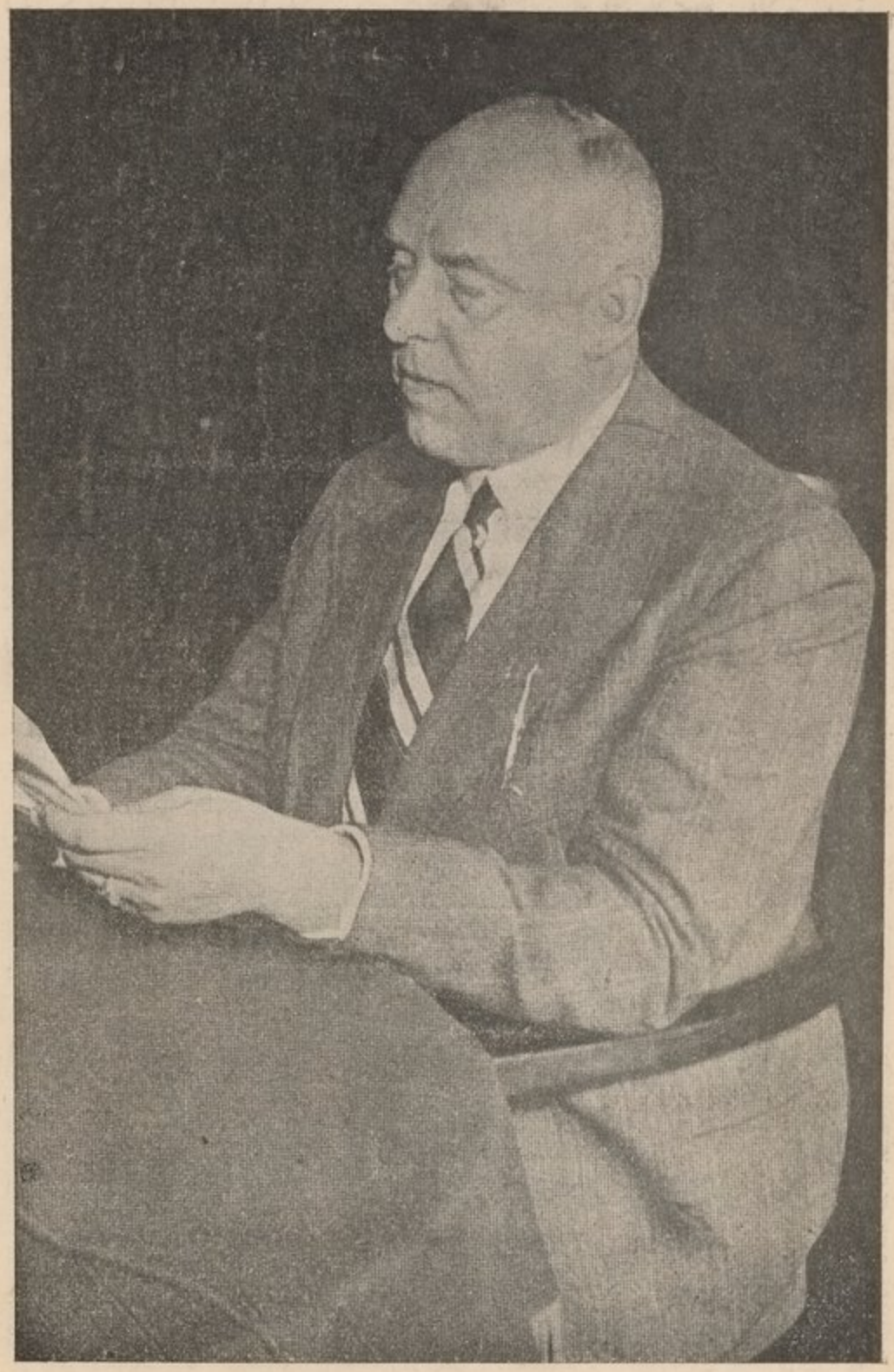

جريجور شتراسر مؤسس «النازى» فى المانيا الشمالية
وأحد ضحايا هتلر فى المذبحة المشهورة

النازيين فى مأربه لأنه لم يكن يستطيع أن يستخدم الديمقراطيين والاشتراكيين وسائر أحزاب الوسط والشمال

وكلاهما كان يريد السوء بالنازيين ويضمر لهم الغدر وأن يشطرهم شطرين بعد ارتقائهم مناصب الاحكام ، ثم يضرب أحدهما بصاحبه متى سنحت له سانحة قريبة وكثيراً ما كانت تسنح فى تلك الأيام

لكنهما كانا مختلفين فى الأسلوب وان اتفقا فى نية الغدر والوقيعة ، فكان فون شليخر ينوى أن يرشح نفسه للاستشارة وينتدب زعيما من كبار زعماء النازيين لوكالة الاستشارة ، ثم يتقدم إلى الريشستاج فيقسم النازيين عاجلا أو آجلا بين هتلر وبين الزعيم النازى الآخر (وقد وقع الاختيار على جريجور شتراسر منشىء حزب النازى فى المانيا الشمالية) ... فينحل الريشستاج ويعاد الانتخاب ويخرج النازيون فريقين ضعيفين يزيدهما هو ضعفاً بسلطان الحكومة الذى يقبض عليه بكلتا يديه ، وهو مستشار الدولة

وكان فون پاپن يريد أن يكرر ما حدث فى انجلترا من ترشيح المستر رمزى ماكدونالد لرئاسة الوزارة رجاء أن يضعف حزب النازى كما ضعف حزب العمال فى البلاد الانجليزية ، فاقترح على المارشال الهرم أن يدعو هتلر إلى تأليف الوزارة مع اثنين أو ثلاثة من انصاره الذين يرضاهم المارشال ، وقنع هو بوكالة الاستشارة معتقداً أنه يملك زمام الأمور بسيطرته على المارشال وتألبه مع سائر الوزراء

ولما طال التنافس بين الخصمين فكر فون شليخر فى الانتقاض وائتمر بالمارشال مع بعض القواد العسكريين وبعض رؤساء العمال الساخطين على النازيين وأحزاب اليمين . فاتفقوا على تدبير إضراب عام يجتمع فيه العمال وحامية بوتسدام ويزحفون على برلين فيتخذون من ذلك ذريعة للحجر على الرئيس الشيخ وإعلان

المارشال هندنبرج بين هتلر وجورنج

« حالة الطوارىء » والقبض على دفة الحكومة باسم الضرورة القصوى التى تقتضيها المصلحة الوطنية

ونمى الخبر الى فون پاپن الساهر على حركات خصمه فأبلغه الى المارشال وأقنعه بوجوب الاسراع الى دعوة هتلر وإقامته على رأس الوزارة ، ولم ينس خطته الأولى التى أراد بها أن يحتفظ بأعنة الأمور فى يديه ، فاشترط أن تكون له وكالة الاستشارة وأن يكتفى فى مجلس الوزراء بعضوين اثنين من النازيين وهما الدكتور ولهلم فريك والكابتن هرمان جورنج

وقد كان له ما أراد !

إلا ان الحوادث قد خالفت ما قصد من تدبيره ، فجرت الانتخابات الجديدة باشراف المستشار هتلر على الطريقة النازية المعهودة ، وصدرت المراسيم بحل جماعات الشيوعيين ، واشتد المرض بالمارشال الهرم فاصبح لا يعى ما يقول ولا ما يقال بلسانه ، ثم مات وتبوأ هتلر مكانه باسم زعيم الأمة ومستشار الدولة ، وأفلتت الأعنة من يدى فون پاپن فانقاد لسائقيه

على أن الدسائس ، من شليخر أو پاپن ، لم تكن هى جماع البواعث التى أكرهت هندنبرج على قبول هتلر فى رئاسة الوزارة ، وعلى إبقائه فيها بعد ذلك الى أن كان منه ما كان . فقد أكرهه على قبوله باعثان آخران ، قد يصح أن يقال أنهما باعثان شخصيان

أهم هذين الباعثين أن هندنبرج كان يحذر المغالين من المحافظين أحزاب اليمين ، لأنه كان يعلم أنهم يكيدون للنظام القائم ويسعون الى إعادة الملك سيرته الاولى فى سلالة هوهنزلرن ، وكان هندنبرج — على نفوره الفطرى من هدم نظام يقوم هو على رأسه — لايحب فى تلك الآونة أن يواجه العالم بالتحدى والمناجزة وما يتبعهما لامحالة من تضافر الدول على ألمانيا وذهاب كل أمل فى تخفيف قيودها

واحسان الظن بمقاصدها . فاذا لم يكن بدٌ من الخيار بين الملكيين أو الشيوعين أو النازيين الذين لايرحبون برجعة آل هوهنزلرن — فهولاء النازيون أولى بالتجربة ! ولا سيما اذا تكفل بكبحهم زملاؤهم فى الوزارة من أصدقاء الظاهر أعداء السريرة

والباعث الثانى هو فضيحة الضياع الشرقية كما كانوا يسمونها فى تلك الايام ، وخلاصتها أن الحكومة خسرت أموالا كثيرة من خزانة الدولة بُذلت جزافا لاناس من أصحاب الضياع الواسعة فى بروسيا الشرقية معظمهم أصدقاء أو أقرباء أو جيران للرئيس ، وتهامس بعض النواب بهذه الفضيحة ثم لغطوا بها وطلبوا التحقيق فيها ، وثارت الثوائر حولها لوفرة المأزومين والمفلوكين والمتطلعين إلى قليل المال يحرمونه وهم يسمعون بالحكومة تكيله جزافا لكبار الزراع وأصحاب الضياع

فغضب الرئيس على شليخر لأنه لم يفلح فى اسكات تلك الأصوات ومداراة تلك الفضيحة ، وبدا له ان الحكم على طريقة النازيين بالقمع والارهاب وقطع الألسنة وكم الأفواه خليقٌ أن يريحه من لغط اللاغطين وزعم من زعموا أنه قد أخذ لنفسه بعض ما قيل انه أعطاه الجيران والأصدقاء ، وهو زعم ظالم تكرر على ألسنة الشيوعيين ولم يثبت قط بالقول الوثيق .

ويرى بعض المطلعين ان هندنبرج ما كان ليطلق أيدى النازيين فى قمع الشيوعيين وحل أحزاب المعارضين لولا انزعاجه الدائم من فضيحة بروسيا الشرقية وأفاويل أحزاب الشمال .

فهذا وذاك وغير هذا وذاك من دسائس الحاشية وطوارىء الزمن وقد مهدت كلها الطريق لهتلر ووضعت السلم تحت قدميه حيث يريد وحيث لا يريد .

فاذا قلنا ان زعيما كمصطفى كمال قد هجم على التيار اللجّى فشقه بالعزيمة التى

تروضه والأيْد الذى لا يباليه فماذا صنع أدولف هتلر فى تياره !

لبس فيه عوّامة النجاة ، ولم يدفع موجة واحدة من أمواجه ، بل ذهب مع الموج إلى مدى وثبتين من الساحل ، ثم وثب إلى الساحل فى أمان .

* * *

أفكاره وأفكار غيره :

وكما حملت الحوادث هتلر على أثباجها إلى ذروة الحكم حملته كذلك الأفكارُ السياسية التى نشأت فى قومه على عهده وقبل عهده بجيل أو جيلين ، فلم يبتكر قط فكرة واحدةً من تلك الأفكار التى شاعت بين الشعوب الجرمانية وكان لها شأن فى توجيه هذه الشعوب وجهتها الأخيرة ، ولم ترجع اليه صيغة واحدة من الصيغ التى دارت على الألسنة وكان لها شأن فى اذكاء النخوة القومية واقناع السواد . وما أسهل ما يقنع « عقل » السواد ؟ ! انه ليبحث عمن يقنعه ، بل يبحث عمن يخدعه ، ولا يهرب إلا ممن يفتحون عينيه ويرشدونه إلى الحق الصراح .

فالجامعة الجرمانية[1] التى تغنى بها هتلر قد ظهرت فى موطنه خاصة وقبل مولده بنحو ثمانين سنة ، ودعا اليها الفيلسوفان هردر Herder وفيخته Fichte أوائل القرن التاسع عشر فأطنبا ما أطنبا فى مزايا الجنس الجرمانى وفضله على سائر الأجناس البشرية وانه هو دون غيره شعب الله المختار المهيأ بالفطرة لمناجاة الأرباب ومكاشفة الأسرار ، وان لغته دون غيرها هى لغة الحكمة والفلسفة والعلم بحقائق الأشياء ، وان حكومته دون غيرها هى الحكومة التى قدرتها عناية الله لقيادة الأمم قهراً أو بالارشاد والاغراء ، وما من كلمة تغنّى بها هتلر فى هذا المعنى إلا ومرجعها إلى محاضرات فيخته الأربع عشرة التى ألقاها (سنة ١٨٠٧)

(١) Alldeutschtum

ووضع بها — من الوجهة الفلسفية — أساس تلك الدعوى التى يدعيها الجرمان .

ثم ظهرت دعوة هر كلاس Her Class قبل الحرب الماضية وتجاوبت أصداؤها فى صميم البلد الذى نشأفيه هتلر ونعنى به لنز Linz من الأقاليم النمسوية

واقترنت بهـذه الدعوة دعوة مشابهة عُرفت باسم أوربا الوسطى تارة [1] وباسم الزحف على الشرق تارة أخرى [2] وشُرحت شرحا وافيا فى كتاب فردريش نومان Friedrich Naumann الذى كان يزعم كما زعم هتلر من بعده أن التهام أوربا الوسطى قديتأتى بمجرد الارهاب والاستعداد من غير حاجة إلى قتال

أما قداسة الجنس الآرى فقد بشر بها الكونت دى جوبينو الفرنسى فى كتابه تفاوت الأجناس البشرية عند منتصف القرن التاسع عشر قبل أن يولد هتلر بنحو أربعين سنة ، وتبعه الانجليزى هوستون ستيوارت شمبرلين Houston Stewart Chamberlain الذى تجرمن وبنى ببنت فاجنر الموسيقى الكبير وألف كتابه أساس القرن التاسع عشر مشيدا فيه بالعبقرية الجرمانية راداً فيه كل حضارة وكل عظمة انسانية إلى ذلك الينبوغ الذى لاينبوع غيره — فى رأيه — للحضارات والعبقريات

والحركة النازية نفسها بجملتها وتفصيلها ظهرت فى أوائل القرن التاسع عشر على يد رجل يشبه هتلر من وجوه كثيرة وهو Vater Jahn الخطيب المتهوس الذى نظم فى المانيافرق القمصان الرمادية والأندية الرياضية ، وبلغ من جنونه أنه أشار باقامة السدود بين ألمانيا وفرنسا وبغرس الآجام التى تملأها الضياغم والسباع على حدود الأمتين صيانةً للدم الجرمانى الطهور من التلوث باوشاب الأمم الاجنبية ! وكانت الدعوة « التيوتونية » على لسانه تقابل الدعوة الآرية على لسان هتلر ، فكان يوصى أتباعه الشبان أن يتجسسوا على آبائهم فى البيوت

(1) Mittleurope (2) Drag Nach osten

وزملائهم فى المدارس ليردعوهم بالبطش والقسوة اذا خالفوهم فى دين العصبية الجنسية Volkstum وطالما صاح كما يصيح النازيون اليوم أن الشرف هو السلاح وأن من لا سلاح له فلاشرف له Wehrlos ehrlos . . . . . وأن العنف أساس الخلق والكرامة ومناط الحكم والسياسة .

وعلى جهل هذا الرجل وفراغ عقله لم تتورع جامعات المانيا أن تهدى اليه ألقاب الشرف العلمية والفلسفيه ، ولم يتورع الأدباء والشعراء أن يهدوا اليه الدواوين والمصنفات ، تمجيداً له واعترافا بسداد آرائه !! مما يدل على خليقة مستقرة فى دخيلة النفس الجرمانية أن تهتز لأمثال هذه الصيحة ، وأن تلبى أمثال هذه الدعوة ، ولا سيما بعد الهزائم والازمات .

ويقول فيلسوفهم ترتيشكه Treitschke فى تعليل ذلك : « إن هذه الحركه العامية ذات جذور متأصلة فى قرارة الخليقة الجرمانية ، فان قومنا طالما حنوا الى معيشة الفطرة الأولى ، فكلما جاش فى عروقهم الدم تبيغت نفوسهم بدفعة العنف الطاغية ! »

كذلك عداوة اليهود لم يكن هتلر أول دعاتها والناخين فى نارها ، بل كانت مذابح اليهود فى أوربا الوسطى وأوربا الشرقية أقدم من مولده بمئات السنين ، وكثيراً ما اقترنت تلك المذابح بأيام الفتك والمجاعة وشح الأموال . لأنها أيام تثور فيها الحفائظ ويضطرب فيها الحكم وتؤمن عواقب العبث والاغتيال .

كذلك الصليب المعقوف « شارة النازية » لم يخترعه هتلر بل اقتبسه من الجنود الألمان الذين عادوا به « من فنلنده » بعد ان حاربوا فيها الجيش الأحمر ، ولم يتغير منه إلا لونه الأزرق فقد سوده النازيون .

على ان حركة القمصان فى ألمانيا الحديثة إن هى إلا نسخة مستعارة من حركة القمصان فى ايطاليا الحديثة باشاراتها وشاراتها . مع فارق واحد فى تحيتها .

وهو أن السلام الرومانى فى روما معقول . أما فى جرمانيا فهو حركة يد بغير مدلول .

ولم تكن الفلسفة النازية من مبتكرات العصر الحديث ولا سيما فى حملتها على الديمقراطية ووصفها الحاكم الجدير بأمانة الولاية . وانما هى حكاية أو محاكاة للحكم التيموقراطى Timocracy الذى ذكره افلاطون وقال أنه نظام يسند الدولة إلى من لهم عزم وحماسة ولا يسندها إلى ذوى الرأى أو ذوى السيادة وأنه يقوم على « الارادة » ولا يقوم على الرغد الذى تتوخاه حكومات الشعب أو على الرشاد الذى تتوخاه حكومات العلية والسروات

وصفة الرجل « التيموقراطى » كما لخصها أفلاطون « أن يكون غليظا فى معاملة العبيد خلافاً للرجل المهذب الذى يترفع عن هذا الخلق ، وأن يخضع للسلطة ويحب القوة والمجادة ، وألا يتذرع إلى طلب الحكم بالفصاحة وما اليها بل يطلبه لأنه مقاتل تفوّق فى أعمال الفروسية واجالة السلاح . وهو كذلك محب للرياضة والطراد »

* * *

وأعجب مما تقدم أن هتلر لم ينشىء الحزب الذى أصبح رئيساً له بعد ذلك بل أنشأه دركسلر Drexler و بضعة من رفاقه ، وأنه لم ينشىء فرقة واحدة من فرق الجيوش الأهلية التى راجت بعد الحرب الماضية لأحزاب اليمين وأحزاب اليسار ، كفرقة القمصان البنية أو فرقة الحرس السوداء أو غيرهما من جيوش اليمين . بل انشأهما ارنست روهم Ernest Roehem وفرانز سلدت Franz Seldte و بعض الضباط القدماء

وكان اسم الحزب الذى رأسه هتلر حزب العمال الألمانيين ، فندب من قبل الحكومة للتجسس عليه كما قال فى كتابه ، ثم اقترح على أثر انضمامه اليه أن

هتلر وأصحابه قبل زهو النجاح

يسمى الحزب الاشتراكى الثورى ، محاكاة للاشتراكيين الثوريين فى روسيا الحمراء . فنفر زملاؤه من هذه التسمية ووقع اختيارهم بعد البحث والمشاورة على اسم « الوطنيين الاشتراكيين » ليتوسلوا باسم « الوطنيين » إلى اجتذاب أنصار اليمين ، وباسم الاشتراكيين إلى اجتذاب أنصار الشمال ، وليصبح الحزب بهذه التسمية قابلا لاستغراق الألمان جميعاً فى يوم من الأيام

فمن أى وجه نظرت إلى الرجل لم يسعك أن تحسبه زعيما لألمانيا لأنه خلاق

حوادث أو خلاق أفكار ، ولم يسعك أن تحسبه زعيما لأنه أقدر من فيها وأشرف من فيها ، وغاية ما يسعك أن تقوله على التحقيق أنه تقلد زعامتها لأنه « أنسب » من غيره لظروفها ، وفرقٌ عظيم بين الأقدر والانسب ، لأن المرء قد يناسب الظروف لنقص فيه كما يناسبها لخصلة من خصال الكمال والاقتدار

لا يخطىء :

أشاعت الدعاية النازية بعد احتلال وادى الرين والنمسا أن زعيمهم لا يخطىء ولا يتردد ، فاذا حان الموعد المقدور فلا يستأخر ساعة ولا يستقدم : كل شىء فى أوان وكل شىء بحساب

فلننظر الآن ماهو ذلك الحساب : هل هو حساب عويص بعيد عن التقدير أو هو داخل فى تقدير من يريد ؟

كل ماحسبه هتلر « أولا » أنه يستطيع أن يهزم النمسا وأمثالها إذا أراد فتح بلادها و « ثانياً » أن الدول الاوربية الكبرى لاتقدم على حرب عالمية فى كل لحظة . فهل هذه معضلة وهل هذا حساب ؟

من البديهيات أن ثمانين مليونا يهزمون سبعة ملايين ، ومن البديهيات كذلك أن دول العالم لا تهجم على الحرب العالمية فى كل ليلة ونهار

فأين هو الحساب ؟ وأين هى السياسة ؟

انما الحساب الصحيح أن يمضى هتلر فى سياسته دون أن يوقظ خصومه ودون أن يلجئهم إلى عزيمة الحرب التى ترددوا فيها .

أما أن يضرب النمسا فى سنة ١٩٣٨ وتقع الحرب فى سنة ١٩٣٩ فليس بشىء يعجز عقول الساسة المدبرين ، وليس هو بسياسة ، وانما هو فعل سلاح

فان كان قد فعل ما فعل وهو يعتقد أن الحرب لن تكون ، وأن الدول لن تقدم عليها فذلك نقيض الواقع ، وذلك أفشل الحساب

وما من وزير فى الدنيا يدخل فى تقديره أن يحارب وأن يتورط فى الحرب العالمية وألا يبالى عواقب هذه الورطة ثم يعييه أن يفعل كما فعل هتلر فى النمسا وبوهيميا وغيرها

وأفشل الحاسبين يستطيع أن يفعل كما فعل هتلر إذا كان كل حسابه أن يؤخر الحرب سنة واحدة . ثم تأتى لامحالة !

من الذى يعجز عن مثل هذا النجاح ؟

من الذى يعجز بثمانين مليونا أن يهزم سبعة ملايين !

كل المسألة إذن هى : هل يؤدى هذا الهجوم إلى الحرب أو لايؤدى اليها

وهاهو ذا قد أدى إلى الحرب عياناً لامن باب الظن والترجيح ، فأين هو الاعجاز فى التقدير والتدبير ؟

هذا هو العجز بعينه فى عمل السياسة ، وهذا هو سوء الحساب وليس هو باتقان الحساب

* * *

ولننظر مرة أخرى فى تقديرات هتلر وأصحابه قبل الحرب لنرى هل هى مثال السداد والاتقان ، أو هى خطل ومجازفة من وجهة النظر النازية فضلا عن وجهات النظر الأخرى

فلماذا لم يضرب دانزيج بدلا من ضرب التشك قبل مؤتمر ميونيخ ؟

لم يكن لبولونيا ضمان من دفاع فرنسا و بريطانيا العظمى فى تلك الآونة ، ولم تكن على استعداد للقتال وحدها كما ظهر بعد ذلك فى الحرب الحاضرة

فاذا ضرب دانزيج واتفقت الدول على خطة مثل خطة ميونيخ فانه لقابض اذن على زمام بولونيا و بلاد التشك وجاراتها جميعاً فى مرافق التجارة والصناعة والاقتصاد ، فلا تقوى إحداهن على رد كلمة ولا على رفض اقتراح

ثم لماذا لم يقبل ما اقترحه الرئيس روزفلت وارتضاه ساسة الحلفاء من عقد المؤتمر الدولى الذى يفصل فى جميع مسائل الخلاف ؟

ألا يجوز أن تختلف الدول فى ذلك المؤتمر فيواجهها مختلفات بدلا من مواجهتها متفقات ؟ ألا يجوز أن ينتزع من أنصار التسليح فى الدول الديمقراطية حجتهم الكبرى التى أقاموها على رفضه التحكيم فلا سبيل إلى معاملته اذن بغير التسليح ؟ ألا يجوز أن يعذره الرأى العام فى الدنيا بأسرها إذا لجأ إلى الحرب لأنه قد أكره عليها اكراها بعد أن جرب وسائل الاقناع فلم يبلغ بها ما أراد ؟

كل اولئك كان جائزا ، وكان خيرا مما اختار

وكل ما هنالك من اعتراض على هذا الرأى أن إطالة الزمن فى المؤتمرات ربما مكنت الدول الديمقراطية من زيادة الاستعداد

فماذا صنع هو الآن ؟ هل منع ذلك الاستعداد ؟ وهل استفاد شيئا من المبادرة بالحرب قبل تمامه ؟

كلا . بل خسر أشياء كثيرة ؛ خسر الوقت الذى كان يزداد فيه استعدادا بالتموين والتخزين

وخسر الفرصة التى كان يوقع فيها الخلاف بين أنصار التسليح والدعاة الى نزع السلاح ، فلا يجمعون كما أجمعوا — من جراء خطته الهوجاء — على ضرورة التسليح جهد المستطاع

وخسر البلاد التى اضطر الى تركها للروسيا فى أوروبا الشرقية وشواطىء البحر البلطى ، وقد كان طامعا فيها لامراء

وربما قيل أنه لايبالى عواقب ذلك لأنه على يقين من خراب الروسيا بعد موت ستالين ، أو بعد الثوره الداخلية التى يتوقعها كثيرون

فان قيل هذا فقد كان أحرى أن ينتظر ذلك اليوم فيستريح من الحرب

الحاضرة ومن سوء السمعة التى جلبها على نفسه بصداقة الشيوعيين

***

الحق أننا لانعرف فى الحاكمين بأمرهم رجلا أفشل حسابا من هتلر فى هجومه كل مرة على خطأ واحد يدفعه من ورائه الى أخطاء

ولقد كان ذلك دأبه قبل ولاية الحكم وبعد ولاية الحكم ، ولا يزال دأبه الى الآن

فقبل الحكم أخطأ الحساب حين ظن أن الفرصة سانحة لقهر خصومه يوم عيد الميلاد (مايو ١٩٢٣) فاختلس السلاح من مخازن جيش الهجوم ليضرب به العمال المتظاهرين ، ثم عاد الى تسليمه مذعنا لتهديد الضابط لوسو Lossow معترفا معه بما فى هذه الحماقة من العجلة والمجازفة

وأخطأ الحساب من نوفمبر فى تلك السنة حين ظن أن الفرصة سانحة لقلب الحكومة فجمع جنوده وأزمع أن يقتحم ديوان الدولة بميونيخ ، وهو يعلل نفسه بولاء الحراس الحكوميين ويعتقد أنهم لن يطلقوا النار على المقتحمين ... ثم خاب ظنه فكان أول الهاربين عند انطلاق النار ، ولبث بعد هذه المجازفة الأخرى عشر سنوات يستعيد ما أضاع من ثقة ومن أنصار

وأما بعد الحكم فقد يكون فى تفاصيل عمله خطأ وصواب . لكنّ الاساس الذى قام عليه العمل كله خطأ لاشك فيه ، وهو اعتماده هنا كما اعتمد فى ميونيخ على أن خصومه لايطلقون النار . . فقد ظن أنه يراوغ ويراوغ الى غير انتهاء ، وأن الدول الديمقراطيه تقبل التخدير بعد التخدير الى غير يقظة . فلم يصدق حسابه هنا ولا هناك

لماذا اختاروه ؟

وقبل أن نسأل : لماذا اختاروه ؟ ينبغى أن نسأل : من الذى اختاره ؟ وما معنى اختيارهم إياه ؟

هل معناه أن ثمانين مليونا من الألمان اجتمعوا قبل نيف وعشرين سنة فعجموا أعواد رجالهم فردا فردا فلم يجدوا بينهم أحدا أصلح من هتلر للزعامة الالمانية ؟

هل معناه أن مؤسسى حزب النازى كانوا يملكون السيطرة على الأمة الألمانية بأسرها فيختارون من يشاءون ثم لا يقدر أحد على أن يرفض لهم أمرا ولا يسعه إلا أن يفرغ للزعامة التى ندبوه لها وهو يجهل مصيره ومصيرها ؟

هل معناه أن مؤسسى حزب النازى أصحاب ميزان لا يختل ولا يخطىء فى وزن الرجال فمن اختاروه للزعامة وجب أن يكون أفضل قومه بغير جدال ؟

كلا بالبداهة ! .. لاهذا ولا هذا ولا ذاك

فليس معنى اختياره قبل عشرين سنة أن الأمة الألمانية اختارته ، أو أن المؤسسين لحزب النازى فرضوه على تلك الأمة ، أو أنهم وزنوا الرجال جميعا فلم يخطئوا الميزان

وإنما معناه الواقع أن خمسة أو ستة من المشتغلين بالسياسة نظروا فى متناول أيديهم فوجدوا هتلر موافقا لهم وموافقا للشروط التى يطلبونها

ومتى عرفنا تلك الشروط عرفنا قيمة ذلك الاختيار ، وعرفنا أن معظمها « سلبى » يستلزم النفى أكثر من استلزامه الاثبات ، أو يستلزم فى الزعيم المطلوب تجرداً من صفات معلومة ، ثم يأتى بعد ذلك دور المزايا التى ينبغى أن يتحلى بها و يرجح بها على رفقائه

فالشرط الأول ألا يكون من طبقة النبلاء والأسرياء ، لأن نوبة السخط على هذه الطبقة قد بلغت أشدها بعد الحرب العظمى ، فهرب أمراء الولايات وقامت فى دسوت الحكومة جمهرة من الصناع والمتوسطين ، وأصبحت كل حركة سياسية يتولاها زعيم من النبلاء والأسرياء متهمة بالرجعة الى القديم المكروه

وظل هذا الشعور غالبا على نفوس الألمان زمنا طويلا بين أحزاب الشمال وأحزاب اليمين على السواء . فكتب الكابتن روهم صديق هتلر يقول : «لا ارتداد إلى العهد البائد . لارجعة . لامعونة لنا تنتظر من أصحاب السعادات الداثرين ، وإنما رجال عمل من جميع الطبقات ، وشبان قبل شىء . . . »

وهتلر كان فقيرا من طبقة أبناء الموظفين الصغار ، وكان فى ذلك الحين لايكاد يعدو الثلاثين ، وكان من صف الجند فوق رتبة الجندى بقليل

والشرط الثانى أن يكون خالياً من الروابط الاجتماعية والأواصر البيتية التى تقيده بنزعة من النزعات ، أو تحول بينه و بين التفرغ لحياة المظاهرات وخطب الأرصفة والميادين

وهتلر لم يكن يخسر شيئاً بالتفرغ لهذه « الصناعة » التى هى خير من البطالة والفراغ ، ولم يكن ينقطع عن واجب بيتى أو واجب أبوى أو بنوى ، لغربته وجفاء أهله وعجزه عن الزواج ، فهو يربح كثيراً من صناعة السياسة ولا يفقد الكثير ولا القليل .

والشرط الثالث أن يكون موافقاً للبيئة البافارية وهى بيئة محافظة قريبة إلى أحزاب اليمين ، لأن البافاريين تابعون للكنيسة الكاثوليكية ونفوذ الكنيسة بينهم عظيم . وبلادهم أصلح من غيرها لنشوء الحركات المعادية لأحزاب الشمال ، ثم هى بعيدة عن عاصمة الدولة الكبرى التى فيها سلطانها وهيلها وهيلمانها ، فلا يسهل تهديد النظام القائم فى برلين كما يسهل فى ميونيخ

وهتلر كان كاثوليكيا فى نشأته وإن لم يكن من المتعبدين ، وكان مجنداً فى جيش بافاريا ورائدا من رواد ميونيخ التى كانت تعد فى حينها عاصمة المصورين والموسيقيين ، وقد كان هتلر كما نعلم يتعاطى حرفة التصوير

* * *

والشرط الرابع أن يكون « مهاودا » لزملائه أولا يكون من أصحاب « الشخصيات المخيفة المهيبة المرهوبة » التى يخشون اجتياحها وطغيانها

وقد كان هذا الشرط متوافراً كل التوافر فى هتلر أيام نشأة الحركة النازية . فيجب أن ننسى هتلر الذى يصول الآن بقوة الدولة وقوة الزعامة التى لامنازع لها ولا نجاة لمن يعصيها ، ثم نذكر هتلر الذى كان قبل عشرين سنة محتاجا إلى كل شىء من مطالب المعيشة ومطالب السياسة ، وكان مشهوراً بالدهان والملق لمن فوقه ولمن يملكون أسباب نجاحه

وليس معنى هذا أن هتلر محروم من العزيمة والارادة فهو فى الحقيقة صاحب عزيمة وصاحب ارادة . ولكنها من نوع غير ذلك النوع الكاسر الذى يروع الناس لاول نظرة ، ولعل عزيمته أشبه ما تكون بعزيمة المرأة الدؤب الملحاح التى تصل بالدأب والالحاح والعناد إلى ما تريد ، فهى لا تصدم من يراها أول مرة كما يصدمه المردة القهارون من أصحاب « الشخصية » الغالبة ، بل لعل الناظر يلحظ عليها التردد والجنوح إلى اللف والمراوغة ، فيحسبها طوع يديه حين تحزب الأمور

وقد أشار هتلر نفسه إلى شهرته بالتردد حين وقف فى الريشستاج على أثر مذبحة روهم ورفقائه لتسويغ ما فعله فقال إن المتآمرين قد غرهم به ما زعموه من « عجزه عن البت السريع عجزاً لا يشفيه إلا أن يضعوه أمام الأمر الواقع »

وهذا ظن العشراء به وقد تسنم الذروة التى يستوى عليها الآن . فكيف بما كان عليه أيام الابتداء أيام الشك والترقب والافتقار إلى الأعوان

إن تاريخ الزعامات السياسية لحافل بامثال هؤلاء الذين يختارهم زملاؤهم لأنهم أسلم جانباً وآمن شراً وأطوع قياداً ، ثم تتبدل الأحوال دفعة واحدة يوم يستقرون فينقلبون ذئابا على من حسبوهم نعاجا لا تفتك ولا تخيف

* * *

تلك خلاصة الشروط «السلبية» التى كانت ترشح الرجل لزعامة النازيين ، وهى الشروط التى تستلزم صفات مفقودة وقلما تستلزم صفات موجودة

أما الشروط التى تدخل فى باب « المزايا » الموجودة فهى الخطابة والحماسة والذكاء والاهتمام بالسياسة والالمام بالمعارف العامة ، وكانت موفورة فى هتلر لأنه خطيب جهورى الصوت شديد الايمان بالعصبية الجرمانية عظيم اللدد فى الخصومة الحزبيه ، ذكي اللب ملم بمبادىء الأحزاب المختلفة منذ صباه ونشأته فى النمسا التى كانت كأنها « برج بابل » من الدعوات السياسية ، تتعالى فيه الصيحات بين المحافظين أنصار البلاط والأسر العريقة ، وبين الأحرار طلاب الاستقلال فى الاقطار المختلفة التى كانت خاضعة لآل هابسبرج ، وبين أشياع الكنيسة ومعارضيها ، وبين الاشتراكيين على اختلاف المذاهب والألوان ، وبين أعداء الساميين وأعضاء المحافل الماسونية والأندية السرية ، فكان حسب الرجل الذكى أن يفتح أذنيه ويفقه ما يسمع ليجتمع له من المعارف العامة والحجج المتقابلة والدعايات المتناقضة ما يكفى لسلوك الطريق فى حركات الجماهير

وكان اجتماع هـذه الشروط مع الشروط الأولى من أندر الأشياء ، ولاسيما فى متناول النازيين وهم مبتدئون مستضعفون لم يبلغوا بعد مبلغ الهيمنة على عقول السواد ولا مبلغ الزلفى عند العلية وذوى الجاه والمال ، فلما التقى هتلر بالافراد القلائل الذين كان يعرفهم وكانوا يعرفونه لم يكن عجبا أن يرحبوا باختياره واجتماع ما اجتمع فيه من شروط الزعامة الحزبية ، فهو طلبتهم فيما يستطيعون بين تلك القيود

ولم يكبر الحزب قليلا حتى شـعر رجاله أن زعيمهم فى حاجة الى كثير من التشذيب و « التنجير » كما يقول العـامة ، فأشار زميله فيـدر Feder بتعيين مرافق له من الضباط العسكريين يدربه على تنظيم أوقاته وتقسيم ساعاته ، ونصحه آخرون بالاقامة فى برلين فترة من الزمن لأصلاح لهجته الريفية بالمعاشرة والتردد على معاهد فن الالقـاء ، وتقـدم شيئا فشيئا فوكل به شاخت معلما يلقنه أصول الاقتصاد وانتقى له الدكتور والترفنك Walther Funk الذى خلف شاخت فى مركزه بعـد وصول هتلر الى رئاسة الدولة . واتخـذت مسألة تحضيره جانباً فكاهياً يشبه تحضير الممثل لدوره المرسوم. .ولم يكن هذا مجازاً أو استعارة بل كان وصفاً حرفياً لما تعهدوه به من التدريب والتهذيب . فقد كان معلمه الاكبر فى بداية الحركة رجلا مشغولا بالاخراج المسرحى والرواية التمثيلية ، وهو الـكاتب الالمعى البراق ديتريش ا كارت Dietrich Eckart الذى كان اسمه آخر كلمة خطها هتلر فى كتابه « كفاحى » على سبيل التحية والتمجيد ، والذى اشتهر بالنزعة الآرية وبغض اليهود واتقان الهجاء اللاذع فيما يكتب وينظم . وقـد تزداد علما بمعنى اختيار هتلر للزعامة إذا علمنا الشروط التى كان أكارت ينشدها فى زعيمه وهى « ألا يكون ضابطا لأن الناس أعرضوا عن الضباط ، وأفضـل من ذاك صانع فى كسوة جندى صـغير ، وليس من اللازم اللازب أن يكون ذا رأس كبير ، لأن السياسة أسخف شغل فى الدنيا ، وكل بائعة من نساء

السوق فى ميونيخ تعى مقدار ماوعاه السادة فى فيار ، ولخير من ذاك أن يكون الزعيم غبياً مزهواً يحسن الرد على الجماعة الحمر (الشيوعيين) ولا يجرى من كل رجل كرسى ترتفع لضربه . . . وتمام الوصف المنشود أن يكون أعزب غير ذى أسرة فنجتذب الينا النساء » (١)

ويقول الذين عارضوا أسلوب هتلر فى كتابه وفى خطبه بأسلوب اكارت هذا أن هتلر قد اقتبس منه عبارات بحر وفها وكلمات نموذجية من الفاظه التى طالما رددها فى صحيفته ورسالاته ، وأنه اقتدى به فى الكتابة والخطابة ، واحتذى حذوه فى الرأى والطريقة

على أن الدكتور جورج شوت Dr Georg Schott أقدم المثقفين معرفة بهتلر يقول فى وصفه « إنه نقيض رجل الدماغ . إنما هو رجل القلب ، رجل الدم ، مذياع الأحلام »

وللدكتور شوت هذا كان هتلر يقول : « ليس كل منا نحن جميعاً إلا يوحنا صغير . . . إننى اترقب المسيح »

وطالما قال هتلر للقائد « لودندرف » إنه لا يريد الرئاسة ، وحسبه أن يصبح نافخ البوق . . . لأنه أحس أن القائد الكبير أحرى أن يتبوأ مكان هندنبرج ، وأنه هو حسبه أن يتبوأ معه مقعد المستشار . وقد استقال هتلر فعلا من زعامة النازى بعد سجنه ، وتولاه فى تلك الآونة يأس عظيم فأزمع أن يصوم فى السجن صيام ما كسوينى ليسلك نفسه مع الشهداء . . ولولا أن الحركة نامت فى حينها نومة طويلة ولم يدعُ الأمر إلى انتخاب رئيس آخر لكان من الجائز أن تنطوى صفحة هتلر وهو مسجون

فزعامة هتلر على النازيين هذا معناها :

---

(١) من كتاب ترجمه هتلر لمؤلفه كونراد هيدن Heiden

معناها أنه وافق المطلوب فى حدود الطاقة ، وأنه لما استقر فى الزعامة لم يسهل اجلاؤه عنها ، ووجب أن يرأس الوزارة حين وجب أن يدعى حزبه إلى الديوان

* * *

ومالنا بعد هذا وذاك لانختصر مسألة الزعامية الألمانية كلها بكلمات ؟ . . . لقـد تأتى للمدعو « هاوسر » Haüsser فى ابان تلك الفترة أن يظفر بستين ألف صوت فى انتخاب رئيس الجمهورية ، وأن يطبع صحيفة تبيـع مائة ألف نسخة ، وأن يكون له اشياع ومريدون يعدون بالألوف .

ومن هاوسر ؟

هو رجل لاتدرى أمجنون هو أم عاقل ؟ ودجال هو أم درويش ؟ فقد كان يسمى نفسه المهدى المنتظر ، ورئيس الولايات المتحدة الأوربية ، وينادى بأنه هو الحق وهو السبيل وهو الحياة

ومن يدرى ؟ فلعله لو اتفقت له مصادفات كمصادفات هتلر ، وكان للدراويش نصيب من السياسة العصرية لفاز بلقب الفوهرر وسبق هتلر اليه ، لأنه هو أيضا كان يدعيه ويطلب من هتلر مبايعته عليه . . . وكم فى الأيام من مضحكات ! . .

* * *

إن ورقة النصيب لاتساوى عشر مليم ، ولكن كراتٍ ثلاثا أوأربعا تتفق فى دولاب الأرقام كافية لاعطائها قيمة الالوف من الجنيهات

وكذلك تتفق أربع صفات أو خمس صفات متفرقات فيصبح الفرد من الافراد فى قوة عشرات الملايين

وليس حتما من أجل هذا أن يعد هتلر فردا كسائر الافراد

وإنما الذى نقصده أن ننبه المدهوشين المستعظمين حين يسألون : أجندى لم

يرتق إلى صفوف الضباط يرتقى آخر المطاف إلى ذلك المكان الرفيع ؟

إذ ليس لهذا الاستعظام موضع صحيح . لأن الرتبة الصغيرة لم تكن هى العقبة التى كان عليه تذليلها ، بل كانت هى المزية التى ذللت أمامه جميع العقبات ، وهى الصخرة التى قام عليها جميع ذلك البناء .

سياسة هتلر :

من الأوهام الشائعة أن ألمانيا لم تنجح فى ضم السار والرين والنمسا و بلاد السوديت ، ولم تحطم ماحطمت من قيود معاهدة فرساى ، إلا بفضل القوة القاهرة التى أضفاها عليها هتلر فى مدة حكمه .

وهذا خلاف الواقع المؤيد بالأسانيد

فان هتلر قد احتل وادى السار بعد الاستفتاء المتفق عليه ولما يمض على إعلانه التجنيد الاجبارى غير ثلاثة أشهر ، ولم يكن خط سيجفريد مبنياً فى ذلك الحين .

ومصطفى كمال لم ينفق جزءاً من ألف من ربوات الملايين التى أنفقها هتلر على التسليح ، واستطاع مع ذلك أن يفتح الآستانة فتحاً ثانياً وفيها جيوش الحلفاء ، وأن يعيد اليها الحصون التى منعت اقامتها بعد هزيمة الحرب العظمى ، وأن يلغى الامتيازات الأجنبية والمعاهدات التى سبقت المانيا الحديثة ونشأت من أيام سليمان الكبير

ولما أغار هتلر على النمسا كانت غارته هذه تضارب السياسة الايطالية والسياسة الروسية كما كانت تضارب السياسة الفرنسية والسياسة الانجليزية ، ولم تكن دولة واحدة فى أوربا الشرقية أو أوروبا الوسطى تستريح إلى وقوع النمسا فى قبضة السيادة النازية ، فهل يقول عاقل أن هتلر قد نجح فى غارته بقوة تفوق هؤلاء جميعاً فى ميدان القتال ؟

كلا . ليست المسألة إذن مسألة القوة والاستعداد ، ولم ينجح مصطفى كمال ولا هتلر فيما صنعاه لانهما أقوى من الدول التى كانت تأبى ماصنعاه ، و إنما سر المسألة كله صعو بة الاقدام على حرب عالمية سواء كان المقدم عليها من الحكام الدستو ريين أو من الحكام المستبدين

فالذى صنعه هتلر إذن هوأنه غيّر هذه الحالة بسياسته الخرقاء ، وجعل الصعب سهلا على الدول فى مدى ثلاث سنوات . . . وما ثلاث سنوات فى تواريخ الامم وحوادث الدنيا ؟ ؟

فهتلر لم يكن قو يا يوم أحجمت الدول عن حر به ، ولم يكن ضعيفا يوم نفضت عنها الاحجام ولم تجد بين يديها مناصا من الاقدام . بل كان أضعف ما كان وهى محجمة عنه ، وكان أقوى ما كان وهى مقدمه عليه

فليست القوة اذن هى التى أكرهت الدول على تركه وشأنه يفعل فى السار والرين والنمسا والسوديت مايريد

و إنما كانت هناك حالة إغضاء فغيّرها هتلر بحالة المقاومة والعداء

فان كان هذا ما أرادة فقد نجح

لـكنه يكون فى هذه الحالة أخرق من عرفت الدنيا من ساسة الأقوام ، لأن أحداً من الساسة الراشدين لا يعمل بيديه ولا يبذل كل مايملك لتأليب أعدائه عليه ، ولو كان على يقين من الظفر الأخير ، فـكيف والظفـر مجهول ؟ وكيف وهو بعد تحقيقه لا يضمن لصاحبه النجاح فضلا عن دوام النجاح ؟

كلا ! ليست سياسة هتلر هى التى أتاحت له أن يفعل ما يشاء ، بل سياسة هتلر هى التى جمعت الخصوم على منعه ، وأقنعت الأمم — قو يها وضعيفها — أن كل مسلك مع هذا الرجل غير المقاومة والمصادمة لا يفيد

***

وليس بصحيح أن ألمانيا انتظرت مكتوفة اليدين حتى أراحها هتلر من أثقال المغارم والقيود التى فرضتها المعاهدات

فقد أعلنت الحكومة الالمانية فى سنة ١٩٣١ أنها لا تدفع شيئا من المغارم والتعويضات ثم جاء مؤتمر لوزان فأعفاها منها كل الاعفاء .

وقد تمت فى ديسمبر سنة ١٩٣٢ قواعد الاتفاق الخماسى على التسوية بين المانيا والولايات المتحدة وانجلترا وفرنسا وايطاليا فى شروط التسليح والضمان

واستطاع المستشار هنريش برونتج Heinrich Bruning أن يتفق مع مندوبى انجلترا والولايات المتحدة وايطاليا على إباحة توريد السلاح وتحصين الحدود وزيادة الجيش الى ثلثمائة ألف فى وقت السلم ، وإجازة تدريب الجنود المرابطين الى جانب الجيش القائم ، ومد الخدمة العسكرية الى خمس سنوات . . ولم تبق إلا موافقة السفير الفرنسى لابرام الاتفاق . فما الذى حال دون ابرامه قبل استقالة برونتج من استشارة الريخ ؟

العجيب أن الذى عطل هذا الاتفاق هو فون پاپن وأصحابه الذين كانوا يعملون لاسقاط برونتج ودعوة هتلر الى الوزارة ! . . فانهم اجتمعوا بسفير فرنسا وأبلغوه أن برونتج ذاهب لا محالة فلا فائدة ترجى من تضييع تلك الهبات على وزير يوشك أن يستقيل ، وأن « أناسا متطرفين » يوشك أن ينهجوا فى المانيا سياسة العداء والتحدى فلا يحسن التعجيل بتلك الهبات قبل جلاء الحال (١)

وكأنما أحس هؤلاء الساسة أن نجاح برونتج يقضى على آمالهم ويفض الشعب عنهم ويجنح بألمانيا الى طريق غير طريقهم فأفسدوا عليه وعلى أمتهم

---

(١) كتاب فرانز فون پاپن تأليف Blood Ryan

الامر ، وأحبطوا عمـله ليقنعوا الشعب بضرورة التحدى والعـداء

وصفوة القول أن استنزاف الثروات والجهود والتسليح والتهديد لم يكن لازما لقضاء مطلب من المطالب النافعة ، وأنه على فرض نفعه لم يكن مضمون العواقب مأمون المصير

فليس من المحقق أن مصالح المـانيا أو مصالح العالم تستلزم تلك الأعمال العنيفة التى لايسلوها هتلر ورفقاؤه . ولـكن من المحقق الذى لاشك فيه أن تلك الأعمال جميعاً توافق طبائع اناس مفطورين على العجرفة والقسوة والغدر وتمرد الذليل الذى يرضيه أن يهدد ويتوعد ، ولو لم تـكن ثمة ضرورة للتهديد والوعيد

وكل عمل من أعمال هتلر ورفقائه نستطيع أن نفهمه إذا فهمنا الحاجة إلى العجرفة والقسوة والغدر والتمرد وسائر تلك الصفات ، فليس فى عمل منها إذن قليل ولا كثير من الغموض

لكننا لانستطيع أن نفهمه إذا قيل أنه لازم للمصالح العالمية والمطالب القومية كائنة ما كانت . لأن لزومها مشكوك فيه ، ونجاحها كذلك مشكوك فيه

وإذا كان التفسير الجامع المـانع للاعمال المتفرقة المتعددة هو التفسير الصحيح القريب إلى المعقول ، ففيما تقـدم بيانٌ لحقيقة البواعث الباطنـة التى تستفز أولئك الناس إلى الجرائم التى يقترفونها ثم يزعمونها من مصالح العالم أو مصالح الالمـان

وإنك لتسأل : لماذا اعتـدى هتلر على الضعفاء وقتل الخصوم والاصـدقاء واختار الارهاب والارغام دون الاقنـاع والارضاء ؟ ؟ فاذا أجبت : انه فعل ذلك لانه مجرم النفس لم تجد عملا من تلك الاعمال يناقض هذا السبب فى بدايته أو منتهاه

ولكنك واجدٌ مئات النقائض إذا قيل لك أنه قد فعل مافعل لمجد ألمانيا أو لمجد الآريين ، أو لاشباه هذه التعلات ، ولا ينفى هذا أن أعماله ليست كلها جرائم وفظاعات ، فان المجرمين يعملون فى حياتهم أشياء كثيرة غير الاجرام ، ولا يتنفسون الاجرام شهيقاً وزفيراً فى اليقظة والمنام

هتلر يخطب

الفصل الثاني

مطالب ألمانيا وشكاياتها

مطالب ألمانيا وشكاياتها :

إلا اننا نبحث مطالب المانيا وشكاياتها بحثاً منفرداً عن الاعتبارات السابقة لنرى مقدار ما تنطوى عليه من الحقيقة ، ومقدار ما تثيره من السخط المعقول فى نفوس الألمان ، وأولها الشكاية الكبرى بل الشكاية الجامعة لكل الشكايات ، وهى معاهدة فرساى .

لقد أكثر الألمانيون عامة والنازيون خاصة من تعديد مساوىء فرساى ومظالم فرساى وجرائر فرساى حتى خيل إلى الناس ان هذه المعاهدة كان ينبغى أن تكتب لمصلحة المغلوب لا مصلحة الغالب ، ولسلامة المانيا لا سلامة خصومها .

ولم يقتصر نقد فرساى على الألمان والنازيين ، بل تعداهم إلى الانجليز والفرنسيين والامريكيين ، ومن وقفوا فى الحرب الماضية موقف الحيدة بين المعسكرين ، وقد كان هؤلاء الناقدون ممن يعتقدون حقاً ان معاهدات السلام اشتملت على جميع تلك المساوىء التى أحالوها عليها ، أو ممن يعارضون حكوماتهم وينصحون بسياسة غير سياستها ، فيحبون أن يلقوا على عواتقها تبعات الحوادث والمشكلات العالمية ويمنّون الشعوب مستقبلا خيراً من الماضى الذى يسألون عنه تلك الحكومات . هذا أو يكون الناقدون لمعاهدات السلام ممن يسخرون أقلامهم للنازيين وأشباه النازيين ، ليساعدوهم على التغيير والتبديل وتحقيق المطالب والمقترحات . وليس وجود هؤلاء المأجورين بالغريب إذا ذكرنا الملايين التى كان النازيون وأمثالهم يبذرونها فى جميع الأقطار .

ومعاهدة فرساى قد اشتملت ولا شك على اخطاء كثيرة وعيوب كبيرة ، أكبرها فيما نعتقد خطأ المغارم والتعويضات التى فرضتها على الألمان . فان هذه المغارم والتعويضات خطأ من الوجهة الاقتصادية الفنية وإن كانت عدلا من وجهة الجزاء والحساب ، لأن الألمان اذا حاولوا أن يؤدوها نقدا لم يجدوا المال بغير تجارة خارجية ، واذا أغرقوا الأسواق الخارجية بمصنوعاتهم و بضائعهم كانت خسارة الظافرين من جراء هذه المنافسة أعظم من خسارتهم بفقد التعويضات ، واذا أرادوا أن يؤدوها عينا و بضاعة كسد ماعند الظافرين من عين مماثلة و بضاعة مشابهة للبضاعة الالمانية

ومثل هذا الخطأ وشيك أن يظهر ، وقد ظهر . فابتدأ الظافرون باصلاحه على طريقة داوس Dawes ثم على طريقة يونج Young وكلتاهما ترمى الى التقسيط والاعفاء والتأجيل ، ثم عدلوا بتة عن المطالبة بالفروع والاصول واكتفوا بما أخذوه ، وهو نحو الثمن من المطلوب مما أعانهم على تعمير الخرائب وتجديد المعالم بضع سنوات ، وانتهت هذه المسألة فى مؤتمر لوزان (سنة ١٩٣٢)

فمسألة التعويضات كانت خطأ ولم تكن ظلما ولا عنتا من الظافرين ، اذ ليس بالمعقول أن يغرم هؤلاء الظافرون ماغرموا من تكاليف الحرب ومن تخريب الأرض وتدمير المناجم ودور الصناعة ثم يعمروا هذا الخراب بأموالهم وجهود أبنائهم والالمان المهزومون ناجون فى ديارهم لم تخرب لهم مدينة ولم يتعطل لهم مرفق أو صناعة ... ولو جاز هذا لكانت الهزيمة فى الحروب خيرا من الانتصار

***

كذلك أخطأت معاهدات السلام فى تقسيم بعض البلاد وترسيم بعض

الحدود ، ولـكنه لم يكن بالخطأ الذى لايغتفر ولا بالخطأ الذى يسهل اجتنابه فى مثل ذلك العمل الجسيم

فقد كانت أمام المؤتمرين مسائل مترا كمة لا تخلص من ناحية إلا اشتبكت من نواحى شتى : ان خلصت من ناحية اللغـة والجنس اشتبكت من الناحيـة الجغرافية ، وان خلصت من هذه جميعاً اشتبكت من ناحية التجارة والثروة ، وان خلصت من هذه وتلك اشتبكت من ناحيـة الخطط الدفاعيـة والمواقع العسكرية ، وان خلصت من نواحى اللغة والجنس والتجارة والدفاع اشتبكت من ناحية النزاع بين الدول الـكبرى على مناطق النفوذ أو على مرامى السياسة العالمية او على الاحقاد التاريخية أو ماشا كل ذلك من العقد المؤرّبة التى لاتحصى . فاذا أخطأت المعاهدات فهو خطأ مفهوم ليس فى وسع أحد — حتى هذه الساعة — أن يدل الدنيا على صواب فى موضعه يقنع جميع الشاكين و ينصف جميع المظلومين و يبطل جميع المنازعات

وقد رأينا أمثله مما فرضه الالمـان الغالبون على روسيا فى معاهدة « برست ليتوفسك » وعلى رومانيـا فى معاهدة بوخارست وعلى المغلوبين الآخرين الذين لم يبرمو معهم صلحا ولا سلاما فاذا الرحمة كل الرحمة فيما فرضته فرساى وأنفذه الحلفاء من الشروط ، واذا الالمان يقولون و يفعلون دائما كما قال غليوم الثانى فى مبدأ الحرب الماضية : ويل للمغلوب !

ولو أننا نظرنا الى فرساى من حيث الأثر الواقع فى المانيا لوجدنا أن فرساى هذه كانت خيرا للالمان من فرساى التى خرجوا منها منتصرين فى حرب السبعين

فقد كان قصارى ما بلغه الألمـان فى حرب السبعين أن خرجوا منها أمارات متفرقات على كل امارة منها عرش وتاج وفى كل منها حكومة ودستور . . . فأصبحوا بعد فرساى الحديثة دولة واحدة لا فوارق فيها بين الامارات

وقد لبث الألمان المنتصرون أربعا وأربعين سنة حتى استعدوا للحرب الماضية ولم يلبث الألمان بعد فرساى الحديثة عشرين سنة حتى أصبحوا على أهبة القتال فى عدة سابغة لم تكن تملكها دولة منتصرة فى الحرب الماضية

سأل « الجنرال » جورنج سفير بريطانيا العظمى السير نيفل هندرسون عند ذهابه لأول مرة إلى نورمبرج (١٩٣٧) : من من الدول كان أعظم ربحا فى الحرب العظمى ؟

فأجاب السفير : إنها هى إيطاليا لأنها ضمت اليها حدودها الجغرافية والعسكرية ثم الامم الصقلبية بعد ايطاليا

فقال جورنج : « كلا . بل هى المانيا . إذ هى لولا تلك الحرب ولولا الهزيمة فيها لكانت وحدتها ضربا من المحال »

وهذه هى الحقيقة التى لايجهلها زعماء النازيين ولا ينبغى أن يجهلها أحد ممن يعرضون بالنقد لمعاهدة فرساى الأخيرة

على أننا نقارن بين فرساى الاولى وفرساى الثانية فيخطر لنا سؤالان لافكاك منهما وهما : لماذا انهزمت فرنسا فى فرساى الاولى فانتهت من الهزيمة إلى تحطيم الاستبداد وتعزيز الحرية والحكومة الديمقراطية ؟ ولماذا انهزمت المانيا فى فرساى الثانية فانتهت إلى هدم الديمقراطية وتمكين صرح الاستبداد ؟

للأمر سر غير فرساى وكل ما انطوت عليه معاهدات السلام ؟

للأمر سر مكشوف هو طبيعة الاستبداد ومطامع المستبدين فى البلاد الالمانية ولا سيما البلاد البروسية

فقبل فرساى كانت المطالب التى تطلبها المانيا الآن محققة بأجمعها ولم يكن لمظالم فرساى ولا لمعاهدة فرساى أثر

كانت معها دانزيج ، وكان معها ممر دانزيج ، وكانت معها المستعمرات ،

وكانت معها شواطىء البحر البلطى ، وكانت معها الالزاس واللورين ، وكانت معها عواطف الشعوب التى انقلبت إلى الشك فيها بعد قيام الحركة النازية

فماذا أغنى عنها كل ذلك ؟

لم يغن شيئا ولم يمنعها أن تنادى بالسيطرة العالمية ، وأن تعمل لبسط هذه السيطرة على الأصدقاء والأعداء

ففى سنة ١٩١١ لم تكن هنالك مظلمة من مظالم فرساى ولاهزيمة كاذبة أو صحيحة، ولكن الجنرال فردريش فون برنهاردى Friedrich Von Bernhardi الف يومئذ كتابا عن « المانيا والحرب القادمة » أوجب فيه الحرب على قومه وعقد منه فصلا عنوانه « السيطرة العالمية أو السقوط »

وكان مكسميليان هاردن Harden كاتب صحيفة دى زكونفت Die Zukunft يقول قبل ذلك بسنة فى صحيفته [1] « نحن خلقنا للحرب . فلنصنع الحرب صنعاً قبل فوات الأوان »

وكان الدكتور كلاس رئيس العصبة الجرمانية يقول قبل الحرب الماضية بسنة : (إن قوة ألمانيا العسكرية تستخدم حيثما نتعرض نحن أو يتعرض جيراننا للمنافسة من ذوى النيات السيئة ، وان شعبنا الذى يسرع فى نموه يجب أن يقرر حقه فى الوجود وأن يبسط يده على أرض جديدة فى أوربا الشرقيه الجنوبيه على الخصوص)

وكان كارل بيترز Karl Peters مدير الاستعمار السابق يقول حوالى ذلك التاريخ : (ماذا كان بسمارك صانعاً لو كان معنا الآن ؟ لقد كان دائماً على استعداد

---

(١) ٧ أكتوبر سنة ١٩١٠

للمغامرة باضرام الحرب العالمية فى سبيل تحقيق مراميه ، ولا مناص لألمانيا من أن تكون على استعداد لمثل ذلك فى كل حين »

وكانت صحيفة الجامعة الألمانية دى بوست Die Post تنذر بريطانيا العظمى (فى سنة ١٩١٢) أن تترك للألمان الحرية المطلقة فى السياسة الأوربية وتقرهم على كل تضخم لقوتهم فى القارة — أى أوربا — سواء نشأ هذا التضخم من محالفات مع دول أوربا الوسطى أو من الاغارة على فرنسا ، وألا تعارض سطامع المانيا الاقتصادية فى البلقان أو آسيا الصغرى » (١)

وكانت صيحة « من برلين إلى بغداد » تملأ الآذان قبل أن يتعلم هتلر معنى التوسع والامتداد

وكان هتلر يحلم فى صباه — كما قال فى كتابه — بسطوة الجرمان وسيطرة الدولة الجرمانية دون أن يكون باعثه إلى ذلك غيظه المحتدم من فرساى ومظالمها الصحيحة أو المفتراة

وثقافة الألمان فضلا عن صحافتهم وأقوال ساستهم فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين طافحة كلها بهذه النعرة التى لاينكرها القوم ولا يسعهم أن ينكروها : القوة ! ومعنى القوة الغطرسة ! ومعنى الغطرسة السيادة والعدوان . فهم ظلموا معاهدة فرساى ولم تظلمهم معاهدة فرساى ، ولعل الحلفاء قد بالغوا فى الثقة بالمانيا ولم يبالغوا فى الحذر منها والتشديد عليها ، فلو رفهوا عنها بعض الترفيه لعجل ذلك بالحرب الحاضرة ولم يؤجلها ، ولحسبته ألمانيا غفلة من الظافرين ولم تحسبه لهم فى سجل الحسنات

---

(١) تراجع هذه الشواهد وكثير من أمثالها فى كتاب « وثبة المانيا » لمؤلفه ارنست هامبلوش nGermany Rampant by Ernest Hambloch

نظرة أخرى فى المطالب الالمانية

ونستقصى الموضوع من جانبه الذى تمثله الدعوة النازية فنفرض أن المطالب الألمانية لم تكن مطلوبة قبل معاهدة فرساى ، وننظر إلى الذرائع التى يتذرع بها النازيون فى يومنا هذا إلى تحقيق تلك المطالب . فهل هى ذرائع صادقة ؟ وهل هى مما يؤخذ على ظاهره ؟ أو يمكن أن يجاب والعالم مطمئن إلى عقباه ؟

أهم المطالب التى سبقت الحرب الحاضرة هى ما يسمونه فسحة العيش Lebensraume والمستعمرات القديمة ، ثم دانزيج ومجازها

* * *

فسحة العيش

ويريدون بفسحة العيش أرض الزراعة « اللازمة » لمعيشة الألمانيين فى القارة الأوربية ، وهى مسألة يقول هتلر فى كتابه أنها لا تُحل بالمستعمرات ولا تعالج فى الكمرون ! ولا محيص فيها من النظر إلى التخوم الأوربية التى يقطنها الفلاح الألمانى وقد ضاق به وطنه ، وشح عليه قَطَنه ، ووجب أن يتوسع أو يموت

فهل تشكو المانيا كثرة السكان وازدحامهم فى الحقيقة ؟ وهل حالها فى ذلك أسوأ من أحوال الأمم الأوربية الأخرى ؟

كل ما يصنعه النازيون يدل على أنهم يشكون قلة السكان ولا يشكون كثرتهم وازدحامهم فى المدن ولا فى الريف

فهم يشجعون النسل و يبذلون معونة الزواج ، و يقيدون الهجرة من بلادهم و يسعون فى طلب الأيدى العاملة من إيطاليا والمجر و بوهيميا وموراڤيا و بولونيا وغيرها ، و يعلنون أن پروسيا الشرقية تتسع لمليونين من الألمان النازحين من الاقاليم البلطية بعد التسليم فيها للروسيين

وقد نشر معهد العمل الألمانى تقريره قبل الغارة على بوهيميا وموراڤيا فقال انه « على الرغم من وفرة العاطلين الذى وجدوا العمل فى سنة ١٩٣٨ بشق النفس لايزال نقص الأيدى العاملة شديدا ، واننا إذا قدرنا النقص فى أوائل سنة ١٩٣٨ بخمسمائة ألف من الصناع والمستخدمين فهو على تقدير الوزير سيروب Syrup للسنة المقبلة لايقل عن مليون »

وفى الوصية الأولى من الوصايا العشر التى نشروها فى منتصف شهر ديسمبر سنة ١٩٣٤ وسموها وصايا غزوة الانتاج « ان ألمانيا فقيرة فى مساحة الأرض ولكنها غنية بسكانها غنية بجميع الموارد التى تكفل لها اطعام أبنائها فى هذه المساحة المحدودة ، واخراج الخامات الصناعية بمقادير عظيمة »

* * *

واذا قارنا بين نسبة السكان على حسب المساحة والتعداد فمساحة ألمانيا ٢٦٨ / ٠٠٠ ميل مربع ونسبة السكان فيها على هذا نحو ٣٦٦ فى الميل

ومساحة بلجيكا ٧٧٥ / ١١ ميل مربع ونسبة السكان فيها ٧٠٧ فى الميل

ومساحة فرنسا ٦٥٩ / ٢١٢ ميل مربع ونسبة السكان فيها ١٩٧ فى الميل

ومساحة هولندة ٦٩٨ / ١٢ ميل مربع ونسبة السكان فيها ٦٧٤ فى الميل

ومساحة بريطانيا العظمى . . . /٩٨ ميـل مربع ونسبة السكان فيها ٤٨٨ فى الميل

فألمانيا اذن أوسع مساحة من بلجيكا وهولندة وبريطانيا العظمى ، [١] ولو أضفنا إلى مساحة بلادهن مساحة مستعمراتهن لما تغير وجه المسألة بهذه الإضافة ؛ لأن أبناء هذه الأمم القاطنين بالمستعمرات بضعة ألوف لاتقدم ولاتؤخر فى الحساب . وقد اثبتت الاحصاءات عن سنة ١٩٣٧ ان القادمين إلى تلك الدول أكثر من النازحين عنها ماعـدا هولندة وايطاليا . ولم يكن المهاجرون الالمان فى جميع المستعمرات الألمانية يتجاوزون عشرين ألفا على أكبر تقدير : أى نحو العدد الذى كان يعيش فى باريس او لندن من الألمانيين

فالصيحة بما يسمونه « فسحة العيش » ان هى إلا صيحة مصطنعة تخفى وراءها بواطن مكتومة غير ظواهرها المـكشوفة

وحقيقة الأمر هى أن النازيين يريدون زيادة السكان ليتمكنوا من فتح الأرض وانتزاعها من أبنائها ، ولايحتاجون إلى الأرض كما يزعمون لأنهم يشكون ازدحام السكان .

أو كما قال هتلر : « اننا الآن نعد ثمانين مليونا من الجرمان فى القارة الأوربية ، ولـكن صواب سياستنا الخارجية هذه لايتقرر ولايثبت حتى نصبح فى مدى قرن واحـد مائتين وخمسين مليونا يقيمون فى هـذه القارة ولايقيمون فيها معصورين كأنهم الارقاء فى خدمة العالم . . . »

وكأنما مشكلة « الفسحة » المزعومة هى فى أدمغـة هؤلاء الناس : كيف

---

(١) الحرب البتراء تأليف أريك مور ريتشى
The Unfinished War by Eric Moore Ritchie

نعتدى ؟ وكيف نبلغ العدد الذى يتيح لنا الاعتداء ؟ وليست هى مشكلة الزحام أو التعاون بين الأمم على تذليل العقبات وفض المشكلات

وسبب الاعتداء حاضر على كل حال . ومن الضرورى أن تموت اليوم كل أمة يطمع النازيون فى أرضها ، لأنهم ينتظرون بعد مائة عام من يصلون إلى الدنيا من مواليد الغيب المجهولين ! . . . وهم بالقياس إلى ما كان عليه آباؤهم قبل مائة عام لن يزيدوا عند حلول الأجل المقدور على مائة مليون

* * *

ولو كان النازيون صادقين فى شكوى الزحام لكان قبيحا بهم أن يعتبروا قتل جيرانهم حقا مشروعا لا يعارضهم فيه معارض ، وان يعتبروه الحق الوحيد الذى يحق للعالم أن يلتفت اليه ، أو الحل الوحيد الذى لا يفكرون ولا يفكر العالم فى غيره . فكيف والصيحة كما رأينا كاذبة ؟ وكيف وهم لا يشعرون بالضيق من كثرة السكان بل يشعرون بالضيق من قلتهم واحتياجهم الى المزيد ؟

المستعمرات :

أما المستعمرات فتراد للاغراض التالية وهى : تصريف السكان ، أو تصريف السلع والمصنوعات ، أو جلب الخامات ، أو المآرب العسكرية والخطط الحربية .

فأما تصريف السكان فقد رأينا قلة غناء المستعمرات جميعا فيه . ولا سيما المستعمرات الألمانية القديمة التى لم يكن منها مايصلح لسكنى البيض غير إفريقية الجنوبية الغربية

فكل من رحل الى المستعمرات الألمانية من أهل المانيا لم يتجاوزوا عشرين الفا يسكن مثلهم كما قدمنا فى عاصمتى فرنسا وانجلترا

وليست الولايات المتحدة ولا الأقاليم الجنوبية من أمريكا مستعمرات نازية أو مستعمرات لدولة أوربية ، ولكنها قد اتسعت لعدة ملايين من الألمانيين يعيشون فيها على حال لا يستبدلون بها المعيشة فى أحسن المستعمرات

وأما تصريف السلع والمصنوعات فلا يعقل عاقل أن الهمج الافريقيين يستنفذون من السلع والمصنوعات مايساوى نفقات يوم واحد من الحروب الحديثة

وأما الخامات فليس منها فى المستعمرات التى كانت تطالب بها ألمانيا غير قليل من المطاط والنحاس ونزر من الأطعمة ومادة الغذاء . وقد دلت الاحصاءات الالمانية نفسها على أن الحد الأقصى الذى بلغته الواردات من المستعمرات إلى ألمانيا لم يتجاوز نصفا فى المائة من جملة وارداتها

ولنضرب المثل بمستعمرة واحدة لتوضيح هذه الحقائق المحصورة بالأرقام ، أو لتوضيح دخائل النيات التى يخفيها النازيون وراء دعوى المطالبة بالمستعمرات.

فمستعمرة الكامرون يسكنها مائتان وواحد وثمانون من البيض الأوربيين : منهم مائة وستة وسبعون ألمانياً ، وواحد وستون بريطانياً معظمهم موظفون ، وأربعة وأربعون من أجناس أخرى معظمهم قسس ومبشرون

وقد عرضت مزارع الكمرون للمبيع (١٩٢٥) فاشتراها الألمان الذين كانوا يعيشون فى المستعمرة قبل الحرب الماضية وأوشكت أن تنحصر فى أيديهم تجارتها صادرة وواردة كما جاء فى احصاء سنة ١٩٣٧

فأصدر الألمان ما قيمته ٤١٩ر٩٤٦ جنيها انجليزيا من جملة صادرات تساوى ٥٢٦ر٥٥٤ جنيها . ولم تزد قيمة الصادرات إلى الجزر البريطانية عن ٣٣ر٧٠٠ جنيه

واستورد الألمان من بلادهم ماقيمته ١٥٦ر٧٧١ جنيها من جملة واردات تساوى ٣٢٨ر٨٤٣ جنيها . ولم تزد الواردات من الجزر البريطانية عن ٣٩ر٢١٠ جنيهات

ولا ننس أن خامات المستعمرات جميعا قلما تبلغ جزءا من ثلاثين جزءا من خامات البلاد الحرة ، وان أمما كثيرة أصغر من أن تكره منافسا أو تقتحم سوقا تتجر فى العالم وليس لهامستعمرات كالسويد والنرويج وسويسرة ، وان الولايات المتحدة لاتملك كندا ولكنها مع هذا تصدر اليها ثلاثة أضعاف الصادرات الانجليزية ، وان رؤس الأموال البريطانية فى الارجنتين أكبر من نظائرها فى جميع البلاد التابعة لبريطانيا العظمى

فالساسة المتوجسون من خفايا النيات التى يواريها النازيون فى اطواء

مسألة المستعمرات معذورون إذا أيقنوا أن الغرض المطلوب إذن هو العدوان العسكرى والترصد للحروب والغارات

وحسب القارىء أن يلقى نظرة على مواقع المستعمرات الألمانية القديمة ومواقع حلفائها ليعلم ما يهدد العالم من أخطارها . فليس أسهل من ايصاد مسالك المحيط الأطلسى والمحيط الهندى والبحر الأحمر على من يملك مكامن الغواصات والألغام فى تلك المستعمرات ، أو يملك مراكز الطيران على جميع الشواطىء الافريقية ، و بعض الشواطىء فى المحيط الهادى وما يليه

وليس أسهل من تهديد القارة الافريقية برمتها سواء فى منابع النيل أو فى جوف الصحراء إذا أعيدت هذه المستعمرات إلى الأيدى النازية ، وثبت للقبائل الافريقية التى تفهم المحسوسات ولا تشغل بالها بما عداها — أن النازيين هم الغالبون وانهم يأخذون كل ما يريدون

عندئذ لايأمن أحد فى افريقية أو فى العالم بأسره تهديد النازيين . ومن الذى يقول ان النازيين لايهددون وهم قادرون على التهديد ! . . . الذى يقول ذلك لا يؤتمن على مصائر شعوب

ومن العبث أن نضيع الوقت فى تفنيد مايزعم النازيون إذ يقولون انهم يطالبون بالمستعمرات لأنهم يأنفون أن تعزى اليهم جريمة الحرب وان تضيع مستعمراتهم عقوبة لهم على تلك الجريمة . . . كأن النازيين يخجلون من الحرب وهم يتعبدون بها و يؤلهونها و يقدسونها فى جميع ما يكتبون ، أو كأنما كان هتلر ينسى هذه القصة يوم كتب « كفاحه » وقال فيه ان المخاطرة فى سبيل المستعمرات من أسخف الحماقات ، أو كأن فتح النمسا وهى بلاد أوربية لايعدل فى هذا المعنى سيطرة ألمانيا على المجاهل الافريقية ، أو كأن استيلاء اليابان على بعض

المستعمرات الألمانية لا يضيرها كما تضيرها المستعمرات التى فى أيدى الأوربيين (الآريين أو أشباه الآريين !)

فهذه تعللات تقال ولا يصدق أحد أن الساسة يقصدونها حقا حين يغررون بها جماهير الشعوب ، أو انهم يجازفون بخراب العالم من أجلها ويصرون على هذه المجازفة سنينا بعد سنين ، ولو صدقوا فى ذلك لكانت وصمتهم بالصدق فيه أشد وأقبح من كل وصمة يفتريها عليهم ألد الأعداء

دانزيج :

أما مسألة دانزيج — وهى سبب الحرب المباشر إذا أخذنا بأقوال اللسان — فكل مايذكره النازيون أنها كانت ألمانية ويجب أن تعود إلى حكومتها الأولى . ثم ينسون ماعدا ذلك من الدعاوى والمصالح والتواريخ القريبة والبعيدة

ينسون مثلا أنها لبثت من منتصف القرن الخامس عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر مدينة حرة فى ظل السيادة البولونية ، وانها ضُمت إلى بروسيا بعد هزيمة نابليون الأول على خلاف مشيئة أهلها ، وان حياة بولونيا تتوقف على دانزيج ولكن حياة ألمانيا لاتتوقف عليها ولو عُزلت عنها كل العزلة ، وهى حقيقة عرفها الساسه الألمان من قديم الزمن وعبّر عنها ملك بروسيا فردريك الثانى أحسن تعبير حين قال « ان القابض على مصب نهر الفستولا لهو أقوى فى بولونيا من الملك البولونى الجالس على عرش فرسوفيا »

ولم تكن سيطرة ألمانيا على دانزيج ضعيفة فى نظامها الحديث الذى قررته المعاهدات بعد الحرب الماضية ، فقد كان الأمر فيها لمجلس الشيوخ وللحكومة المسؤلة أمامه ومعظم أعضائهما المانيون ، ولم يكن لبولونيا من الأمر فيها إلا القسط الكافى لضمان صادراتها ووارداتها وبريدها ، ثم لا ولاية لها عليها . بل الولاية لعصبة الأمم التى تندب حاكم المدينة وترجع اليه فى العلم بأحوالها

ولم يحدث قط أن تعرضت بولونيا للمواصلات الألمانية فى المجاز البولونى المشهور الا لمراقبة المهربات التى قد تحمل الى بلادها ، ولم يطلب النازيون استفتاء الشعب فى ذلك المجاز لمعرفة رأيه فيمن يحكمه الا على شريطة أن يحكموه سنة ثم

يجرى الاستفتاء المطلوب ! ومعنى ذلك أنهم يحتاجون الى سنة فى الحكم النازى المعهود ليضمنوا جلاء من فى المجاز من البولونيين واستدعاء من يخضعهم من النازيين . . . ثم لا يضمنون هذه النتيجة الا أن يكون الحكم فى أيديهم ساعة الاستفتاء ، وأن يكون كل مقيم فى المجاز عارفا ما سيصيبه إذا اختار بولونيا ، وهو يرى بعينه أن اختياره إياها لا يفيد

فليست « دانزيج » هى بيت القصيد

إنما بيت القصيد هو خنق بولونيا ومن يجاورها من أمم أوربا الوسطى . فلا تجد تلك البلاد منفذا لتجارتها فى غير الأرض الألمانية من الشمال أو الجنوب : ففى الشمال دانزيج وفى الجنوب النمسا ، ولن يدخل الى تلك البلاد أو يخرج منها شىء الا باذن النازيين !

ومتى استُعبدت أوربا الوسطى للنازيين هذا الاستعباد فمصير أوربا الشرقية وما وراءها معروف . ومصير الخطط النازية كذلك معروف ، فهى خطط تجتمع فى خطة واحدة ، وهى استعباد كل من يُبتلى لهم بجوار ، أو يقف لهم فى طريق

وعلى الرغم من هذا جميعه لم تكن الحرب ضرورة قاسرة ولا ضرورة غير قاسرة ، لأن أنصار السلام من ساسة الامم فى أوربا وأمريكا تعبوا وهم يقترحون حلول المفاوضة والتوفيق ، فقيل لهم أن الحل الوحيد هو قبول مايريده النازيون ولو كان فى قبوله الفناء

ولمن شاء أن يأخذ المطالب النازية على ظاهرها ، أو يأخذها على باطنها الذى قلما يستره حجاب

فهى على ظاهرها لا تلجىء الى الحرب ولا يكون المقدم على الحرب من أجلها الا مجرما يجازف بسلام أمته وسلام العالم لغير ضرورة

وهى على باطنها سعى حثيث للسيطرة على العالم وتهديدمن فيه من الأقوياء

والضعفاء على السواء . فهل لابد من هذه السيطرة ؟

وهل الحرب طريقها التى لامحيد عنها ؟

هل هى طريق السيطرة على العالم حتى لو انتهت بالانتصار ؟

نفرض أن السيطرة على العالم غايةلامحيص منها فهل الحرب وسيلة لامناص منها ؟ وهل هى وسيلة مضمونة ؟

وماذا لو فشلت الحرب ؟ وماذا لو امتدت وطالت ولم تفشل ؟ أكل هذا لايدخل فى الحساب ثم يقال أن السياسى الذى يهجم على هـــذا كله يحسب ولايخطىء الحساب ؟

أن الرجل الذى لا يعرف له سياسة غير هذه السياسة لا يعرف أن يسوس

لأن الأمم إنما تحتاج إلى السياسة لاحتياجها إلى اجتناب هـذه الشرور . أما إذا كانت لا تحتاج إلى اجتنابها فما أغناها عن السياسة والسواس !

و إذا كانت سياسة هتلر قـد اضطرته إلى ورود هـذا المورد الو بيل فبئس ما فعل ، وساء نصيبه من السياسة

أما إذا كان مختارا يملك الحرب والسـلم ثم لا يبالى أن يخوض الحرب و يعرض عن السلم فالمصيبة أعظم : المصيبة خطل و إجرام وهوس مجتمعات

خلة ألمانية

ذكرنا طرفا من الأسباب التى هيأت النجاح لهتلر وجماعة النازيين فى الأمة الألمانية ، فنضيف الآن أن هذه الأسباب على كثرتها وقوتها لاتكفى لبلوغه النجاح الذى بلغه لولا السبب الأكبر الشامل المحيط بها جميعا ، ونعنى به خلة راسخة فى الأمة الألمانية تفتح آذانها واذهانها لقبول الدعوات التى من قبيل الدعوة الهتلرية

ففى اعتقادنا أن هتلر لم يكن لينجح ذلك النجاح فى تطويع أمته لو كانت هذه الأمة غير الألمانيين . لأن الأمة الالمانية العظيمة بمن نبغ فيها من فطاحل الأدباء والشعراء والفلاسفة والعلماء والمخترعين ليست بالأمة العظيمة فى كل شىء . بل لعلها مصابة بقصور شديد سلمت منه أمم دونها فى عدد النوابغ الافذاذ ، وهو قصورها فى التربية السياسية وضعف ايمانها بالحرية

ولايخفى أن التربية السياسية تحتاج إلى شىء غير نبوغ الافذاذ وانجاب العبقريين ، لأنها مسألة مرانة متسلسلة فى بنية الشعب بجميع طبقاته وعناصره ، ينتقل فيها خطوة بعد خطوة ودرجة بعد درجة ، بالتدريب العملى والحوادث الفعالة فى تركيبه وتأليفه . فلا تبلغ منه التربية السياسية مبلغ العادة إلا إذا تعودها . ولايجىء التعود بالأقوال والعظات ، وأن وُجد القائلون والواعظون ، فكيف وهم لايوجدون ؟

ويرجع قصور الألمان فى تربيتهم السياسية إلى أصول تاريخية بعضها قديم وبعضها حديث أو قريب من العصر الحديث

ففى العصور الغابرة كانوا قبائل غازية لاتعرف الاستقرار وآداب العمار . وإذا لجأت إلى الاستقرار فانما تستقر بالتناوب سنة للقتال وسنة للرعى والزراعة : فيقاتل فى هذه السنة من كانوا يزرعون ويرعون فى السنة السابقة ، ثم يذهب الزارعون والرعاة إلى القتال ولما يطل عهدهم بالسلم بضعة شهور . وقد وصفهم يوليوس قيصر فى حالتهم تلك فقال : « انهم قلما يبالون الزراعة لأنهم يعيشون أكثر مايعيشون على اللبن والجبن واللحوم ، وليس لرجل منهم أرض يملكها ولا حدود تفصل مابينه وبين غيره » . . . . وقال : « انهم يحسبون من شرف الدولة أن تقفر الديار من حولها دليلا عندهم على الشجاعة التى تقصى جيرانهم فلا يجسرون على الاقتراب منهم » . . . « وان اللصوصية لاعيب فيها إذا قورفت بعيداً عن ديارهم ، بل ربما حسبوها نافعة لتدريب الناشئة ومنع الاخلاد إلى الكسل والراحة »

ووصفهم المؤرخ تاسيتوس فقال : « انهم إذا هدأوا واستراحوا تطوع كثير من نبلائهم للقتال فى صفوف القبائل التى تشن غارة من الغارات ، وأنهم لايقدرون بغير العدوان والحرب أن يمونوا اتباعهم وحاشيتهم الكثيرة ، ويعتمد هؤلاء الاتباع على كرم رؤسائهم فيما يركبون من خيل أو يشهرون من رماح ، ولاينالون أجرا غير مآدب الطعام الغليظ وان لم يكن بالقليل . فالحرب والغنيمة فخر أولئك الرؤساء ، وليس من السهل أن تقنعهم بالحرث وانتظار الغلة كما تقنعهم بالهجوم والمبارزة ، بل من دلائل الوهن عندهم أن تطلب بعرق الجبين ماأنت قادر على أخذه بالدم المراق . . . » ووصفهم المؤرخ جان فرواسات Froissart فى أواخر القرن الرابع عشر فقال « إنهم شعب جشع يجنح أبدا إلى العنف والتهديد والاعتداء ،

لارحمة عندهم إذا غلبوا ومعاملتهم لاسراهم سيئة قاسية »

وهذه خلة كانت شائعة فى كثير من الأمم وهى على حالة البداوة والهمجية . بيد أن الألمان قد انتقلوا منها إلى حالة تشبهها ولم ينتقلوا إلى حالة الحكم المسؤل والشورى الدستورية كما انتقل بعض الأمم الأخرى رحلة بعد رحلة . فخرجوا من همجية البداوة الأولى إلى نظام الاقطاع الذى لايعرف علاقة بين الحاكم والمحكوم غير علاقة الآمر بالمأمور ، ولا يعرف علاقة بين الولاية والولاية غير علاقة القاهر بالمقهور ، أو علاقة الحرب والتربص والانتقام .

وكانت ولاياتهم تتعدد وتتكاثر كلما نشبت الحروب وانقطعت الوشائج والارحام . فزادت فى نهاية القرون الوسطى على ثلثمائة ولاية لاتضع السلاح يوما خيفة جيرانها وأبناء جنسها أو خيفة الجيوش الجارفة التى كانت تشق أوربا من الشرق إلى الغرب أو من الغرب إلى الشرق أو من الشمال إلى الجنوب أو من الجنوب إلى الشمال . فان موقع الألمان فى الرقعة الوسطى من قارة أوربا تركهم عرضة لكل مغير وجعلهم متوثبين أبداً للاغارة على من حولهم من الغافلين أو المستضعفين ، فعاشوا فى ساحة حرب لا رأى فيها للرعية إلا كرأى الجندى المطيع ، ولا عهد فيها بين ولاية وولاية إلا كعهد المغلوب للغالب أو الغالب للمغلوب .

وظلوا على هذه الحالة الى ماقبل حرب السبعين ، فلم تنقص ولاياتهم عن مائة وسبعين فى أيام الثورة الفرنسية ، ثم انتظموا فى علاقة تشبه الوحدة بالقياس إلى ما كانوا عليه من التفرق والصراع . ولكنهم لسوء حظهم وقعوا فى زعامة هى شر الزعامات ، فسلموا زمام الدولة لامارة لم تكن لها مزية على سائر الامارات غير وفرة العدد ووفرة السلاح ، وهى بروسيا آخر القبائل الجرمانية حضارة وأقلها نصيبا من الأدب والمروءة . فسارت بهم على سنتها وباعدت مابينهم

و بين «التطور» فى سبيل الشورى ومعاملات السلم والمودة ، وتركتهم فى سياستهم لايعقلون إلا «وجهة نظر واحدة» هى وجهة النظر التى يأمر بها السيد المطاع ، ولا يعرفون حق المعارضة لفرد من أفراد الرعيـة لأن المعارضة منه عصيان ، ولا لدولة من الدول الأجنبية لأن المعارضة منها عداء وقتال

ولبثوا كذلك إلى مابعد الحرب الماضية التى خرجوا منها دولة واحدة قليلة الفواصل والحدود . فلم تنقض عليهم عشر سنوات حتى انكفأوا إلى نظام المعسكر وأدب الغارة والاغتيال

وازنْ بين تربية كهذه لامحل فيها لرأى الأمة فى سياسة داخلية أو خارجية ولا أدب لمن يتربى عليها غير الطاعة أو العـدوان ، و بين التربية السياسية التى فرضتها على خصوم الألمان مواقع الجغرافية ووقائع التاريخ

فالانجليز مثلا أبناء جزيرة مستقرة قريرة

فهم لهذا آمنون ، وهم لهذا تجـار . ومن هنا بطل فيهم طغيـان العسكرية ونشأت فيهم خلائق الشورى والتفاهم والأخذ والعطاء

وهم أقوياء ولـكنهم يبيعون ويشترون ، فـلا مناص لهـم من السمعة ومن الثقة ومن الارضاء ، إذ التاجر لن تنسيه قوته أن يرضى عميله وشريكه ، ولن يستغنى — وان استغنى — عن التفاهم والقبول

وقل ماشئت عن أسرار الحرب الحاضرة وأسباب الحوادث القريبـة على تناقض الروايات والتعليلات ، فمالا شكك فيه أن تربية الألمان القديمة هى التى جعلتهم يأنفون من مفاوضة الأمم الصغيرة ، ويستـكبرون أن يجلسوا مع بولونيا أومع غيرها إلى مائدة واحدة لفض المشكلات وتبادل الآراء ، لأنهم ينظرون إلى المفاوضة نظرة العسكرى الذى لايعرف المفاوضة إلا لامـلاء الشروط أوالخضوع لمن يمليها . ومما لاشكك فيه أن تربية الانجليز القديمة هى التى جعلتهم يفاوضون

الـكبير والصغير ، وعوّدتهم أن يروا لمفاوضهم حق الشارى على البائع وحق البائع على الشارى ، فى مجال الأخذ والعطاء

تلك الخلة الألمانية معلومة لـكبار الأدباء الألمان سواء منهم الآريون وغير الآريين ، فأديبهم الـكبير « جيتى » يقول

« ان امام أنباء وطننا بضعة قرون أخرى تنصرم قبـل أن يترقوا إلى منزلة من الحضارة تجعل الناس يقولون انهم كانوا برابرة منذ عهد بعيد »

وشيلر زميـل جيتى يقول « أيها الجرمان ، عزيز عليكم أن تصبحوا أمة ، فـكونوا رجالا فذلك ميسور »

وهينى أشعر شعرائهم الغنائيين يقول : « يومَ يتبددرمز المسيحية الوديع يفور مرة أخرى جنون الغزاة الأقدمين الذى يطنب فى التغنى به شعراء الشمال ، وتهب الأرباب الصخرية من مراقدها فى الآكام المهجورة نافضةً عن اهدابها غبار ألف عام . ويهب معها اله الرعد والبرق ثور يحمل مطرقته الهائلة ليهوى بها على محاريب الاله المسيحى : يومئذ تسمع جهنم من الضوضاء لم يسمع لهـا مثيل قط فى تاريخ العالم كله ، و يومئذ تعلم أن الرعد الجرمانى قد تمادى إلى مداه ، وان الصيحة يومئذ لتسقطن النسر ميتافى علاه ، ولتسمعنها الأسود النا كصة فى أقصى الآجام الأفريقية فتختبىء فى كهوفها ، ولتشهدن ألمـانيا فى ذلك الموعد مشهدا تحسب الثورة الفرنسية عنده موقف غزل وغرام . وليتطلعن العالم كأنه علي سلالم عرينة الصراع لينظر إلى مشهد هذا العراك الجنونى فى ساحة ألمانيا . . . »

قالهـا هينى قبل مائة سنة فصدقته الأيام ، ولو قالها اليوم لقالوا نبوءة شاعر كذاب من سلالة اسرائيل !

ونيتشه نبىّ القوة عندهم يقول : «الجرمان كالنساء . لايسبر غورهم لأنهم بلا غور . . . وهذا كل ماهناك . فلا يقال عنهم أنهم ضحل لهذا السبب عينه . اماما

يسمى العمق فى ألمانيا فهو فى لبابه نقص فى اخلاص المرء لنفسه ، أو هو بمثابة أمة تأبى أن تقف من طبيعتها موقف الوضوح والصراحة . ألا يحسن أن نضع كلمة الجرمانية رمزا متفقا عليه للدلالة على هذه الآفة النفسية ؟ »

وطالما ألم جيتى ألماً شديداً للنظر فى أمور هذه الأمة التى تتقن التفاصيل وتنسى الشمول والتى « يبدو فيها أفراد أجلاء وتبدو هى أمة زرية »

إلا أن الاختلاف الذى لاحظه لايعد من الشذوذ ولا الخروج على القياس المعقول . لأن البربرية وقوة العقل والطبع لاتتناقضان ، فيجوز أن ينشأ الأفراد المقتدرون فى غمرة البداوة كما ينشأون فى أوج الحضارة ، وأن تعلو الصفات الفردية ، وتهبط الصفات القومية . أما النقيضان المستغربان فهما أن تصمد الأمة على حكم الأستبداد وأن تتقدم فى أطوار التربية السياسية وخلائق الحرية التى تواتيها فى تصريف تبعات الحكم ومشاركاته ، وهذا هو جانب القصور فى تربية الالمان

***

ومن المشاهدات التى لاتستغرب بعد ماتقدم أن الالمان على كثرة ما أفادوا العالم فى أبواب العلم والفن والصناعة لم يفيدوه شيئا فى باب العلم السياسى والاصول الدستورية ، فلاهم فى أطوارهم الشعبية تقدموا وراء القيادة العسكرية وأنظمة الميدان ، ولاهم فى كتابات فقهائهم ودارسيهم ساهموا بقسط قيمّ من التفكير فى هذا الباب ، وغاية ما ساهموا به أنهم قدسوا الدولة وأقاموها على أساس « القوة الحاصلة » وجعلوا مخالفتها أشبه بالكفر والشيطنة منها بالجريمة التى يعاقبها القانون

فالدولة عند فيلسوفهم الكبير هيجل هى مساك الحق وخلاصة التاريخ وصورة المشيئة الالهية . . . وماشا كل ذلك من نعوت تلحق الدولة بعالم الغيب فى عرف المتصوفة

والقانون عند فقهائهم هو « سر العنصر » أو لباب الروح القومى

Volksgeist وليس هو بالعدل المطلق الذى يعم جميع الأقوام ولو فى المبدأ والقاعدة .... فبينما كانت الدول تعلن فى الحرب الماضية أن محاكم الغنائم فيها تطبق قانون الامم وشريعة المنطق الانسانى كانت المانيا تعلن أنها لاتطبق إلا الشريعة الألمانية التى تستمدها من الدولة الالمانية ، وبينما كانت الشعوب المختلفة تبنى اعتزالها لعصبة الأمم على أسباب المصلحة أو على خشية الاخفاق والاصطدام بالوقائع المنظورة كان الالمان يخلطون بذلك سببا فلسفيا يقوم على فكرة العنصر والقوم ، فلاعدل فى اجتماع عصبة الامم لانها مجموعة أجناس المشرق والمغرب وسلالات البيض والصفر والسمر والسود ، وانما العدل أن تقوم على جنس واحد أو أجناس متقاربات ، وأن تعترف بالتفاوت بين السادة والمسودين والاقوياء والضعفاء .... أى أن تبطل معنى العدل فتجعله اعترافا بجواز الظلم لمن يقدر عليه وتحريمه على من يعجز عنه ليس إلا ... وما أبعد الفرق بين قولك أن الظلم هو العدل والانصاف وقولك أن العدل مطلوب محبوب ولكنه متعذر التحقيق ، ولابد من رياضة الطباع عليه

وهذا التفاوت بين اقدار الشعوب يسرى على الرعايا الالمان فينقسمون الى آريين وغير آريين وينقسم الأريون الى عريقين فى الآرية يحملون جواز العراقة Gross Ahnenass ومحدثين فى الآرية لا يثبتون من النسب فيها اكثر من جد واحد ولا يحملون الا جواز المحدثين Ahnenspiegel وهو لا يسمح لهم بالانتظام فى الحزب ولا فى جماعاته المختارة (١)

وكان أناس يخالون أن حذلقة الالمان فى تفضيل أنفسهم على العالمين قد بلغت قصاراها خلال الفترة التالية لعهد بسمارك وحرب السبعين ، فاذا بالنازيين يدخرون

---

(١) كتاب الحق والقوة لمؤلفه الفقيه الالمانى الدكتور فردريش رويتر Firedreick Roetter

من هذا المعنى مالم يكن يخطر على بال .

فليس التفاوت باديا باقيا بين القوم الجرمان وسائر الاقوام الآدمية وكفى ... كلا . بل هناك تفاوت بين حيوان آرى وحيوان أجنبى وبين فاكهة عريقة وفاكهة هجينه ، وبين بذور رفيعة تنبت فى تربة الشمال وبذور خسيسة تنبت فى تربة الجنوب ، فمن المحقق كما يقول الجنرال لدندورف [١] أن الأرنب ليس بحيوان آرى ، وحسبك سببا جبنه الاليم . وحماداه أنه مهاجر يحظى بحفاوة الضيف . أما الحيوان الذى لاشبهة فى ملامحه الجرمانية فهو الأسد ، وهو من أجل ذلك المانى فى دار غربة »

بل التفاوت بين السلالة الآرية والسلالات الأخرى تفاوتٌ فى تركيب الجسد ووظائف الأعضاء وخصائص العترة البشرية .

« فغير الآريين لهم أسنان وفكوك عليا تشبه فى ضيقها ومنظرها خراطيم الحيوان ، وحركة الفكين بين أهل الشمال تسمح بمضغ الطعام والفم مقفل على خلاف الأجناس الأخرى التى تُسمع لمضغها أصوات كأصوات العجماوات . وللفم الشمالى عدا هذا فضائل شتى يمتاز بها كامتياز اللون الأحمر باثارة الشعور ، فان لونه المتوهج القانى يغرى بالقبلات ، وفم الشماليين من أجل هذا مركب صالح فى تركيبه للتقبيل . أما غير الشماليين فهم عراض الشفاه غلاظها ينمون بذلك وبفتحات المنخرين على الشهوة وعلى التعبير الهازىء المضطغن وعلى حركة الارتشاف التى تنبىء بالانغماس فى المتعة الراضية ، وهم يفرطون فى التحدث بمساعدة الأيدى والأرجل مما لايُرى فى حديث أهل الشمال الذين يتكلمون أحياناً وأيديهم فى الجيوب . ولن تبصر فى غير المرأة الشمالية ذلك النهد الكاعب المكين المستدير الذى يبرز للنظر حتى حين تلقى بذراعيها إلى الجنبين . وخلاصة

---

(١) فى Am Qelle Deutscher kraft أى من منبع القوة الجرمانية

القول ان غير الشماليين ينزلون فى مرتبة بين طبقة الانسان الشمالى وطبقة الحيوان من فصيلة فوق فصائل القردة العليا . فليسوا هم بالناسى يقابلون الصفات الحيوانية بالصفات الانسانية ، ولكنهم حلقة وسطى فى الطريق أحرى بهم أن يسموا شبه بشر » . . . . . « وإذا سأل سائل ما بال غير الشماليين وهم أقرب رحماً إلى القردة يتناسلون من الشماليين ولا يتناسلون من القردة ؟ فالجواب ان الدليل لم يقم بعدُ على انهم وفصائل القردة لا يتناسلون ! »[1] .

وليس المهم أن يؤمن النازيون بهـــذا الهراء ايمان اليقين ، بل المهم انهم يعملون به عمل المؤمنين . ولا ندرى وايم الحق أيهما أقبح بالمرء : أن يصدق هراءاً كهذا فهو مسلوب التمييز فى شؤن الأقوام ومسائل السياسة ، أوأن يدعيه ولا يصدق به فهو خادع محتال .

* * *

أمة تروج فيها هذه الدعوات حيثما ظهرت ليس بعجيب أن يعلوها أضراب هتلر وجوبلز وهيس وجورينج متى أيدتهم المصادفات واندفع بهم تيار الحوادث والأزمات ، وليس بعجيب أن تكذب تلك الأمة على عقولها وهى تكذب على أعينها فتصدق أن هؤلاء صفوة الآريين وهم على نقيض الشمائل التى يزعمونها لأبناء الشمال . فالرجل الشمالى فى زعمهم « أصهب رائع المنظر فارع الطول بيّن الرجولة رشيق وسيم » . . . وهتلر انثوى جنوبى السحنة لا روعة لمرآه ، وجوبلز أعرج دميم ممسوخ الوجه والقامة ، وهيس أسمر من مواليد الأســـكندرية ، وجورينج ضخم بدين جدته فرنسية . . . ولكنهم يهتفون للألمان بما يعجبهم

---

(١) كتاب الأصول الحديثة لبحث الأجناس تأليف هرمان جوشُ اقتباس مجلة الناشيون فى ٦ فبراير ١٩٣٥ .
The New Bases of Racisl Research by Hermann Gauch

فهم مصدقون ولو كذبتهم العيون !

لقد أكبر بعض الكتاب الأوربيين من هتلر أنه « صنع المعجزة » وأعاد إلى الألمان الثقة بأنفسهم وقد شارفوا على الذلة والانحلال .

فهل جاء هتلر قومه برسالة الثقة بالنفس أو رسالة الاستخفاف بالآخرين ؟

ان الواثق بنفسه لا يلغى حقوقه فى الحرية ولا يبنى حياته على التسليم والأذعان ولا يصيح على الابراج والشواهق أنه واثق وأنه يقسم أنه لواثق !

كلا . إنما يفعل ذلك من لا ثقة له بنفسه ولا قدرة له على تمييز رأيه ، وليس الاعتداء على الآخرين من صفات الواثقين ، ولكنه من صفات من لا يعرفون الحقوق ولا يدرون معنى الحرمات .

وهتلر قد علم شبان قومه خلائق معلومة لا صعوبة فى تعليمها ، بل الصعوبة فى اقتلاعها وتبديلها لأنها من نوازع الهمجية وخلائق القطعان .

قال لهم البسوا الكساوى والشارات التى تحبونها ، واخرجوا فى الشوارع صفوفاً صفوفاً تزعقون وتتوعدون ، واضربوا اليهود واضربوا الشيوعيين واضربوا الديمقراطيين واضربوا النازيين المخالفين . . . . . اضربوا اضربوا اضربوا ولكم المجد والفخار وعلى فرائسكم المسبة والعار .

ولقد عاش أبناء آدم مائة قرن يعاقبون من يضرب ويقيدون يديه ويعيبونه بالشر والرذيلة ولا يزال الضرب مغريا يهون فيه العقاب والتأنيب .

فاذا جاء هتلر وجعله شرفا يبوء المعتدى بفخره ويبوء المعتدى عليه بوصمته ونكره فأين هى المعجزة وأين هى الخليقة الكريمة التى تكتسب بالمشقة والرياضة وهداية الزعماء ؟

هذا اندفاع مع التيار وليس وقوفا فى وجه التيار ، وتلك هى النكسة

والانحدار وليست هى الوثبة والاقتدار ، وما فى هذه الزعامة الرخيصة مسحة من العظمة ولا لمحة من الابتكار .

ألغوا وجودهم من ناحية وألغوا وجود الآخرين من ناحية أخرى !

كبحوا حريتهم الغالية على الأحرار ثم أشبعوا نفوسهم المكبوحة بشهوة العدوان على حرية الناس . فكانوا خاسرين فى الصفقتين ، غادرين بحرماتهم وحرمات من يعتدون عليهم . و بئس التعليم ان كان هذا الصنيع فى حاجة إلى تعليم .

إنما المعجزة أن تعلّم المرء الكرامة فلا يهدر حقوقه ولا يهدر حقوق غيره ، و إنما الرجل الكريم كما قلنا فى كتابنا عن سعد زغلول من « يسوءه أن يتعرض الآخرون لغضاضة مهينه كما يسوءه أن يتعرض هولتلك الغضاضة ، ويعاف الذل حيث كان ولو لم يمسسه فى كبريائه ، وذلك هو الفرق بين الكرامة المحمودة والغطرسة الذميمة . فان الغطرسة الذميمة هى التى تستريح إلى اذلال الآخرين ولا تغار على كرامة إنسان ، وهى التي لا تميز بين الكبرياء بحق والكبرياء بباطل ، ولاتلوم الناس لأنهم اعتدوا عليهامبطلين بل تلومهم لأنهم عرفوا لأنفسهم كرامة ولو كانت صادقة وعلى صواب . ولهذا يستخذى المتغطرس حين تصدمه القوة من سواه ، ولا يزداد الكريم إلا انتصاراً لكرامته حين يمسها من يتطاول عليه » .

***

وهكذا «معجزات» هتلر فى شتى مراميها لاتستمد قوتها من رفيع الصفات كما تستمدها من وضيع الغرائز والشهوات ، ولا تعتمد على الاقتحام كما تعتمد على الاتباع والانسياق ، ولا تروعك بالبطولة كما تروعك بالمداورة والاستغلال ، ولا تروض الظروف بل تركبها وهى ريضة ذلول ، ولا يرتفع بواحدة منها إلى مرتبة النوادر الأعلين بل يظل حيث كان فى زمرة الأواسط وأبناء المصادفات

هتلر مع شامبرلين ودلاديبه وموسولينى

هتلر مع شامبرلن وهندرسون السفير البريطانى

الفصل الثالث

نفس هتلر

نفس هتلر

صرفنا معظم الكلام فى الفصل السابق إلى بيان « الظروف » التى هيأت لهتلر ماتهيأله من النجاح فى قومه ، لنعزل بين أعماله وضجتها الخارجية ، ونعلم ماهو حقه وما هو حق الحوادث ، ونوازن بين ما هو من فضل الكفاءة وما هو من فضل المكان الذى ارتفع اليه ، ونخلص من ثمة إلى سبر أغواره وأغوار أعماله فنسلكه فى مسلكه الصحيح ونقيمه حيث ينبغى أن يقوم

وسنصرف الكلام فى هذا الفصل إلى دراسة طبائعه وأخلاقه و بواعث تفكيره وهواه ، فيكون سؤالنا فى هذا الفصل : لماذا اختار هذا الطريق ؟ وقد كان سؤالنا فى الفصل السابق : كيف تمهد له هذا الطريق ؟

وفى هذا العصر الذى شاع فيه علم النفس واتصل فيه طب العقول وطب الأجسام يندر أن يشتهر انسان بما يثير النفوس دون أن توضع نفسه هو موضع الفحص الطبى والدراسة العقلية ، ليتبين الباحثون دلالة أعماله ويتعرفوا نصيبها من الصحة والاستقامة أو نصيبها من المرض والشذوذ

وهتلر فى رأى بعض الأطباء مصاب بآفة نفسية يسمونها « شيزوفرينيا » Schizophrenia أو ما يُعبر عنه فى العرف الدارج بازدواج الشخصية ، وهى آفة تنشأ من الوراثة القديمة والحديثة ومن فرط النشاط فى الغدة الدرقية على نحو يغلب فى النساء المريضات ، واليه يرجع اهتياج الشعور عندهن وطغيان الحس على أفكارهن

وقد لوحظ على هتلر كثيرٌ من عوارض هذه الأنوثة المريضة لأنه يبكى ويمرح حين يشاء ، ويغضب ويصخب لأتفه الأشياء ، ويثير شعور سامعيه أبداً ثم لا يزودهم يوما بزاد من الفكر المقنع والروية الهادئة فى غير سخط واهتياج ، ويشبه المرأة فى تركيب جسمه لضيق كتفيه وضخامة ردفيه ، وقلة العضل فى تكوين أعضائه مع عنايته بتصفيف طرته وتنميق أظافره ؛ وندرة ما يبدو عليه من دلائل الرجولة فى اتصاله بالجنس اللطيف ، وكثرة ما يعهد من كيده وولعه بالايقاع وإثارة الشحناء والغيرة بين المحيطين به على نحو ما تصنع المرأة المتبوعة بين المحيطين بها ، وهذا إلى صبره الطويل على كل ألم فى سبيل الظهور والزينة والمتعة بالتفاف الأنظار ، كوقوفه خمس ساعات ممدود الذراع أمام المواكب التى تحييه وتومىء اليه ، وهو نوع من الصبر يعهد كثيراً فى النساء ولا يعهد فى الرجال .

وصاحب الشخصية المزدوجة يتناقض فى تفكيره وشعوره كأنما تصدر أفكاره وأحاسيسه من مصدرين أو من شخصين مختلفين : فهو حيناً سديد الرأى وحيناً شديد الخطل ، وهو تارة وديع لين وتارة شرس عنيد ، وساعةً يحجم ويتردد وساعة أخرى يهجم ويتعسف ، وقد يعالج الأمور علاج الحالم المؤمن ثم لا يلبث أن يعالجها علاج المتشكك الذى لا يقنع بغير الواقع الملموس .

ونشرت مجلة المبضع الطبية Lancet فى أوائل السنة الحاضرة بحثاً عن الهستيريا النفسية عدّد فيه الكاتب عوارضها وعلامات هذه العوارض فى نفس هتلر وأعماله ، فقال ان المريض المصاب بالهستيريا ذكى متعدد الشواغل وإن كان لا يتعمق فى واحدة منها ، مولع بالأسرار لبق فى التسلل إلى مكامن الأهواء ، قادر على تجديد الصور فى خياله وحدسه وربط الشتيت من الأفكار بروابط غريبة وسطحية لا تنفذ إلى اللباب ، وانه مستعد بالفطرة للتغاضى عما لا يوافقه

ولا يرضى لباناته ، وانه جامح النفس فى حبه و بغضه ، متقلب فى أطواره وميوله تدور خواطره كلها على محور واحد هو نفسه وما يتفزز به حسه ، و يفتأ من أجل هذا متشوفا إلى الثناء متعلقاً بدواعى الغرور . منهوما بما يلفت الأنظار و يخلب الأفكار ، وتساعده على ذلك قدرة على الايحاء إلى من حوله والايماء الباطنى إلى صحبه ، فيحظى بينهم حظوة قلما ينالها من عروا من قدرة الايحاء والايماء . وتتعطل فيه مراكز الحس فيصاب بضرب من البلادة و يكل أحياناً عن الاحساس بالجوع والتعب والسهاد ، وهو ما يلوح للناس فى هيأة الجلد والدؤب والثبات .

و يشفع الكاتب كل صفة من هذه الصفات بما يدل عليها من كلام هتلر أو من عاداته المعروفة وحركاته المشهورة ، فيحكم عليه بالمرض الهستيرى وزيغ التكوين .

أما الطبيب الذى امتحن هتلر فى السجن — وهو الدكتور برنشتينر Brinsteiner — فقد نفى عنه المرض العقلى و بوادر الجنون وقال : « ان النظر فى حالته النفسية وطريقة سلوكه أظهرلنا انه لم يصب بضرر من جراء نشأته وتعليمه وحياته الأولى ، وان الانقلاب الذى حاوله فى الثامن من شهر نوفمبر سنة ١٩٢٣ وطالما قيل فيه انه حماقة وجنون قد يسهل رده إلى اختلال العقل واضطراب ميزان التفكير . ولكنك إذا سمعت من هتلر نفسه بواعث الانقلاب وتعليلاته انتهيت إلى الجزم بأنه كان مالكا زمام رأيه أثناء تلك الحركة من بدايتها إلى انتهائها ، وانه لا محل فيها لاختلال التفكير مع احتمال النقص والخطأ فى الباعث والتعليل . . . . » .

وعلى خلاف هذا الرأى الدكتور ماكس فون جروبر Max von grober الأستاذ فى جامعة ميونيخ ، فانه يقول ان تعبير وجهه لا يدل على رجل يملك

زمام شعوره ، بل فيه دلالة على اضطراب واهتياج » .

وللطب العقلى مدرسة أخرى غير مدرسة المباضع والعقاقير ومستشفى المجاذيب على طراز البيمارستان القديم ، وهى مدرسة التحليل النفسانى على مذهب فرويد ومذاهب تلاميذه الذين اقتبسوا منه أساس الفكرة وان ناقشوه فى أجزائها أو اختطوا لأنفسهم بعد ذلك خطة جديدة

فلهذه المدرسة أيضا كلمتها بل كلماتها فى مزاج هتلر وتركيب عقله وسريرة أخلاقه

فمنهم من يقول أنه رجل مكبوت الغرائز الجنسية لعلة فى تكوينة يدل عليها أنه لم يتزوج ولم تعرف له صلة مألوفة بالنساء ، فهو من ثمة يرى فى حب السطوة والقسوة منطلقا لغرائزه المكبوتة ينفّس به عن ذلك الكبت الاليم

ومنهم من يقول أنه كان طفلا مدللا ألف التدليل من أمه والشدة من أبيه ، فنشأ مضطرب الاهواء ، يغلب عليه التدليل حينا فلا يطيق المعارضة ولا يزال ينتظر من الدنيا التمليق والموافقة كانها مطالبة باشباع نهمته من هذه العادة ، و يغلب عليه الامتعاض تارة أخرى فيحب التمرد والانتقاض والثأر لنفسه مما أصابه فى طفولته وصباه

ومنهم من يقول هذا وذاك و يزيد عليه أن محنة الفقر والتشرد فى الشباب الباكر قطعت مابينه و بين الناس من رحم ومحبة وعودته سوء الظن وضعف الثقة بالمودة والوفاء ، فأصبح غير صالح لمبادلة الأفراد عطفا بعطف واخاء باخاء ، وانحصرت علاقاته ببنى الانسان فى صورة الجماهير والجماعات ؛ فأما ان يحيا فى الحركات السياسية التى تقوم على الجماهير والجماعات و إلا فليست له حياة ! واما أن يستيئس فى طلب الحركة السياسية و إلا فليس فى بيئته الفردية متسع للعطف والشعور ، وكل ما تتسع له تلك البيئه الفرديه بمعزل عن السياسة فانما هو والخيبة والنضوب

ومنهم من يرجع الى الوراثة من والديه ، ومن جهة أبيه خاصة ، لانه كان رجلا مزواجا تموت له الزوجة فلا تنقضى أشهر حتى ينساها ويبنى بغيرها ، وكانت أم هتلر ثالثة زوجاته بنى بها وهى فى نحو السابعة عشرة وهو فى نحو الاربعين ، وولدت هتلر وهى فى التاسعة والعشرين وهو فى الثانية والخمسين . وقد مات بضربة فالج ، وقيل أنه مات وهو يتعاطى الخمر فى حانة

ويلاحظ هؤلاء النفسانيون أن هتلر — على افاضته فى بعض أخبار صباه — يقتضب الكلام اقتضابا عن أبيه وأهله ، ولا يبدو عليه الارتياح الى هذه السيرة فيما يكتبه أو يتحدث به لتابعيه وخاصة رفقائه . ففى الأمر لاشك سر مجهول غير ماهو معلوم مما تقدم ، وفيه الكفاية للدلالة على انحراف الصفات الموروثة .

ويربط بعضهم بين هذا السر المجهول فى نشأة هتلر وبين تكرار الكلام فى كتابه عن الامراض السرية و « سوط عذابها » المنصب على أبناء زمانه ، ويتساءلون ولا سبيل عندهم الى اليقين : ألا يجوز أن يكون اختلال الغريزة الجنسية واهتياج الدماغ عند هتلر متصلين بسر من تلك الأسرار ؟

* * *

هذه الدراسات النفسانية والطبية كثيرة مستفيضة فى جميع اللغات الأوربية لاضرورة لحصرها ولا للاستشهاد بأكثر من النماذج التى استشهدنا بها للالمام بما يقال فى سبيلها

ولسنا نريد أن نعول عليها وحدها دون التعويل على مايزكيها من الوقائع الواضحة التى لاتحوجنا إلى مشرحة الطبيب أو معجم المصطلحات الفنية

ففى اعتقادنا أن أصدق الأوصاف العلمية فى دراسات النفوس هى تلك الأوصاف التى تستغنى عن المصطلحات وعن لغة المعامل والمشرحات ، لأن الأخلاق الانسانية لم توضع فى مجمع علمى ولم تتقرر بعد الكشف الطبى على من

وضعوها فى الأجيال الغابرة والأجيال الحاضرة . فقد كان فى ملايين الملايين الذين وضعوها أناس يجوزون امتحان الأطباء وأناس لا يجوزونه ولا يحسبون من الأقوياء ولا الأصحاء . وانما وُضعت أخلاق بنى الأنسان بتجاوب الشعور وتجاوب الأحقاب والأعقاب ، فملاكها ولا شك هو النفس العاطفة القادرة على مجاوبة من حولها وما حولها مجاوبةً متصلة مستقيمة فيما تؤديه وفيما تتلقاه

فاذا امتحن الأطباء رجلا فلم يجدوا عيبا فى وظائف جسده ولا فى مجس أعصابه وعضلاته ثم ظهر أن هذا الرجل يحس بالغضب ولا يحس بالرضا ، أو يشعر بما يؤلمه ولا يشعر بما يؤلم غيره ، أو يقدر على ادراك عاطفة ويعجز عن ادراك عاطفة مثلها ، فالوصف الصادق لهذا الرجل أنه ناقص وإن قال الأطباء انه لانقص فيه

ثم هو ناقص وإن لم ينجم عن نقصه ضرر ، كما نحكم بالنقص على الجهاز المكهربائى الذى يسمعنا الأحاديث فى وقت ولا يسمعنا فى وقت آخر ، ولو لم تكن هنالك فائدةٌ من السماع أو ضرر من عدم السماع

فملاك الأخلاق الصالحة نفس صالحة للشعور قادرة على التلقى والأداء ، وقد تنفعنا البحوث الطبية فى التعليل والتفسير إذا عرض لنا مايحوجنا إلى تعليل وتفسير . أما إذا كانت الأخلاق الماثلة أمامنا غنية عن تعليلها وتفسيرها فهى إذن مفهومة مدروسة بغير حاجة إلى معمل أو امتحان

وسنتوخى هذه السُّنَّة دون غيرها فى دراسة نفس هتلر وتقويم عمله وكلامه : نتوخاها لوزن الرجل لا لترجمة حياته ، فان وقائع التراجم تتشابه وتتكرر فى الوف السير ، وتتشابه وتتكرر فى سيرة الرجل الواحد ، ولا تميزه إلا طائفة محدودة من وقائعه وأقواله

X

التربية والنشأة :

كان أبو هتلر المسمى ألواز (Alois) ثمرة « غير شرعية » من بنت فلاحة ورجل مجهول .

وكان يحمل اسم أمه شيكلجروبر Schicklgruber إلى أن بلغ الأربعين من عمره ، فقيّد فى السادس من شهر يناير (سنة ١٨٣٤) باسم الرجل الذى ظُن أنه أبوه وهو جوهان جورج هيدلر ، وقد صَحف هذا الاسم على الألسنة فأصبح هتلر كما ينطق الآن .

وتزوج ألواز بثالثة نسائه « كلارا » أم هتلر وهو فى نحو الأربعين وهى لم تتجاوز بضع عشرة سنة كما تقدم ، وكانت خادمة لزوجته الأولى ثم فرت إلى « فيينا » وهى صبية صغيرة ، وعادت إلى موطنها بعد فترة مجهولة الأخبار ، فخطبها أبوه .

وتربية هتلر من مولده إلى شبابه تربية صالحة لتفسير حياة رجل جامح النزعات متناقض الأحوال ، لأنها لم تجر على استواء واحد بين تدليل الأم وصرامة الأب ، وهى صرامة كانت تشتد وتعنف كلما لمح من ابنه رغبة فى احتراف التصوير والعيش فى معيشة الاباق والتشرد ، وهو يعده لوظائف الحكومة ويرشحه لمستقبل رتيب .

وكانت أمه أصغر كثيراً من أبيه كما تقدم ، ولكنها على صغر سنها كانت متوعكة شاكية كما قال هتلر فى كتابه ، ولم تكن قوية العزيمة لأنها كانت تضعف عن تأديب ولدها والاشتداد عليه ، وقد ماتت فى نحو السابعة والأربعين ، وهى سن لا تدل الوفاة فيها على صحة وافية .

أبو هتلر وأمه

ولم يكن أبوه متين البنية ولا كان قدوة فى الوفاء وضبط النفس وبراءة النشأة . بل كان عرضة لنوبات الفالج تعتريه من حين إلى حين ، وكان سريع الزواج بعد وفاة زوجاته ، وكانت ولادته كماتقدم فى غير مهد الزفاف المشروع .

هتلر الطفل

فهل ورث هتلر ما يورث من هذين المزاجين ؟ لقد كانت أمه تقول له فى طفولته أنه صريع القمر Mondsuchtig وهى كلمة تقارب عندنا كلمة « المجذوب » (١)

والذين عاشروه مجمعون على نزقه وسرعة بكائه وكثرة هياجه وتقلب أطواره ، ويقول روشننج Rauschning

(١) كتاب البيت الذى بناه هتلر لمؤلفه الدكتور ستيفن روبرتس
Stephen H. Roberts

رئيس مجلس الشيوخ السابق فى دانزيج أنه يتخبط و يتشنج و يستيقظ من نومه وهو صائح مذعور كأنما يهرب من أعداء ، والشائع عنه الآن أنه لا ينام ليلة بغير دواء مرقد إلا إذا كان مبيته فى برختسجادن حيث يهدأ بعض الهدوء (١) فاذا أضيف إلى الأثر الوراثى فى الجسد أنه نشأ وهو يعلم مولد أبيه فى غير مهد الزواج لم يكن من شأن ذلك أن يعزز فيه ضوابط الأخلاق أو يدعم فيه الثقة بنزاهة الآداب .

ومات أبوه وهو يناهز الثانية عشرة فأصبح عالة على أمه الأرملة بضع سنوات ، ينتظم فى الدراسة فترة و ينقطع عنها فترات ، وسرعان ماأصيب فى معيشة الطواف والتشرد بمرض صدرى أعفاه من الدرس ومن التجنيد ، فتمت له بغيته من ترك الدراسة واجتناب الامتحان .

وحاول أن يلتحق بمدرسة الفنون فى عاصمة النمسا فلم يقبله الأساتذة لأنهم لم يلمحوا فى صوره مسحة من ملكة المصور الصناع

وكثيرا ماظلمت مدارس الفن نابغا فى صباه ثم أنصفته الدنيا وعُرف قدره بعد حين . إلا أننا لانعتقد أن أساتذة فينا ظلموا هتلر حين ردوا صوره و يئسوا من فلاحه ، إذ ليس أدل على صواب رأيهم من اعراضه البا كر عن الفن واستغراقه فى السياسة ، وهو مالم يحدث قط فى تار يخ فنان عظيم مفطور على الخلق والابداع فى عالم الفنون

فلما ردته مدرسة فينا قنع بالنقش والتخطيط و بدا له فى بعض هواجسه أنه على مثال «ميكال انجلو» بنّاء ومثّال وليس بمصور لوحات وناقش ألوان ، وساوره من المرارة والضغن مايلحق بالغرور المصدوم ، فامتلأت جوانحه بالسخط والانكار

---

(٢) راجع كتاب « انى أعرف هؤلاء الدكتاتورين » لمؤلفه وارد پرايس Ward Price وهو أحد المعجبين به

ثم ماتت أمه وهو فى نحو الثامنة عشرة عاجز عن كسب رزقه بسعيه واحتياله . فأوى إلى بيوت الصدقة ومدَّ يده بالسؤال ، واجتهد فى جمع قوته بنسخ الصور ونقش تذاكر البريد ، فلم يظفر من هذه الصناعة بطائل ، ولجأ أحيانا إلى جرف الثلج فى الشتاء وحمل الحجارة فى العمارات ، وهو الرجل الذى كان يعتقد أنه خليفة ميكال انجلو على هندسة البناء

وتقضت شبيبته وليس فيها أثر من رحم القرابة أو أنس الصداقة، فمضى عليه فى الحرب العظمى أربع سنوات لم يكتب رسالة ولم ترد اليه رسالة ، ولاحظ زملاؤه أنه كان يرقب توزيع الرسائل والهدايا بشىء من الحرد والتمرمر ، فيأبى أن يأكل معهم من أزوادهم حردا وتمرمرا فى الحقيقة لا أنفة وعزة ، لأنه لم يأنف أن يأكل خبز الصدقة وأن يبسط اليد بالسؤال

وكانت علاقته بالنساء ولاتزال محفوفة بالغرابة والغموض . فلم يتزوج ولم يعاشر معاشرة أزواج . وقيل انه لا يزيد على لمس ذنود الحسان والجلوس إلى جانبهن ، وانه لايتعلق بعاطفة من قبيل الألفة والمحبة

والحادث الوحيد الذى يذكر فى ترجمته من قبيل المحبة الغرامية قد يزيد الغرابة والغموض ولايجلوهما ، ونعنى به حادث انتحار الآنسة جريت روبال Grete Raubal بنت أخته التى كانت تعيش معه فى مسكنه . فكيفما كانت العلاقة بينهما فليس شغف الرجل ببنت أخته وانتهاء هذا الشغف بالانتحار مما ينفى الزيغ والنشوز ، بل هما خليقان ان يثبتاهما أيما اثبات

وجملة مايفهم من هذه الأحوال أنها أحوال رجل زائغ الطبيعة، ناضب العاطفة منقطع الصلة « الشخصية » بينه وبين أبناء جنسه ، مستعد للبغضاء وليس بمستعد للمودة والوفاء

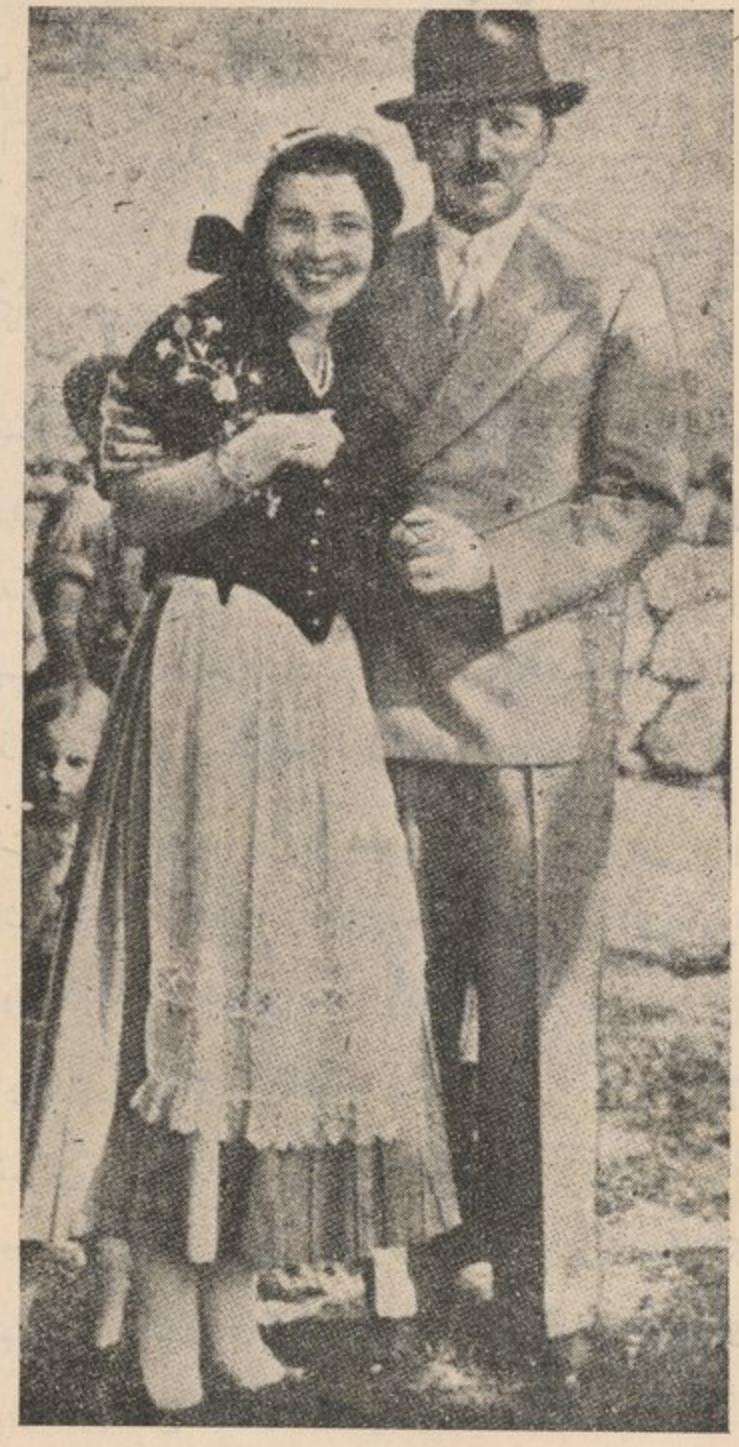

« موقف هتلر مع فتاة »

كتب هتلر إلى صديقه وزميله روهم فى ذكرى الثورة النازية الأولى خطاباً يقول فيه : « يهز نفسى فى هذه الذكرى الأولى — ياعزيزى ارنست روهم —

أن أشكر لك خدماتك التى لا تفنى للحركة الوطنية الاشتراكية والأمة الجرمانية جمعاء ، وأن أؤكد لك مبلغ حمدى للعناية الالهية التى أتاحت لى أن أدعو رجلا مثلك صديقى وزميلى » .

و بعد أشهر قليلة قتل هتلر هذا الصديق والزميل ومئات من رجاله شر قتلة ، ووصمه بكل رذيلة من الرذائل التى كان يعلمها و يعتذر عنها بين أصحابه ، ولا تمنعه أن يفخر بالصداقة والزمالة للعزيز ارنست روهم . ولم يتقدم هتلر بوثيقة واحدة تسوّغ تلك المجزرة الجائحة فيما بين يوم وليلة ، مع استيلائه على أزمة البحث والتحقيق فى البلاد الألمانية بأسرها .

وكان هتلر يقول عن القائدفون بلومبرج انه هو الصديق « الذى لو تركنى لقذفت بنفسى من النافذة » . . . . . ثم ترك هو فون بلومبرج لسبب يدعو إلى التساؤل الكثير ، وهو انه تزوج من فتاةٍ قيل عنها انها سهلة الاخلاق تعمل فى خدمة هيملر رئيس الجواسيس المشهور .

وموضع التساؤل الكثير هو أن هتلر وجورنج حضرا الزفاف بل كانا شاهديه الوحيدين . فهل يعلم هيملر بحقيقة الفتاة ولا يخبر رئيسه قبل الزفاف وهو الرجل الذى يتتبع خطواته و يتأثر حركاته فى ذهابه و إيابه ؟ وهل يغتفر هتلر هذه الزلة لرئيس الجواسيس ولا يغتفرها للزوج المخدوع ؟ وهل كان القضاء على مستقبل بلومبرج هو حل المسألة الوحيد ؟

أيا كان ذنب روهم وبلومبرج وعشرات الأصدقاء الذين انقلب عليهم هتلر مثل هذا الانقلاب فهناك أمثلة أمامنا على هوان الصداقة عند الرجل وليس ، هناك مثل واحد على صداقة واحدة بينه و بين انسان من الناس غير صداقة المتآمرين المشتركين فى مكيدة واحدة .

ولم تؤثر فى سيرته من طفولته إلى أيامه هذه مأثرة واحدة من مآثر اللطف

والنبل وكرم السجية ، وليس فى كلامه ولاعمله إلا العداء و «التعاون» على الانتقام والايذاء . ولم يعهد فيه قط انه غلب فظهر منه العفو والرحمة بمغلوبيه من الأفراد والأمم ، وكل مافى نشأته الأولى يدل على ان خلق الغدر فيه ليس بغريب

روى بعضهم انه يحب الكلاب والعصافير والأطفال ، ويحمل صورة أمه حيث سار .

هتلر مع كلبه

والكلاب التى شوهدت معه أكثرها كلاب حراسة ، فهى أحرى أن تدل على حبه لنفسه وحذره من أبناء جنسه .

وحبس العصافير قد يدل على كل شى إلا العطف عليها . لأن ألم المخلوق الذى

ركب الله له جناحين لذرع الفضاء وهو محبوس فى شبرين ، أمر لا يحتاج إلى خيال كبير .

على انه لا حب الكلاب والعصافير ، ولا حب الأطفال والحنين إلى ذكرى الأم ، بالعلامة على العطف السليم ما لم يقترن بقرائن النبل ومكارم الخلق وفضائل السماحة .

فكثير من « الهستيريين » يألفون الحيوان ويتعهدونه بالتربية ، ما نفع وما ضر وما كرم وما خبث ، حتى الأفاعى والثعابين . ولا يُعوّل لهم فيما وراء ذلك على مودة وشعور وثيق .

فان لم تكن ألفة الحيوان مقرونة بشواهد الرحمة حيث وجبت الرحمة فهى دليل على فقر الشعور لا على وفرته وغناه ونبل مغزاه . لأنها دليل العجز عن كسب المودة بمجهود عظيم . فلماذا غابت أدلة البر كلها ولم يبق لها من دليل فى نفس هتلر إلا البر بذكرى أمه ؟ وإلا ما يقال من مودته للطفل والكلب والعصفور وهى الخلائق التى يشترى مودتها ولا تكلفه من جانبه مودة انسانية كبيرة ؟ ؟ سبب واحد يفسر ذلك أوضح تفسير وأصدق تفسير ، وهو أن المودة الانسانية فى نفسه ضعيفة ، وانه لم يكسب إلا مودة الأم التى تحب ابنها لغير فضيلة فيه ، ومودة الأطفال والعصافير والكلاب التى تمنح مودتها بغير جهد عظيم .

فالتعلق بالأم وبالطفل وبالعصفور وبالحيوان الأليف علامة نبل النفس وغزارة العاطفة إذا كانت علامة من علامات كثيرة ، أى إذا عمت شواهدها وفاضت ينابيعها حيثما جرى مجراها . أما إذا انحصر الأمر فى هذه العلامة الواحدة فهو على نقيض ذلك دليل الأنانية وشح النفس والمساومة الرخيصة على كسب العطف والولاء بأرخص الأثمان ، فضلا عما يكون له من الطبيعة الهستيرية التى لا تستغرب منها أشباه هذه البدوات .

أين العدو الذى عفا عنه هتلر ؟ أين الصديق الذى يدخر له بقية من الخير بعد انقلابه عليه ؟ أين الأمة التى غلبها فأظهر لها دخيلة من دخائل نفسه غير القسوة والغطرسة والتنكيل ؟ أين هو الشاهد الواحد الذى يرينا انه يقسو مضطراً ولا يبحث عن القسوة حيثما أتيحت له للذته وجنوحه اليها ؟

إذا رأينا هذا ورأينا معه ألفته للعصافير والكلاب فهنا عاطفة سليمة وهنا شعور نبيل . أما إذا بحثنا عن العاطفة وعن الشعور فلم نر لهما أثراً فى غير العصافير والكلاب فتلك هى وساوس الهستيريا وعوارض الأنانية ، ونقص التركيب .

AMERICAN UNIVERSITY LIBRARY CAIRO

شجاعته :

يلبس هتلر نوطاً واحداً على صدره هو نوط الصليب الحديدى « الذى يقول بعضهم أنه من الطبقة الأولى ويقول الآخرون أنه من الطبقة الثانية »

ويروى أتباعه أنه استحقه بعمل من أعمال الشجاعة النادرة فى الحرب العظمى ، وهو أنه هبط مع زميل له على اثنى عشر جنديا فرنسيافى خندق قريب من الخطوط الألمانية فساقهم الى الاسر جميعاً بسلاح واحد : وهو الرامية التى يحملها الجنود

والروايه لم تثبت قط فى سجل من سجلات الحرب الالمانية ، ولانخالها قابلة للاثبات ، فهى أقرب الى الهزل منها الى الجد الرصين

ومما يلفت النظر فى أمر هذا النوط الذى يعتز به هتلر اليوم أنه لم يذكره قط فى كتابه الذى ذكر فيه ما هو أهون وأصغر من هذا الشرف البارز ، وأنه لم يترق قط الى رتب الضباط مع افتقار الجيش الألمانى الى الضباط المترقين من صفوف الجند المتعلمين فى مراحل الحرب الأخيرة

وقد وقع الاختيار على هتلر للمراسلة فى مكتب الفرقة المتطوعة فلم يكن من الذين يحضرون حرب الخنادق فى جميع الملاحم . وثبت أن الاصابة التى انتقل من جرائها الى المستشفى قبيل انتهاء الحرب كانت أهون كثيرا من الاخطار التى تعرض لها غيره . لأنها كانت إصابةبالغازات المدمعة Lachrymatory gas

هتلر مع زميلين

التى لاتستلزم الالتحام فى الهجوم ، ولو أنه أصيب باقوى من هذه الغازات لما سلم نظره ولا زالت آثاره كل الزوال كما ثبت من امتحان عينيه

وربما كان فى قصص هتلر عن الحرب العظمى أكاذيب كثيرة لا أكذوبة واحدة أو أكذوبتان . فانه يكذب فى الأمور التى لاخطر لها كقوله مثلا أنهم

كانوا يتغنون فى الفرقة المتطوعة أثناء معركة الايبر بنشيد « المانيا . ألمانيا فوق الجميع » مجاراة لمن كتبوا عن الحرب من بعيد . وقد حقق الدكتور فريدولين سولدر Fridolin Solleder مؤرخ الفرقة أنها كانت تتغنى بنشيد آخر عنوانه الحراسة على الرين Die Wacht am Rhine

ويذكر هتلر غير ذلك من الأحاديث التى تحيط بها شكوك ولا تقل عن هذه الشكوك !

هتلر كما كان فى الحرب الماضية

على أن الحرب العظمى شىء بعيد، والحديث عنها عرضة للنسيان والمناقضة والادعاء ، وفى تاريخ هتلر واقعة مؤيدة فى المحاكم والسجلات بشهادة الشهود والحاضرين ، وهى واقعة ميونيخ التى حاول بها إسقاط الحكومة ثم صدمته طلقات النار من حراسها فلاذ بالفرار

قال شهود العيان فى تلك الواقعة أن لدندورف وجورنج صمدا لطلقات النار ، فأسر لدندورف وجرح جورنج ثم نجا بنفسه الى ماوراء الحدود . أما هتلر فسرعان ما سمع الطلقة الأولى حتى طرح نفسه على الأرض فجأة بغير احتراس ، فانخلعت كتفه لشدة الوقعة وتقرر ذلك فى الكشف الطبى الذى أجرى عند اعتقاله ، وكأنما كان يحسب حساب الفرار قبل الهجوم فأوصى سيارة أن تلحق به وركبها وحده دون أن ينتظر فيها انقاذ أحد من زملائه فى تلك المخاطرة

وقد كان فرار هتلر حقيقة لاتقبل الجدل ولا الاعتذار ، فلما أكثر خصومه تعييره وتبكيته خطر له بعد بضع سنوات ان يرخص عنه مسبّتها و يقطع جريرتها ،

فصعد يوما على منبر الخطابة والى جانبه غلام ناشىء قدمه الى السامعين وقص عليهم أسطورة له لا تقبل التصديق : خلاصتها أنه كان قد وجد الغلام فى الطريق — وكان طفلا يوم هجمة ميونيخ — فأشفق أن تصيبه النار وحمله مهر ولا لينقذه من الموت ، ونسى هتلر أنه كان مخلوع الكتف فى ذلك اليوم ، وأن العظام المخلوعة لا تطيق اللمس الرقيق فضلا عن حمل الأطفال والعدو بهم عدة أمتار ، ونسى أن قصة الغلام كانت مجهولة كل الجهل لا يشير اليها أحد من المدافعين عنه فى الفترة بين يوم الهجوم ويوم الخطاب !

وقصارى القول أن شجاعة هتلر لم تثبت قط ثبوت اليقين ، ولم تعلُ قط على مظنة الشك والانكار ، ولم نعرف لها مؤيدا من مسلكه الطويل فى قيادة الامة الالمانية ، وهو يحيط نفسه بالحراس والجواسيس ويوشك أن يتحصن من أقرب المقربين ، مما لم يعهد له نظير فى سراديب أجبن القياصرة والخواقين .

مبلغ صدقه :

وللعلم بمبلغ الصدق فى خلق الرجال السياسيين لا يصح أن نسأل : هل كذبوا أولم يكذبوا ؟ فان الرجل السياسى قد يكذب وطبعه صادق ، وقد يلجأ إلى الكذب حين يلجأ اليه وهو مغصوص مغصوب كما يفعل الانسان وهو يتجرع الدواء العلقمى ، لضرورة من ضرورات الداء

وانما يكون السؤال : ماذا يكلفه الكذب ؟ هل يكذب وهو مستريح أو يكذب وهو مكره متبرم ؟ وهل يسترسل فى كذبه أو يقتصد فيه اقتصادا على قدر المصلحة الموقوتة ؟ وهل يتجاوز الحد فى اختلاقه أو يكتفى بكتمان الحقيقة وتلوينها بغير لونها ؟

فالسياسة كالحرب خدعة ، وليس كل كلام يقوله السياسيون صادقا جد الصدق فى حرفه ومعناه . فيجب ألا تحكم على السياسى بكذب كلامه بل الواجب أن تحكم عليه بحالته وهو يكذب ، فان هذه الحالة لهى التى تبين لنا هل هو رجل صادق يشذ فى كذبه أو هو رجل كاذب يطرّد فى قياس عاداته حين يختلق مايختلق من الأكاذيب والأراجيف

فاذا رجعنا إلى هذا القياس مع هتلر فكيف نجده فى كذبه ؟ انه لم يكذب قط كما يتجرع المرء الدواء الكريه ، ولم يكتف قط من الكذب بمقدار معقول ، ولكنه يكذب كمن يكرع من شراب لذيذ يعب منه عبا و يخشى أن تنزع كأسه من يديه . . . !

فانظر مثلا إلى قوله عن الروسيا : « ان دولة واحدة فقط هى الدولة التى اشمئز من الاتصال بها أية صلة على الاطلاق. تلك الدولة هى روسيا الشيوعية » ١٣ سبتمبر سنة ١٩٣٧

أو قوله عنها : « سنمضى عهود المسالمة مع جميع أمم العالم ما عوملنا معاملة الانصاف . إلا فى الشرق فلن ندخل فى عهود من هذا القبيل ، إذ أن الجرمان لن يتنافحوا عن البلاشفة ، ولن يخطوا خطوة واحدة فى مثل هذا الكفاح . ولخير لى أن أشنق نفسى من أن أطأ بقدمى هذا الطريق الوبيل » مايو ١٩٣٥

وانظر إلى قوله عن المعاهدات « ان المانيا لن تسلك سبيلا غير السبيل التى رسمتها المعاهدات ، وستبحث الحكومة الألمانية جميع المسائل الاقتصادية والسياسية فى نطاق المعاهدات وعلى حسب مقتضاها . . . . وليس فى الألمان من يفكر فى غزو أمة من الأمم » ٢٧ مايو سنة ١٩٣٣

وانظر إلى قوله : «ان زعم الزاعمين أن الريخ الألمانى يدبر الخطط لا كراه الحكومة النمسوية لهو زعم سخيف لا برهان عليه . . . وانى لأدفع بكل قوة ذلك الادعاء الذى تدعيه الحكومة النمسوية عن تدبير غارة أو شروع فى غارة على بلادها . وما فتىء الريخ الألمانى على استعداد لبسط يد المودة والتفاهم الصحيح فيما يكفل حرية الألمان النمسويين ، وهو على أتم استعداد — وقد انتهت مسألة السار — لرعاية ميثاق لوكارنو حرفا ومعنى غير قانع برعايته من حيث المعنى وكفى ! » ١٣ يناير ١٩٣٤

وانظر إلى قوله : « ان عهد المفاجآت قد انتهى اليوم » أو إلى قوله عقيب ضم السوديت أن ألمانيا لاتطلب بعد الآن أرضا فى القارة الأوربية !

أو انظر إلى عشرات من أمثال هذه التصريحات التى لايقتصد فيها أقل

اقتصاد ولا يعنى بها الا نقيض معناها كعهوده لأصحابه وعهوده لجاراته من أمثال الدنمرك وبلجيكا وهولندة وغيرها . فهل هى كلام رجل يكذب مكرهاً مقتصدا أو هى كلام رجل يكذب بغير حساب ولا يبالى أن ينقض فعله أقوى توكيداته وأقسامه ؟

وليس هذا شأنه فى وعوده « الخارجية » وحدها ، بل هو شأنه فى جميع الوعود والتوكيدات

فقد أكد لمدير الشرطة ووزير الداخلية فى ميونيخ أنه لايعمد إلى انقلاب ما عاش ، فلم تمض أيام حتى عمد إلى انقلابه المشهور

وأكد للرئيس هندنبرج أنه يؤيد الوزارة القائمة بعد الانتخاب فنقض توكيده فى اليوم التالى لظهور النتيجة الانتخابية

وأكد للأمة الألمانية أنه فى غنى عن تكرير مذابح برتلماوس اكتفاءً بأحكام القضاء ثم أدار الذبح فى أنصاره وخصومه بغير تحقيق ولا محاكمة ولا اعلان أسباب

ولا موجب فى الواقع لاحصاء أكاذيبه وتسجيل نقائضه بعد أن أعلن بلسانه شريعة الكذب فى انجيل دعوته حين قال : « ان الألمانى لا يدرك على الاطلاق أن الأمة لابد أن تخدَع وتضَلَّلَ للظفر باخلاص الدهماء » . . . . أو حين قال « ان من دواعى تصديق الأكذوبة مبلغ ضخامتها ، فان الدهماء فى سذاجتهم ليقعون فريسةً للأكذوبة الكبيرة قبل الأكذوبة الصغيرة »

ولقد نفى المذيعون الألمان روايات روشننج التى نقلها عن هتلر ونسوا ان الرجل لم يقل إلا بعض ماتقوله أفعال الزعيم وأحاديثه وعاداته فى نقض وعوده . فمن هذا الذى نقله روشننج أن هتلر قال له بعد توكيد من توكيداته المشهورة : « اننى على استعداد لتوقيع كل اتفاق وضمان كل حد وتأمين كل من شاء بميثاق

من المواثيق ، فان التحرج من استغلال هذه الأمور لهو فكرة بلهاء . . . »

فهل كذب روشننج فى الرواية ؟ ليكن . . . فهو مع هذا لم يزد مثقال ذرة على ماعلم الناس من أفعال هتلر وعاداته التى يعلنها ملأ فى بلاده وغير بلاده ، ولا يفضى بها سرا لصفوة الزملاء وراء الجدران

فهو رجل يستمرىء الكذب غير مقتصد فيه وغير مبال بعقباه ، وليس الكذب عنده جرعة دواء مكروه ، ولكنه شراب سائغ يعب فيه ظمآن

هتلر فى نوبة سوداء

غرابة الأطوار :

يراد الانسان على بعض الأشياء

ويريد هو بعض الاشياء

والاشياء التى يراد عليها و يساق اليها ليست هى التى تكشف لنا دخيلة نفسه وحقيقة أطواره ، لأنها صادرة من غيره

وانما تنكشف لنا دخائله وأطواره من الأشياء التى يريدها هو حسب مشيئته و وفق مناه ، وبخاصةٍ ما كان منها فى معيشته البيتية التى يخلو فيها لنفسه و يتصرف فيها بوحى هواه

وهنا تبدو غرابة هتلر فى كل شىء : فى مسكنه ومطعمه وفرجته وسلواه . فيبدو لنا عقلٌ نصفه فى النور ونصفه فى الظلام ، أونصفه فى ضحوة الواقع ونصفه فى غياهب الأحلام والأوهام : انسان يهرب ! انسان يلوذ بالفرار . . . ومن ثم يبدو لنا أيضا أنه فيما يرتمى اليه من ضجة السياسة ودوىّ الحركة ومواكب الجيوش ومظاهر السطوة انما هو إنسان هارب ، لائذ بالفرار

قال السفير الفرنسى فى برلين — مسيو فرانسوا بونسيه — من خطاب كتبه إلى وزير الخارجية الفرنسية بتاريخ العشرين من اكتوبر (١٩٣٨)

« لما طلب المستشار الألمانى فى السابع عشر من أكتوبر أن اذهب اليه بأسرع ما أستطيع ، وضع رهن مشيئتى طيارة من طياراته الخصوصية ، فركبتها فى اليوم التالى إلى برختسجادن يصحبنى الكابتن ستهلن ، ووصلت اليها حوالى

الساعة الثالثة بعد الظهر ، ومنها أخذتنى سيارة لم تذهب بى إلى (أوبر سالزبرج) حيث يسكن الفوهرر ، بل ذهبت بى إلى مكان عجيب يحب أن يقضى فيه أيامه عندما يروق الهواء

« والمكان يلوح على البعد كأنه مرصد فلكى أو صومعة صغيرة محطوطة فوق أعلى القمم هناك على ارتفاع ستة آلاف قدم ، وتلتف الطريق اليها مسافة تسعة أميال مقدودة فى الصخور ، تشهد الجرأة فى نحتها بمهارة مهندسها طود كما تشهد بمجهود العمال الذين فرغوا من هذا العمل الضخم فى مدى سنوات ثلاث

« وتنتهى الطريق أمام سرداب يفضى إلى الجبـــل وينغلق عليه باب مضاعف من الشبهان ، ويؤدى فى طرفه الآخر إلى مصعد عريض مصفح بالنحاس يرتقى رأسا إلى ثلاثمائة وثلاثين قدما حيث يقيم المستشار . وهنا نبلغ من الأعجوبة غايتها القصوى ! ! فيرى الزائر أمامه بناء ضخما متينا يشتمل على رواق عمدان رومانية ، وعلى بهو مستدير تحيط به النوافذ والمطلات ويبرز فيه موقد كبير تشتعل فيه الأحطاب الضخام ، وأمامه مائدة يحدق بها نحو ثلاثين كرسيا ، وتنفتح على الجوانب أبواب حجرات شتى مؤثثة بالمقاعد المريحة الوثيرة

« ويطل الزائر من كل جانب كما يطل من الطيـــارة المحلقة على مشهد متلاحق من الأطواد ، وتتراءى له على البعد ـ وراء منظر كأنه المدرج الرحيب ـ بلدة سالزبرج والقرى التى تحف بها ، يشرف فوقها على مد البصر أفق من القمم والشواهق والمروج والآجام كأنها تتشبث بالسفوح

« وفى الجيرة الملاصقة بالمكان حائط ينبثق أمام العين انبثاقا مفاجئا يخيـل اليك أنه قائم فى الفضاء بغير عمد ولا أساس

« وكل أولئك يبـدهك وهو مغمور فى شفق الخريف كأنه شىء آبد مفخم يقرب من البحران . فيعجب الناظر ويتساءل : أفى يقظة هو أم فى منام !

ويود لو يدرى هل ذاك حصن مونسلفات الذى يأوى اليه فرسان الآنية المقدسة ؟ أو هو صومعة جديدة فى جبل آثوس تخبىء ناسكا يتهجد ويسترسل فى التفكير والعبادة ؟ أو هو قصر انتينيا يرتفع فى قلب الجبال الأطلسية ! أو هو تجسيد لبعض تلك الرسوم الخارقة التى كان فكتور هوجو يخطط بها هوامش روايته عن حكام الجرمان ؟ أو هو خيال مليونى لايدرى مايصنع بأمواله ؟ أو مباءة عصابة يركنون اليها ويجمعون فيها الذخائر والكنوز ! هل هو خاطر عقل سليم أو هو خاطر انسان معذب بجنون العظمة وهواجس الشوق إلى التفرد والسيادة ؟ أو ليس هو إلا خاطر انسان ملكته المخاوف والظنون ! »

« على أن هناك مسألة واحدة لا يُغضَي عنها ولا تقل عن المسائل الاخريات قيمة عند من يدرسون هتلر من الوجهة النفسية ، وهى أن مداخل البيت وخباياه ومنافذه كلها تحميها الجنود ومكامن المدافع الرشاشة »

قال السفير : « واستقبلنى المستشار بحفاوة ومودة ، وكان يبدو متعبا شاحب السحنة ، ولكنه لم يكن فى يوم من أيامه الهائجة ، ولعله كان فى فترة هدوء واسترخاء ، فأخذنى تواً الى إحدى نوافذ البهو الكبير ، وأرانى المنظر واستراح لما شاهده علىّ من سمات الاعجاب التى لم أحاول اخفاءها ، وتبادلنا بعض التحيات والمجاملات ، ثم جىء بالشاى فى إحدى الحجرات القريبة ، وبدأ الحديث على أثر خروج الخدم وإغلاق الأبواب بيننا نحن الثلاثة ، وأعنى بالثالث هر فون رو بنتروب الذى لم يشترك فى الحديث إلا فى مناسبات قليلة لم يكن يزيد فيها على توكيد ملاحظات الفوهرر

« وكان ادولف هتلر مستاء من ذيول الاتفاق فى ميونيخ ، فقد كان يعتقد أن اجتماع الاربعة الذى أزال شبح الحرب وشيك أن يفتتح عهدا من عهود

المسالمة والعلاقات المتحسنة بين الامم ، ولكنه لا يستطيع أن يرى شيئا من ذلك قد حدث . . .

«ان غيوم الأزمة لم تنقشع ، و يوشك ان لم تتحسن الامو ر أن تغدو شراً مما كانت فى مدى فترة قصيرة ، لأن بر يطانيا العظمى تصلّ صليلها بالانذار والدعوة الى السلاح ، وتلك مناسبةٌ انتهزها الفوهرر للانطلاق فى حملة من الحملات الكلامية المعهودة فى خطبه شنها على تلك الدولة وعلى أثرتها و إيمانها الصبيانى بتفوقها و رجحان حقوقها على حقوق غيرها . ثم سكنت جائشة الفوهر ر بعد قليل . . . »

* * *

هذه البدوات التى وصفها السفير الفرنسى ليس فيها مبالغة ولا اختراع ، لان عش الفوهر ر معروف مشهود مكرر الوصف فى أقوال الكتاب ، لاخفاء به ولامثيل له بين مساكن العقلاء . وقد بلغت تكاليف بنائه وتأثيثه وتعبيد طرقه الملايين من أر زاق شعب يشكون باسمه الضنك والفاقة ، فهو وليد التفكير المتسلسل الدائم وليس بالنزوة التى لاتلبث أن تطرأ حتى تز ول

ومثل هذا الولع بالاغراب فى المسكن والاستكانة إلى المناظر المسحورة لايعهد فى غير من أدمنوا المخدرات أو شوهدت عليهم أعراض الخبل والانتكاس .

فى تار يخ بافار يا الحديث ملك من هذا القبيل كان يز ين الأشجار بالمصابيح المستورة و يحف الغرف والمنازه بالسراديب المسحورة . ثم طبق عليه الجنون فمات فى إحدى نو باته وقيل انهم قتلوه .

وفى تواريخ الملوك الهمجيين أو انصاف الهمجيين « قلعة » كهذه القلعة الهتلر ية بناها الملك الزنجى خر يستوف الذى استقل زمناً فى أوائل القرن التاسع عشر بالسيطرة المطلقة على جانب من جز يرة « سان دومينيجو » ... فقد عنّ له

أن ينفرد بقصر لا نظير له فى قصور الملوك ، فأمر ببناء قلعته المشهورة على ارتفاع ثلاثة آلاف قدم ، ولبث المهندسون يعملون فيها خمس عشرة سنة ولاءً ورفعوا جدرانها من ثمانين إلى مائة وثلاثين قدما وعرّضوها من عشرين إلى ثلاثين ، وأحاطوها بثلثمائة وخمسة وستين مدفعا من الشبهان على عداد أيام السنة : كل يوم مدفع لا يتكرر فى سائر الأيام ! ! ثم شل هذا الطاغية فأيقن بزوال ملكه واقتراب يوم هلاكه ، فأعد لنفسه قذيفة من الذهب أطلقها على صدره من مسدسه يوم هجم الثوار عليه .

يا للقدر من ساخر قدير ! . . . . فهذا القدوة الصالحة لزعيم الآريين وصفوة الجنس الأشقر زنجى أسود منتكس الخليقة ، وليته زنجى سليم !

ولا شك ان النزعات « المسحورة » التى من قبيل نزعات هتلر لا تنشأ بين يوم وليلة . فهى داء قديم قد لازمه فى شبابه وكمن فى طوية نفسه وامتزج بأفكاره وآماله . وقد روى هانيش Hanisch زميله فى صباه وشريكه فى بيع تذاكر البريد : ان هتلر شهد يوما وهو فى الحادية والعشرين شريطاً من شرط الصور المتحركة عنوانه « النفق » يخطب فيه رجل يلقى خطبته فى نفق ويصبح بعد ذلك زعيما لبلاده . فالتهب هتلر شوقا إلى محاكاة ذلك الزعيم وخطر له أنه يفتتح زعامته بفاتحة نخمة لو تسنى له أن ينشئها بخطبة يلقيها فى نفق من الأنفاق . وتحدث بهذه الأمنية الساحرة إلى زملائه فضحكوا منه وأثقلوا عليه المزاح[1] .

وهناك اليوم قصور تبنى ثم تهدم فى برلين ، وشوارع توسّع جوانبها على الرغم من جدة المبانى التى تشرف عليها ثم لا يكون لتوسيعها من سبب إلا أن تصبح أوسع مثيلاتها فى أوربا وأمريكا ، ومكاتب يباهون بجلب الخشب لها من ثمانى

---

(١) سندای بكتوريال فى ١٦ ابريل ١٩٣٩ Sunday Pictorial

عشرة مملكة ، ومظاهر شتى من مظاهر السموق والروعة لا يضنون بالمال عليها وكلها فيما نظن وليدة الطبع المنتكس وترجمة ذلك « الخطاب فى النفق » الذى لا يزال يُترجَم فى عالم السياسة كما ترجم فى عالم البناء .

نعم لا يزال يُترجم فى عالم السياسة ليوقع العالم فى مجاهيل لا حد لها من جراء هوسة غالبة .

وإلا فما هو «صرح الدولة الجرمانية التى تسود العالم بأسره» إن لم يكن نسخة فى عالم السياسة من قصور ألف ليلة أو من صومعة الجبل التى وصفها السفير ؟

انه لصرحٌ يهرب به العقل المصروع من عالم الصواب والرشاد إلى عالم الجنون والبذخ والتهاويل .

انه ناطحة سحاب أو مخبأ فى سرداب ، أو حجاب لا يستر ما وراءه من التبلبل والاضطراب .

وشأن هتلر فى الطعام كشأنه فى السكن من الولع بالغريب والجرى على سنة الاخراج المسرحى ، والتعاظم بأمثال الاشاعات التى تشاع عن كواكب الصور المتحركة فيما يأكلون ولا يأكلون ، وفيما يلبسون ويخلعون .

تارة يقال انه صائم عن اللحوم ، وتارة يقال انه لا يستنزل الوحى إلا بأصناف الجوز والبذور ، ويوماً يقال انه ترخّصَ فأباح نفسه البيض وحساء الدجاج ، ويوم ينقضى على هـذا فيقال انه عاد فحرم على نفسه ما أباح . وهكذا دأبه فى التبغ والجعة وسائر المرطبات .

اخراج مسرحى لا أكثر ولا أقل .

فان كان وراء الاخراج المسرحى حقيقة فهى شىء تافه لا غرابة فيه ولا موجب لكل فيه هذه الأقاويل .

رجل يصاب فى صدره فتيًّا فيدرج على كراهة التدخين ، ورجل لا ينام أحياناً من أثر الهستيريا والاجهاد فيهجر القهوة حيناً ليستدرج النوم، و يشربها حيناً لأنها لن تضيره مع السهاد .

ورجل يرث بنية الفالج والنو بات ويقضى السنوات وهو لا يدرك الوجبة الواحـدة فى اليوم أو الأيام المتوالية ، فيعتريه عسر الهضم و يتقلب فى اختيار المأكولات ، و يعبى بكأس من الشراب الشديد .

وكل هذا مألوف لا غرابة فيه ، ولكن كيف يتفق هتلر والمألوف ؟ وكيف يخيل إلى الناس ان هتلر يأكل كسائر الناس ؟

إذن تنقلب المألوفات فاذا هى رياضة ونسك واتصال بعالم الغيب وترفّع عن ضعف الآدميين أبناء الفناء .

و إذا أنالته البساطة ماتنيله الفخفخة من التهو يل واللغط والاستغراب فلا ضير إذن من البساطة المسرحية على شريطة أن تكون شيئاً يطاق : كسوة تخلع ثم تلبس بعد ساعات ، وليست كوخا يسكنه ما عاش ، أو مكتباً يشاهد فيه أيان ذهب إلى الديوان .

وان الناس إذ يشهدون هتلر فى كساء بسيط ليقولون : انظروا وانظروا واعجبوا اعجبوا ... أكثر مما يقولون انظروا أو اعجبوا لهتلر فى الطيالس والفراء .

لهذا تأخـذ البساطة نصيبها من مظاهر هتلر ، و يكون فيها أجنّ بالفخفخة والاغراب مما يكون فى الحلل والحلى المسوّمات .

ونظرة خفية إلى نقائض النفس الانسانيـــة ترينا ان بساطة هتلر فى الـكساء وغرابة هتلر فى البناء هما عنوانان لصفة واحدة ، أوهما فرعان لجذع واحد : هو الغرور والادعاء .

فهتلر البسيط فى كسائه لا يتشبه بعلية النبلاء فى لباسهم الفاخر لأنه يعلم أنهم

يترفعون عنه و يعتزون عليه بالحسب والعراقة فيتحداهم و يأبى أن يعترف لهم بأنه نسى أصله ايثاراً لأصولهم ، أوبأنه دونهم فى القدر لأنه يتشبه بهم و يود لو نشأ على غرارهم .

ولـكنه لا يصنع هـذا الصنيع فى بناء الصوامع والقصور ، فلماذا يتفخم هنا و يتبسط هناك ؟ ولماذا يختلف فعله فى كسائه من فعله فى مأواه ؟

لأنه خليفة « ميكال انجلو » فى عبقرية النحت والعمارة ! . . . . فالناس لا يقولون إذا رأوه فى الصرح المشيد : « ذاك هو المحدث الذى يتشبه بالمعرقين ! » بل يقولون : « ذاك هو الفن العبقرى ! وتلك هى القريحة النادرة التى تتجسم للعيان باعجاز بارئها القدير ! » .

وكلاهما غرور ، وكلاهما ادعاء !

فالرجل ناشز فى تبسطه واغرابه ، هارب من الواقع فيها يدعيه ولا يدعيه ، متعلق بالقصور المسحورة والأبراج الخرافية سواء بنى فى عالم السياسة أو بنى فى عالم المعمار .

كفاءته الذهنية:

والمشهور عن زعماء السياسة أنهم لا يعملون كل ماينسب اليهم ، ولا يكتبون كل ما يكتب بأسمائهم ، وهتلر ليس بالاستثناء من هذه القاعدة

ففى برلين مكتب برئاسة سبير Speer أستاذ العمارة « ينفّذ » ما يوحى به الزعيم من الخواطر والرسوم فى إقامة المعاهد وفتح الطرق والميادين

وقد يختلف المختلفون فيما هو لهتلر وما هو لمكتب التنفيذ من تلك الخواطر والرسوم . فكثيرا ما يكون الفضل كله للمكتب فى ابتداع الرسم وانجازه ثم يقال أنه من عمل الزعيم أو الرئيس ، وكثيرا مايعرب الزعيم أو الرئيس عن رغبته بكلمة واحدة ثم تأتى التفصيلات بعد ذلك على يد أعوانه ، وهو لا يدرى بها إلا عند انجازها والاحتفال بابرازها

هذه أمور شائعة لايجهلها المطلعون عليها فى الدواوين . إلا أن الحقيقة الراسخة من وراء كل جدل وكل مراء هى أن الفنان الموهوب لن يترك فنه ليعقد مصيره بالسياسة وغيرها من المطالب كائنا ما كان نصيبه منها ، لأن الهبة الفنية كالوظيفة العضوية التى لا تقبل الاهمال ، ولا تزال فى الحاحها على صاحبها كالهيام القلبى فى الحاحه على العاشق الممتلىء بالحياة ، فلاهو يغفل عنها ولا هى تمهله الى زمن طويل

وهذه الحقيقة وحدها — بنجوة عن جميع الأقاويل وجميع الاسانيد — هى الحكم الحاسم فى كفاءة هتلر الفنية ، أو فيما يدعيه من مواهب التصوير والبناء . فهى لن تعدو الطبقة الوسطى بحال ، ولن تتجاوز نصاب التذوق الشائع

بين مصطنعى النقد والموازنة فى الفنون، حتى لو اسندنا اليه جميع الرسوم التى تحمل اسمه فى متحف العمارة بمدينة ميونيخ

ومن خصائص هتلر أنك لا تجد فيه صفة واحدة « خالصة » للعظمة وصحو العقل والطبيعة . فكل صفاته النفسية والفنية ملتبسات بين الاضطراب والسلامة ، و بين الهبوط والرجحان

مثال ذلك أنه يعجب بالموسيقى الكبير « فاجنر »

وفاجنر هو الموسيقى الذى يعجب به المجانين والعقلاء... فقد كان راعيه الاكبر الملك لدفيج البافارى مخبولا مات فى خبله ، وتتفق الآراء بعد ذلك على أن فاجنر هو موسيقى المردة والغيلان « والشخصيات » المنتفخة التى تقرب من التشويه ومن المسخ الكريه : يسمعه العاقل فيعجب لحسن تمثيله هذه « الشخصيات » العجيبة وحسن تعبيره عنها بالاصداء والألحان ، ويسمعه المجنون فيلمس من سريرته موضع التشويه والانحراف ، ويرى نفسه مفهوما على نحو من الانحاء

وهتلر ينكر « موسيقى الجاز بند » وما شابهها من فنون النحت والتصوير الحديث التى يتزعمها يعقوب ابشتين Jacob Epstien

ولكنه ينكر كل شىء حسن أو قبيح مصدره من الزنوج كتلك الموسيقى، أو كفن النحت والتصوير الذى تزعمه أبشتين واخوانه فى الطريقة... فان أبشتين له عند هتلر سيئتان لاسيئة واحدة . لأنه اسرائيلى فهذه هى السيئة الاولى . . . ولأن تماثيله قريبة فى طريقتها من طريقة الأصنام الافريقية! فهذه هى السيئة الثانية

وقد أبى هتلر أن يصافح الاوائل السابقين من الزنوج فى الالعاب الرياضية العالمية وهم ضيوف بلاده . فاذا كانت العابهم لاترضيه وهى العاب الرياضيين فى جميع الأمم البيضاء أو السمراء فهل ترضيه موسيقاهم وهى شىء يجوز أن يختص بالزنوج دون سائر الشعوب ؟

وعلى هذا النمط يصحو ذهن هتلر وصحوه مقسّم بين العوج والاستقامة ، و بين العلة والعافية ، فلن يفهم أبدا على وجه الصحة وحدها فى حال من الأحوال

وما يقال عن التصوير والموسيقى يقال من باب أولى عن الكتابة والتأليف . . . فان أحدا من أتباع هتلر لا يدعى له ملكة الكتابة الموهو به ، ولا يثنى على أسلوبه ثناءه على أسلوب بارع أو جميل ، وأن حسبوا كتابه « كفاحى » انجيلا للنازيين

والشائع — حتى فى أمر هذا الكتاب — أن تفكيره مستمد من الجنرال كارل هوشوفر Karl Haushofer صاحب مذهب السياسة الجغرافية أو « سياسة الجغرافية » التى تعد من مبتكراته ، والتى يتولى إدارة معهدها الأعلى بمدينة ميونيخ Geopolitics

و إنهس Hess كاتب هتلر الخاص قد اشترك فى تأليف كتابه وتنقيحه ، وأصبحت له حصة فيه يعطاها كل عام ، وقيل انها لاتقل عن خمسة آلاف جنيه

لكنّ الطابع الهتلرى مع هذا موجود متكرر فيما ينسب الى هتلر من خطب أو رسائل أو أحاديث

فليس هو عالة على أعوانه ومساعديه ، وليست اللهجة الغالبة فى كتاباته لهجتهم المتفرقة بل لهجته هو التى تتكرر على وتيرتها المعهودة ، فى كل خطبة وكل رسالة وكل حديث

وفى اعتقادنا أن الرجل لا يخلو من عبقرية ، وهبةٍ ذهنية

لكننا خلقاء أن نحترس فى فهم معنى العبقرية هنا لنفهم منها مانريد فى هذا السياق

فعند جمهرة الناس أن العبقرية هى أعلى مراتب الذهن وأرفع طبقات التفكير

وهذا خطأ

فانما العبقرية حالة تصاحب كثيرا من المراتب الذهنية ، وتشاهد فى كثير من الصناعات : فهناك الفيلسوف العبقرى والنجار العبقرى ، وهناك القائد العبقرى والخادم العبقرى ، وهناك عبقرية الاصلاح وعبقرية الاجرام . وهناك عبقريات لا نهاية لها فى أرفع الصفات وفى أوضع الصفات ، كأنما هى حالة الاتقاد التى تشترك فيها جميع الأجسام على درجات مختلفة من الحرارة

ولا يلزم أن تكون الفكرة العبقرية « احسن » فكرة من قبيلها ، بل كل مايلزم أن تكون الصبغة العبقرية بادية عليها

وهذه الصبغة مما يصعب تعيينه وتوضيحه ، ولكننا نقربها بعض التقريب ونوضح مانعنيه بها جهد المستطاع

فالعبقرية أقرب إلى الغريزة والبداهة منها إلى التفكير المسبب والقياس المدروس

ولها خاصة الحماسة والتوهج والرغبة ، فلا يباشرها الانسان وهو كاره أو طامع فى الجزاء ، بل يباشرها كأنه مقبل على رياضة شائقة ومتاع محبوب

والعبقرية تضلل من يراقبها أشد التضليل ، لأنها تفاجئه بالمتناقضات وماهى فى باطن الأمر بالمتناقضات ، إذا نحن نظرنا إلى بواعثها ولم ننظر إلى عوارضها وأشكالها

فالعبقرية شخصية

والعبقرية طلاقة من القيود

كل عمل يعمله العبقرى ففيه مسحة من لوازمه الشخصية لا محالة ، فهو من ثم مطرّد على قياس

وكل عمل يعمله العبقرى فهو خارج فيه على القيود ، ثائر على القواعد والمصطلحات . فهو من ثم لايطرّد ولا يفتأ مخالفا للمتوقّع والمألوف

وها هنا التناقض الظاهر

ونخطو خطوة وراء هذا التناقض الظاهر فنرى « مفتاح الشخصية » الذى يفسر لنا كل نقيضة ويعلل لنا كل مستعص على التعليل

مثال ذلك غريزة الهجرة فى الطيور ، وقد قلنا أن العبقرية أقرب إلى الغريزة منها إلى التفكير

فالهجرة لها — ولا ريب — غاية واحدة هى طلب الغذاء والسلامة من برد الشتاء ، وبوحى هذه الغاية يهتدى الطير إلى الأوقات والمسافات هدايةً لدنية لا تجاريها فى الدقة أرصاد الملاحين وآلات الفلكيين

لكنها مع هذه الدقة سبب الغرق والهلاك لألوف الألوف من أسراب الطير ، التى ما تحركت إلا ابتغاء السلامة والغذاء

ومثال آخر غريزة التناسل ودوام الاتصال بين الجنسين

فلماذا يستأثر الرجل بالمرأة ؟

طلبا للذرية لامراء

وماذا يصنع الرجل الذى يرى ابناً له يخونه فى زوجه ؟

انه يقتله أو يهم بقتله !

وهنا التناقض الظاهر :

فهو يقتل ذرية حاصلة إذهو يطلب الذرية المجهولة المشكوك فيها

ولكنك مع ذلك تفهم معنى هذه الغيرة واستقامتها مع الطبيعة ، وترى ماوراء التناقض الظاهر من القياس المستقيم

وهكذا تناقض العبقرية : انما هو تناقض فى الظاهر ، واستواء عند الرجوع إلى أسرار الشخصية الخفية

وهذه هى خصائص العبقرية التى حاولنا تقريبها وتوضيحها منعاً لخطأ المخطئين إذ يفهمون أن العبقرية هى أرفع مراتب العقول ، وان الفكرة العبقرية هى « أحسن » ماتجود به الأفكار

كلا ! ليست العبقرية بأرفع مراتب العقل ولا هى بأحسن ضروب التفكير ولكنها « حالة » على الوصف الذى قدمناه توجد فى الذروة كما توجد فى الحضيض ، وتنتظر فى الترياق كما تنتظر فى السم الزعاف

وعبقرية هتلر هى عبقريته فى إدراك الجماهير ومراوغات السياسة . فمايفهمه فى هذا الباب هو شىء بمعزل عن الاطلاع ، وعن الخبرة المألوفة ، وعن الدرس والتعليم ، وهو شىء أقرب إلى تفاعل المواد وتبادل الأثر فى الأجسام . فمن الجماهير يعلم ماتريده الجماهير ، وفى وثبة الساعة يفعل ماتدفعه اليه وثبة الساعة . وبينما هو مهتد فى المسافات الطويلة بهداية كهداية الطير المهاجر بلا خريطة ولا ابرة مغناطيسية ولا دليل ، إذا هو يغرق كما يغرق الطير فى اللجة التى يراها بعينيه ولا يقوى على اجتنابها

ويدعونا إلى اعتقاد العبقرية السياسية أو العبقرية الشعبية فى هتلر أن سياسته لها طابع ، وانها تتسم بحماسة الرياضة ولا تتسم بقيود الشغل وحدود النظام ، وانه يهجم هجوما يخيل اليك أنه بالغٌ به الغاية المنشودة ،ولعله هوالعقبة المهلكة التى تنكل به أشأم النكول عن تلك الغاية

وفى تفكير العبقرى أبداً حساب « حسبة مجهولة » كالحسبة التى يرمز لها الرياضيون بحرف « س» ويرمز لها جماعة التطور بالحلقة المفقودة

هناك أبدا حسبة تنقطع فيها سلسلة التفكير ولا تنتظم الى النهاية : أو نهايتها القصوى هى « ان قلبى يحدثنى بهذا » وكفى ؛

وهتلر عندما يذكر « العناية الالهية » كأنها لا تريد إلا مايريد ينم على

غرور عظيم ولكنه لاينم على الغرور وحده بذلك ، ولا يختار فى الحقيقة مايقول اذ « العناية الالهية » فى عرفه هى الكلمة التى يسد بها فراغ تلك الحسبة المجهولة أو الحلقة المفقودة

يسأل نفسه : لماذا أريد هذا ؟ أو لماذا سيتم ماأريد ؟ ثم يعييه الجواب الصريح

يعييه الجواب لأن هناك أسبابا يجهلها ولا يستطيع تنظيم حلقاتها الى نهايتها ، فكلمة « العناية الالهية » تسعفه اذن فى سد هذا الفراغ

وقد يقال إن هتلر مغرور حين يتخيل أنه سينجح فى الحرب لأنه يريد ذلك والعناية الالهية لاتريد إلا ما يريد

ولكن هتلر يقول أيضا فى كتابه إن العناية الالهية قيضت له أن يفهم فى شبابه لماذا فشلت أحزاب نمسوية ونجحت أحزاب أخرى ، وأنها علّمته أن حركات الجماهير لا تتم بغير اشتراك الجماهير ، وان الانقلاب القومى لا يضطلع به العلية دون السواد . . . . فأى لغز من الالغاز فى هذه البداهة التى ظن هتلر أن العناية الالهية تسوقها اليه ؟

كل ما هنالك أنها الحلقة الناقصة فى سلسلة الافكار المسببة ، يملأها بما يرضى غروره ولا يدعوه الى اعترافٍ بالجهل أو بالضعف عن النفاذ الى كنه حوادث اليوم ، وقضايا التاريخ

وكلمة « العناية الالهية » هى اللحام الذى يربط به هتلر ما تفكك من تفكيره ومقدماته ، فمن قرأ كتابه أو تتبع خطبه فلن يرى أمامه بناءا كاملا متناسقا إلا إذا صدق دعواه أن العناية الالهية تريد كل مايريد

أما إذا شك فى هذه الدعوى فليس أمامه بناء قائم . وانما هو ركام فوق ركام

٨

كفاءته الخطابية :

فى كل شهرة خطابية منافذ المبالغة والاطناب لابد منها فى كل زمان ، وفى زماننا الحاضر خاصةً

ومنافذ المبالغة والاطناب هذه تأتى من مصادر متعددة : بعضها برىء و بعضها متهم ، ومنها المقصود المدبر ، ومنها الذى يحدث على غير قصد وتدبير

فأول مصادر المبالغة والاطناب جمهور السامعين ، وهم كدأب الجماهير يحبون أن يتأثروا وأن يخلقوا لانفسهم دواعى الحماسة والمغالاة ، وأن ينوّموا أذهانهم تنويما يسّهل لهم أن يعتقدوا ما يحبون اعتقاده ، وأن ينساقوا فى موجة من الشعور لا تطيق الحدود ، ولا تقف دون الاعجاب الكامل . لأن الوقوف عند حد من الحدود المعقولة يفسد الحماسة ، وليس افساد الحماسة مما تطيقه الجماهير

وهى ، أى الجماهير ، طبقات فى هذه الخليقة : ترتفع أو تهبط ، وتعتدل أو تجمح مع الشطط ، على حسب موقفها من الخطيب وموضوع الخطابه

فاذا كان موضوع الخطابه نعرة قومية أو شهوة عدائية يشترك فيها الخطيب والسامعون ، فالجمهور فى هذه الحالة على استعداد للحماسة والاطناب بغير مقدرة كبيرة فى الخطيب

و إذا كان السامعون مرؤسين لذلك الخطيب أو أتباعا متشيعين لحزبه ، يكرهون الغض منه لأنهم يحسبونه غضا منهم ، و يحبون اكباره لأن كبره منسوب اليهم ، فهم اذن أكثر استعداداً للحماسة والاطناب

وإذا كانوا فوق هذا صغارا ناشئين يفورون بحرارة السن الباكرة ، فأحرى بهم وهم جماعات وجماهير أن يستسلموا لما يسمعون ، والا يجشموا الخطيب معجزة الابداع ، ليستجيش بها قلوبا هى من قبل ذلك لاتهدأ من الجيشان

فأدنى الجماهير إلى التسليم هو جمهور صبية ناشئين يصغون إلى زعيم يفخرون به فخر العصبية ، ويسمعون منه صيحة الكبرياء الوطنية . . . وهذا هو جمهور هتلر فى جميع المواقف ، إلا القليل الذى لا يذكر

وقد شهد الناس فى مصر مجامع يحتشد لها السامعون زرافات زرافات من جميع الطوائف والاسنان ، ليسمعوا كلاما يعلمونه ويحفظونه ، من خطيب لا يعجب السامع بصوته ولا بايمائه . . بغية الاجتماع فى الواقع لا بغية الاستماع

ثم تتكرر الدعوة ويتكرر الاقبال ويتكرر التصفيق الذى لاباعث إلا الرغبة فى شىء يثير الشعور ويدفع السآمة و « يبرر » للجمهور وجوده وسعيه وانتظاره ، ويريحه من الحكم على « وجوده » بالفناء . والفناء كريه إلى كل موجود ، جمهورا كان أو غير جمهور !

وفى وسعنا أن نشهد كل يوم حشدا من الناس يبذلون من مالهم ليستمعوا إلى ممثل مضحك مشهور فى دور من الأدوار . فما هو إلا أن يلفظ الكلمة الأولى حتى ينفجر السامعون بالضحك والقهقهة ، وربما سأل أحدهم جاره : ماذا قال ؟ بعد أن يكون قد ضحك مع الضاحكين !

فالمصدر الأول المبالغة والاطناب فى شهرة الخطباء هو ابرأ المصادر وأخلاها من الغش وفساد الذمة ، وهو دفاع الجمهور عن وجوده حيث انتظم له وجود

* * *

والمصدر الثانى وسط بين البراءة والاتهام ، وبين الاندفاع والتدبير : وهو مصدر الرواة وكتاب الاخبار

فان الصحيفة الاخبارية لتتعمد التهويل والاغراق فى وصف حادثة هينة لا تستحق الالتفات اليها . لأنها تريد من القراء أن يلتفتوا ، وتعيش من التفاتهم إلى ما تكتب ، لا من تعويدهم أن يهملوا الأخبار التى تستحق الاهمال

والكاتب الذى يسافر الف ميل لينقل خطبة يلقيها أحد الزعماء فى يوم مشهود مرتقب المصير من المغرب الى المشرق ـ قد يفقد وظيفته إذا قنع بما دون السحر والاعجاز فى وصف ما سمع وما رأى ، وما لبث الناس ينتظرونه ويتكهنون به متشوقين متلهفين !

وقد تتفق الرواية الأمينة فى الصحيفة الرصينة فيقرأها العارف المسئول ويعرض عنها طالب المناظر والعناوين ، ممن ينظرون إلى مسرح السياسة كما ينظرون إلى مسرح التمثيل، وهم جمهرة القراء والنظارة فى كل مكان ، فيتواتر النبأ المبالغ فيه وينقطع النبأ الذى يحرص على الصدق والاناة ، وينتهى الأمر برواج الكذب والتلفيق، وبالشك فى الصدق والأمانة

فمبالغة السامعين ومبالغة الرواة ملازمتان لكل شهرة سياسية فى كل زمان ولا سيما زماننا الحاضر : زمان النشر والاذاعة، وزمان التشوف إلى الجدة والغرابة ودفع الملل والسآمة

* * *

ويأتى بعد مبالغة السامعين ومبالغة الرواة مصدر آخر من مصادر التهويل فى الشهرة الخطابية قائم على النية السيئة والخطة المرسومة ، ونعنى به مصدر الدعوة المسخرة والأقوال المأجورة ، وهو سلاح يعتمد عليه النازيون خاصة فوق اعتمادهم على سلاح الميدان

وجميع هذه المبالغات قد بلغت فى تعظيم شهرة الزعيم النازى اقصى مايتاح لشهرة أن تبلغ على الاطلاق : فاهتمام النازيين بالدعوة المسخرة قد جاوز كل اهتمام،

وجمهورهم أقرب الجماهير الى التسليم والاستسلام ، وحملة الاقلام مافتئوا عدة أعوام يتنافسون فى اشباع نهمة القراء بين جميع الاقوام

* * *

فمن الطبيعى اذن أن تكون حقيقة هتلر الخطابية أقل كثيرا من شهرته التى أذاعها الدعاة والصحفيون والسامعون من أتباعه ومريديه ، وأن يدخل فى حساب شهرته كثير من المبالغة والاختراع و « الإخراج »

ونحن فى عصر نسمع فيه الخطباء ونراهم على بعد ، ونحكم على المتكلم فى برلين أو موسكو أو واشنطون حكم راءٍ وسامع ، فما على المذياع ولا على الصور المتحركة من بعيد

وقد رأينا هتلر وسمعناه

فهو ولا شك خطيب مبين ، ولكنْ لاشك كذلك أنه ليس من ملوك الكلام فى عصرنا الحاضر ؛ وأنه لا يعد من طبقة الخطباء الذين يخاطبون كل جمهور ويتكلمون فى كل قضية ويروضون عصىّ الاسماع ، ولا نخاله يحسن القول بضع لحظات فى موضوع غير المرضوع الذى يقلبه منذ عشرين سنة ، أو بين أناس غير الذين يوافقونه فى الجملة ، ولا يخالفونه — ان خالفوه — إلا فى التفصيل

فليس هو فى إفاضة بريان ، ولا فى بادرة لويد جورج ، ولا فى مهابة سعد زغلول

ولكنه أقرب الى الممثل الذى كرر دوره حتى حفظه ووعاه ووقع فريسة له فلا يقدر على تبديله

تخيلْه مثلا غير غاضب ، أو غير متكلم فى مظالم ألمانيا المزعومة ؛ أو غير مطمئن الى آذان سامعيه

هتلر بين الوجوم والغضب الخطابى

وتخيله واقفا فى لندن أو فى موسكو أو فى القاهرة يفاجىء السامعين على غير معرفة باسمه ، ولا عهد بموضوع كلامه

إنه اذن ضائع لا محالة

وعيبه الأكبر أنه لا يُقنع ولا يقيم الدليل ، وأنه ما خرج قط على عادة واحدة تتردد فى جميع مواقفه وموضوعاته ، وهى إثارة الحفائظ و إضرام الكراهية ومواجهة السامعين من جانب الشعور المتفق عليه بينه و بينهم . . . وفيم اجتهاده فى اقناع من هو قانع ؟ وإيمان من هو مؤمن بغير برهان ؟

ومرجع هذه العادة عنده الى علل كثيرة : بعضها أصيل عالق بطبعه ، و بعضها حديث طارىء عليه من حوادث حياته وعصره

فالحديث الطارىء عليه هو هذا الذى ذكرناه ، وهو أنه تعوّد فى أيامه الأخيرة على الأقل أن يخاطب أناساً لا يحاسبونه ولا يجسرون على حسابه ، ولعلهم لا يريدون أن يحاسبوه لاتفاق الشعور بينهم و بينه

والأصيل العالق بطبعه أنه فقير فى العاطفة الشخصية ، غنىّ فى العاطفة الشعبية ، أى العاطفة التى تربط بين الفرد والجماهير

والعاطفة الشخصية هى التى تربى عادة المساجلة والمحادثة ، ومواجهة العقل للعقل ، والنفس للنفس ، والاصغاء فى موضع الاصغاء ، والاثبات بالحجة الصادعة فى موضع الاثبات

فالرجل المفطور على عاطفة يساجل بها العواطف ، وفكرة يقابل بها الأفكار ، يقول و يسمع ، و يستميل الفرد بالوسائل التى يستمال بها الأفراد ، مرةً بالايحاء ومرةً بالدليل ومرة بالشرح المفهوم ، وفى كل مرة بتبادل الثقة والاعتراف بحق المناقشة والاعتراض .

أما الرجل الذى نضبت نفسه من جانب العاطفة الفردية ، والذى ليس عنده

ما يبادل به مودة بمودة أو فهما بفهم أو خاطراً بخاطر ، والذى انقطعت جميع الوشائج بينه وبين إخوانه من أبناء آدم إلا الوشيجة التى تكون بين الواحد والألوف أو بين الداعية والجمهور — فذلك رجل محدود القدرة على التحدث والتفاهم وعلى الاصغاء والاقناع ، محتومٌ عليه أن يجد جمهوراً يستمع له . ويكتفى منه بالاستماع ، أو أن يتخيل نفسه قائماً بين جمهور وإن كان فى مجلسه أفراد قليلون .

لهذا اشتهر هتلر بالتدفق فى أحاديث السياسة ساعة بعد ساعة دون أن يقف أو يتمهل أو يسأم التكرار . فان لم يتدفق فى أحاديث السياسة فهو بين حكاية نادرة أو إعادة ملحة مطروقة ، أو سرد تاريخ قديم ، فان لم يكن هذا ولا ذاك فليس فى مجلسه إلا السكوت والوجوم .

« فهتلر الفَردُ « معدوم »

أما هتلر الموجود فهو البوق الذى ينفخ فى الجماهير أو يردد صدى الجماهير .

وانظر إلى صوره وهو فى مواقف التفاهم والتحادث تر أمامك صوراً فاترة باهتة تنطق بالتكلف ونقص الحياة وتبعث فى نفس ناظرها الريبة والنفور .

أما الصور التى يحيا فيها وتلبسه الحركة والشدة فهى الصور التى ينقطع فيها التفاهم ويثور فيها الغضب وتتأجج فيها البغضاء .

وماذا ترى فى هذه الصور ؟

إن الخطباء الحماسيين جميعاً ليغضبون ، وأنهم جميعا ليحركون الغضب فى الجماهير .

إلا أن الفرق بين غضب وغضب لفرق عظيم ، وإن الاختلاف بين حماسة وحماسة ليفوق الاختلاف بين القوة والمرض ، وبين الجلال والهوان .

رأينا سعد زغلول وهو غاضب فى خطبه فرأينا غضباً كأنه السيف يصول به الفارس على قرنه ، ويعرف كيف يصول .

ورأينا هتلر وهو غاضب فى خطبه فماذا رأينا ؟ رأينا غضبا كأنه الدمل

هتلر مع السفير البريطانى

المفتوح ينفّس عن ضغينة كامنة كأنها القيح المحبوس . فهو فرصة الألم والتذاذ الألم فى وقت واحد ، وهو علاج للتنفيس عن داء ، وليس بالسيف فى أيدى الأقوياء

هو نوبة مصروع وليس بوثبة صارع
وهو منظر تزورُّ منه العيون ، وليس بمنظر تود العيون أن تمتلىء منه

وهو رقصة الهمجى فى حومة الدم أمام أوثان النقمة والتشفى ، وليس برقصة الفارس فى حومة البرجاس

وقد جمعنا فى هذه الصفحات صورا عدة لهتلر وهو يخطب ، أو وهو يغضب ، لأنه فى الحقيقة قلما يخطب إلا ليغضب . فأية صورة من تلك الصور ياترى يستطيع القارىء أن يكتب تحتها مثلا « هذه صورة هتلر يزأر أو يزمجر ؟ »

إن هذا الكلام ليكتب تحت صور كثيرة لمصطفى كمال أو لسعد زغلول ، ولكن هتلر — على عنايته بصوره واتخاذه رساما خاصا يتبعه فى جميع المحافل ويوزع فى أقطار العالم ألوف الصور بل عشرات الألوف منها — لاتوجد له صورة واحدة تخيل إلى الناظر هيئة الأسد المزمجر أو الأسد الغاضب ، وكلها بلا استثناء مما يصح أن يكتب القارىء تحته : « هتلر يعوى » أو هتلر « يلطم »... ولا جناح عليه

* * *

ومن المعقول أن رجلا كهذا يحب حلقات الخطابة التى يتزين فيها لشياطين غروره وحقده كما تتزين المرأة المجنونة لشياطين الزار ، ويستريح فيها للهياج والتهييج كما تستريح تلك المرأة لصرعة الرقص وجلبة الطبل ورؤية الذبائح وهى تتخبط فى الدماء

ومن المعقول جداً أن يكره مواقف المفاوضة والتفاهم لأنها تطلعه على عجزه وتكشف له عن خواء طبعه ، وتخرجه منها وهو فى رأى نفسه أقل ممن حوله . . إلا أن يلجأ إلى التهديد بالحرب كما يفعل فى معظم أحاديثه ، فهو إذن فى موقف الاملاء وليس فى موقف المفاوضة والاقناع

وقد سُجلت كلماته فى المفاوضات التى دارت بينه و بين سفراء الدول ورؤساء الحكومات فاذا هى عبرة العبر واضحوكة الأضاحيك : لايكون فيها إلا ممثلا

يراوغ ، أو مهددا يتوعد ، أو منكراً لما يقال على طريقة الأطفال والنساء الجاهلات : إنى أنكر هذا لأنى أنكر هذا ، ولا مزيد . .

ناقشه مستر شامبرلن رئيس الوزارة الانجليزية فى الشروط التى فرضها على حكومة براغ وأوجب عليها فيها أن تخلى الأرض المطلوبة وأن تبدأ الاخلاء فى الساعة الثامنة من صباح السادس والعشرين من شهر سبتمبر (١٩٣٨) وأن تتمه عند انتهاء اليوم الثامن والعشرين

فقال له مستر شامبرلن أن هذا املاء «انذار نهائى» بغير حرب، و بغير هزيمة، على أمة قبلت المطالب وقبلت الاحتلال

واختار شامبرلن كلمة « املاء » عمدا لأن هتلر يذكرها كلما ذكر معاهدات الصلح ومعاهدة فرساى على الخصوص ، و يعتبرها موجبا لفسخ تلك المعاهدات

فما زاد هتلر على أن قال : « كلا ، ليس هو إملاء » وأشار إلى رأس الورقة قائلا : « انظر . . . إن الورقة مكتوب عليها كلمة مذكرة . . »

وهو كلام يقال للابسى القمصان فى ساحة الخطابة فيقبلونه و يسيغونه ، ولكنه لايقال فى مفاوضات وزراء وسفراء

فالخطابة هى الميدان الذى يغلب فيه هتلر بهذا الأسلوب ، ولن يغلب به فى ميدان آخر

وقد حذق من الخطابة ما يُحذق بالمرانة ومساعدة السامعين المستعدين للاصغاء والتصديق ، وأهمه تدفق الكلام وسهولة التعبير

ولم تزوّده الطبيعة من أدوات الخطابة الفطرية الا بزاد واحد وهو انقطاع الصلة النفسية بينه و بين الأفراد واضطراره من أجل ذلك الى مواجهة الجماهير للشعور بالحياة ونشاط الاحساس . ومتى نشطت نفسه ودبت الحركة الى ذهنه فلا يندر أن يلهمه الموقف بعض الخواطر البارعه التى يمثل بها أعداءه فى صورة

هتلر فى حياته الهادئة

مزرية أو صورة تستفز السخط والامتعاض ، وكلها من ولائد الكراهية وليس فيها صورة واحدة وليدة عطف أو عناية بالآخرين

ويختلف الناقدون فى صوته اختلافا لايتبين الحقيقه فيه من يسمع الصوت منقولا بالمذياع ، وهو ينقل بعض الأصوات على أصلها ويعرّض بعضها للتحريف وبعضها للتحسين

فمن الناقدين من يعيبون على صوته خشونة تصك الآذان ، ويقولون أنه أجرى العملية الجراحية فى حنجرته لاصلاح هذا العيب

ومنهم من يعجب بما فى صوته من العمق ورنة التجويف ، ويعده من اصلح الأصوات الخطابية لنقل الشعور الجارف والتهويل على السامعين

وسواء كان العيب الذى يعيبه اولئك الناقدون صحيحاً أو غير صحيح فالمهم فى صفات الاصوات أن تؤلف بالتكرار ، وأن يكون لها طابع ولون معروف ، وعندئذ قد يصبح العيب حلية مرغوبا فيها مع النجاح والتوفيق .

الزعماء

عصرنا هذا هو عصر الزعماء غير مدافع بين جميع عصور التاريخ

فقد شهدنا فيه كل ضرب من ضروب الزعامة على اختلاف شروطها ومقوماتها، وشهدنا فيه كل ضرب من ضروب الحركات الشعبية وكل جماعة من الجماعات التي تدين بالطاعة لزعيم

شهدنا زعماء من طراز سعد زغلول ومصطفى كمال يقودون الاتباع بهيبة «الشخصية» الآمرة وطلعة السيد المطاع

وشهدنا زعماء من طراز غاندى تحف بهم هالة القداسة ويأتم بهم الناس كما يأتمون بناسك المحراب

وشهدنا زعماء من طراز «دى فاليرا» يعيدون عهد القديسين المقاتلين بالصبر والثقة والمفاداة

وشهدنا زعماء من طراز موسوليني يسرى منهم النشاط الحيوى إلى أتباعهم كما تسرى الحرارة فى الأسلاك

وشهدنا زعماء من طراز لنين يقنعون من يقنعونهم بقوة الفكر المتعصب والمنطق المنحرف واللدد العنيف

وشهدنا زعماء من طراز شيان كاى شيك يقررون زعامتهم بصرامة العزم وحصافة الذهن ومثابرة الصبر والعناد

وشهدنا زعماء كابن السعود يجمعون أكبر ما يجتمع فى أبناء قومهم من

الصفات . فيفهم الناس أن ابن السعود أكبر العرب لأنه أكبر عربى فى طبائع الأمة العربية كما نعرفها الآن

وكل هؤلاء الزعماء يراهم المتفرسون المتوسمون فلا يحارون فى أسرار زعامتهم ولا يجدون أنفسهم مضطرين أن يسألوا : لماذا كان هؤلاء زعماء ؟ لأن الايمان باستحقاق سعد زغلول ومصطفى كمال وغاندى ودى فاليرا وموسولينى ولنين وشيان كاى شيك وابن السعود لمنزلة الزعامة فى أقوامهم لهو أسهل كثيرا من الشك فى ذلك الاستحقاق

فآخر ما يخطر على البال أن يرى المتفرسُ المتوسم رجلا كسعد زغلول أو غاندى على بعد مابينهما من التفاوت ، ثم يخرج سائلا : لا أدرى والله ما الذى جعل هذا من الزعماء ؟ . . . أنه لا يسأل هذا السؤال لأن حيرة الشك هنا لاتحيك له فى خاطر

أما الذين رأوا هتلر — وقد رآه أكثرنا فى الصور المتحركة — فكلهم على مانعتقد يسألون : أين سر الزعامة فيه ؟ لماذا يستهوى الجماهير ؟ وأى شىء يعوضه عن هيبة الزعماء ؟

(هتلر وجوبلز)

وعندنا نحن أن سر الزعامة فى هتلر أنه هو «واحدٌ مكبِّر» من جماهير النازيين ، أو أنه هو «مكبر الصوت» الذى يعيد فى الساحة الواسعة اصداء أفراد متعددين ، لا يُسمَع الواحد منهم الا إلى أمد قريب

فهو رجل يستطيع كل فرد من أتباعه أن يتمثل فيه نفسه مجسّما معظما بهذا التمثيل . ويقول فى وعيه الخفى : انظر . انظر . هوذا أنت . هوذا نموذج منك فى نطاق كبير

وهتلر من أجل هذا ضائع «المعالم الشخصية» لأنه فى صميمه ولبابه مجموعة من ملامح الجمهور وليس بفرد عظيم له ملامح فرد عظيم

ولو وضع فى وسط خمسة أو وسط خمسين أو وسط خمسمائة لكان حيرةَ الحائر فى الانتقاء والاستخراج ، لأنه صورة لا تتميز من سائر الصور إلا إذا انتزعتها من بينها لتكبيرها

فكل خصلة فى رجل الشارع فهى فى هتلر أضخم وأجسم ، ولكنه يلبسها كما يلبس الممثل دوره فلا يناقضك « بشخصية » مقررة تثير المقاومة والمناظرة ، ولا يشعرك بالغضاضة أن تجلسه على كرسى الرئاسة ، لأنك أنت الذى اجلسته عليه وأنت الكاسب عند الموازنة بين نصيبك ونصيبه ، فانما هو « شخصية مسرحية » وأنت الحقيقة الحيه على كل حال

وانظر الفارق مثلا بينه وبين بسمارك ، أو بينه وبين هندنبرج ، أو بينه وبين مولتكة ، أو بينه وبين أصحاب القيادة السياسية والحربية فى أمة الألمان على الاجمال

فليس واحد من هؤلاء « شخصية مسرحية » تقوم على الثوب الذى تلبسه لتمثل به الامة بأسرها

نعم انهم المانيون فى الصميم ، والمانيون فى الخلق والسحناء ، ولكنهم المانيون ينفردون بملامح لا تنغمر فى ملامح السواد ، وليسوا بالقناع الألمانى الذى تتساوى فيه الوجوه

ماذا يبقى من بسمارك إذا نزعت عنه جلباب قومه ؟

يبقى كثير

وماذا يبقى من هتلر إذا جردته من ذلك الجلباب المسرحى أو من تلك الصبغة العمومية ؟

لا شىء

ولا شىء يبقى منه أيضا إذا عزلته عن الحركه النازية فى أوانهـا المعلوم ودواعيها المسبوقة . « فهتلر غير النازى » لن يكون له وجود . و بسمارك موجود ولو لم يطرق باب الديوان

* * *

قال كارل شتيبانك Karl Stepanek الممثل الذى رأى هتلر على القرب وكان هتلر يشهد رواياته و يخلع عليه الجنسية الآرية على الرغم من نشأته التشكية :

« دخل الفوهرر فقال هيل ! . . . تحيـة النازيين . إنى مغتبط بحضورك إلىّ . فأجبته : هيل ! ورفعت يدى بالتحية المعهودة

« ثم لفظ ببعض كلمات دارجة وسيما التفـكير بادية عليه ، أما عيناه اللتان اشتهرتا بلون الحديد فـكانتا تنظران خلالى ولا أقول تنظران إلىّ . وطالما سألنى أناس من الانجليز عن تينك العينين ماهماوما لونهما ؟ فالحق أقول أننى مااستطعت قط أن أعطيهما لونا بين الألوان الرمادية أو الزرقاء أو الخضراء . إن فى تحديقهما ولا شك شيئا غير مقبول ، فانْ وصفه بعضهم بالمغناطيسى فهو فيما رأيت أقرب إلى تحديق الذين ينامون منه إلى تحديق الذين ينيمون »

وقال السير نيفيل هندرسون السفير البريطانى الذى كانوا يلقبونه فى انجلترا « بالنازى » لفرط رغبته فى مسالمة الألمان : « [1] ألفت أن اسمع كثيرا من

---

(١) من كتابه اخفاق مهمة Failure of a Mission

الألمان — ولا سيما النساء — يترنمون باشراق سيماه وعينيه خاصة ، وكنت انظر اليهما فأرى فيهما سخونة وغضبا . إذ لم يكن من حظى أن أراه إلا فى المناسبات الرسمية . بيد أننى على الرغم من أعماله ومساعيه التى لا يستطاع الاقلال من شأنها — لست أرى مناصا من المصارحة بما أبقاه فى نفسى من الأثر عند المقابلة الأولى أو بعدها . وذاك أنه لم يشعرنى قط بأية سمة من سمات العظمة

« ولقد كان يسحر شعبه كما هو بيّن بغير حاجة إلى بيان ، وكانت له قدرة على الخلابة إذا أجمع النية عليها ، فانها كانت إحدى بضائعه ومخزوناته ، وكان لها أثر شهدته غير مرة . و إن لم يكن لى منه نصيب

« على أنه فى حالاته المعقولة كان يربكنى أحيانا بسداده وحسن تدليله . فاذا سارت سورته ، وهى الحالة التى كان لها أبلغ السلطان على قومه ، فكل ما كنت أصبو اليه ساعتئذ أن أرجوه تهدئة نفسه

« ورأيت منه كثيراً من اعتزاز الفطرة وتأدبا حيثما لقيته ، ولكنى طالما تساءلت وما برحت أسأل : كيف صعد إلى هذه المرتبة ؟ وكيف احتفظ بسلطانه على الأمة الألمانية ؟ وجواب السؤال الثانى فيما أعتقد أن الألمان يحبون أن يسوقهم الحاكم المستبد ، وأن حزبه ليس بقادر وقد حصل على زعيمه أن يبدّله الآن . فلا حيلة له فى ابقائه حيث هو إذا أراد أن يتقى الهدم والدمار »

وقال السير نيفيل فى موضع آخر : « هذه القدرة على خداع النفس واقناعها قد كانت جزءاً موصولا بخططه وتدبيراته ، وقد ساعدته على اضرام عواطفه واقناع شعبه بما يريدهم على تصديقه . ويخيل إلى أنه إذا وقف غدا بين يدى الديان فلسوف يجادل يومئذ جدال المؤمن فى ظاهر الأمر بانه كان حريًّا أن يعصم أوربا من أهوال الحرب لو قبل البولونيون شروطه المعقولة السخية ! »

وزارته الرحالة المعروفة «روزيتا فوربس» Rosita Forbes فوصفت مظهره

بالتفاهة فى أحواله الهادئة وقالت : «[١] يستطيع هتلر دائما أن يلوح لك فى مسحة البساطة والبراءة على انها ، وأن يحس ما يقوله فى ساعة قوله ، وفى تلك الساعة على الأرجح لافى غيرها . ! وهو لا يصطنع المعرفة الغزيرة ، بل يتكلم فى سهولة بالغة . وعيناه — إذا لزم موقف الدفاع — تشفان عن بعض الخلو والفراغ ، ولكنه يعكس لك ما يحسه متى اهتم بموضوع الحديث بكل ما يبدو لك من ملامحه وسائر كيانه . . »

وقال الأستاذ ستيفن روبرت [٢] « إن المانيا الجنوبية طالما أنجبت الحالمين وتباع الخيالات ، على مثال ملك البجع لدفيج البافارى ، فلا تزال بينهم نزعة القرون الوسطى لاتفارقهم . وهم يعيشون فى عالم كأنه الوهم بين جبال كأنها الخرافات التى لا ترى رأى العيان ، وكأنما الحقول والبيوت التى لهم تخريج مسرح وتصوير ستار »

ثم قال : « وهتلر واحدٌ منهم : ابن فلاح يزيد تعليمه قليلا على تعليم كل ابن فلاح ، ولكنه يستوى الآن فى مكان يعلو على متناول الخيال فى أعجب ما عندهم من قصص الجان

« وفى الحق انه لا يخلو أبدا من هيئة انسان مدهوش بعض الدهشة ، وقد نبهنى زميل من كبار أطباء العقول لازمنى فى رحلة نورمبرج إلى هيئة هتلر وهو يشد نفسه من حين إلى حين فى المحافل الكبرى ليكفّ عن الأحلام ، كأنما هى حالة من حالات الشخصية المزدوجة ، فهو لا يحب أن تبرز فيه صفات الفلاح الشائعة بين جمهرة الفلاحين ، ولايفتأ مذكّرا نفسه بتمثيل دور الزعيم أو نصف الاله بين شعب عظيم ، ونبهنى ذلك الزميل إلى علامة أخرى من

---

(١) من كتاب هؤلاء الرجال اعرفهم These Men Iknew

(٢) Stefhen . H . Robert صاحب كتاب البيت الذى بناه هتلر
The House that Hitler Built

علامات هـذه الخليقة ، وهى اسراعة إلى تبديل ملامح الرضى والاكتفاء التى تزحف إلى وجهه أحياناً فى وسط المواكب الشعبية . . . » .

هذه كلها ملامح رجل مطبوع على « الايحاء الذاتى » أو مزاج الاستحضار الذى يستعين به الممثلون على تحضير الشخوص والأدوار .

فهو أبداً شخص غير شخصه ، وهو أبداً لابس قناع من صبغة خياله ، وهو أبدا بين جمهور وعلى مسمع من هتاف وتصفيق ، وإلا فهو نكرة من النكرات .

ونحن نستفيد من أوصاف الذين راقبوه ودرسوه وقيـدوا حركاته وسكناته عليه . . . . ولـكنه لا يختفى عنا إذا اختفت أقوال هؤلاء أجمعين ، لأننا كما قلنا فى عصر الزعماء ، وفى عصر المذياع يجوب الفضاء ، والصور المتحركة تتردد فى الأرجاء ، وليس لنا محيص من المقابلة بينه وبين زعماء الأمم فى زمانه ، وليس فى وسعنا بعد هذه المقابلة أن ننسب اليه صفة « ذاتية » كالصفات التى تتجلى فى أمثال سعد زغلول ومصطفى كمال وغاندى وموسولينى ، ولا أن ننسى الفارق بينه وبينهم فى مقوّمات الزعامة . فهو مكبّر صوت فى ساحة عامة ؛ وليس منهم جميعاً من تنحصر سياه فى تـكبير الأصوات .

أصحابه :

وربما كان أوفى الطرق وأقربها إلى دراسة نفس انسان أن تلم بسيرة أصحابه وأعوانه الذين يعمل معهم ويعملون معه ، ويحتاج اليهم ويحتاجون اليه .

فمن هذا الالمام بسيرة أصحابه وأعوانه نعلم حقيقة العمل الذى يتفقون عليه : هل هو مبرة يتفق عليها أناس كرام ، أو هو جريمة يتفق عليها أناس مخلوقون للاجرام .

وليس فى وسع أقرب المقربين إلى هتلر وأرغب الراغبين فى الثناء عليه أن يطلق وصف « الأناس الكرام » على أصحابه الأخصاء : جورنج وريبنتروب وجوبلز وهيملر واخوان هذا الطراز !

فكلهم من مرضى الظهور المشهورين بالنقمة والغدر وسوء الدخلة وحب الشرور .

وكلهم ممن يعرفهم العارف فيقول على الفور : ها هنا جريمة مدبرة ! ولا يخطر له على بال انها مأثرة من مآثر النبل والشمم والفضيلة .

ولاحاجة إلى التوسع فى سيرة هيملر فحسبه انه رئيس الشحنة وقائد الجواسيس الذى ترجع اليه آثام الغيلة ومكائد الوقيعة ووصمة التعذيب فى المعتقلات ، وافساد الأبناء على الآباء . والزوجات على الأزواج والاخوان على الاخوان ، سعياً وراء الفضائح وتسقطاً للأخبار واختراعاً للجنايات والأكاذيب ، وقياما « بوظيفة نازية » لا يخطر على البال أن يضطلع بها رجل صادق شريف .

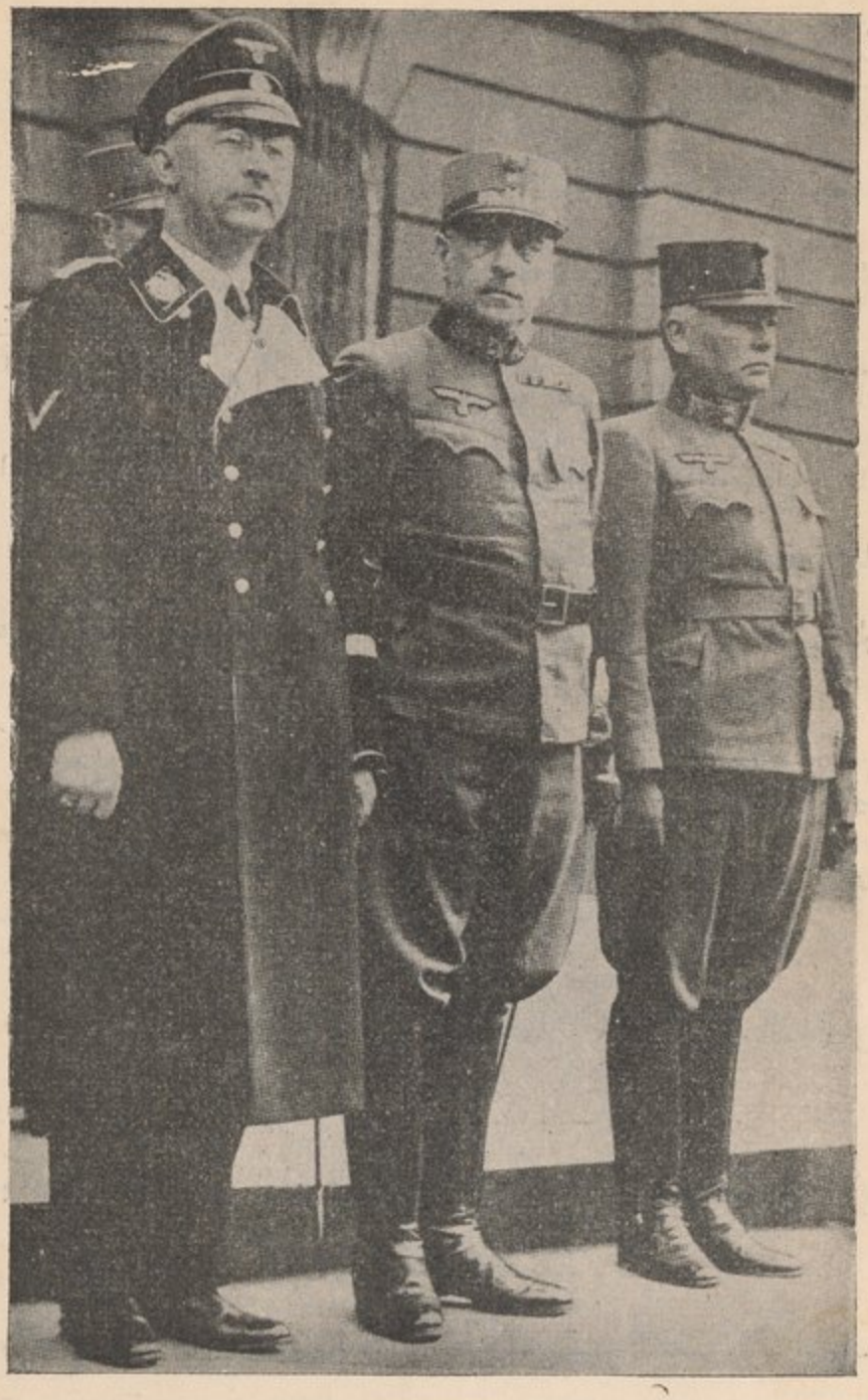

هيملر — عين هتلر التى لاتغمض وإلى جانبه ضابطان نمسويان

ولا حاجة كذلك الى التوسع فى سيرة جو بلز فحسبه أنه مدير الدعاية النازيه التى تقوم على الدس الخبيث والكذب الصريح ، والألمان أنفسهم على الرغم من قسوة الرقابة عليهم يصفونه بأنه أكذوبة تتحرك : وقف الممثل الهزلى لدفيج

جوبلز « الارى » يحرسه رجال الشحنة

فنك Finkh مرة يقول معرّضا به «: نحن الالمان نحب صيغة الجمع لغير داع » فنقول مثلا إن الأكاذيب قصيرة الارجل ... لماذا لا نختصر فنقول إن الاكذوبة لها رجل قصيرة !

ولكننا نذكر الحقائق المقررة عن الرجلين اللذين يقبضان مع هتلر على زمام السطوة كلها فى البلاد الالمانية ، وهما ريبنتروب المسئول عن السياسة الخارجية ، وجورنج المسؤل عن الجيش والطيران ، وفيهما ينحصر كل ما فى المانيا من قوة السياسة وقوة السلاح

فالأول من صرعى الظهور وأمثلة « الانتهاز » الذين عُرفوا فى الاصطلاح الحديث بنعت « الوصوليين »

لم يكن من أصحاب الالقاب ولكنه سعى عند عمه حتى تبناه ثم سعى عند المراجع الرسمية حتى قبلت وراثة اللقب بالتبنى كما يورث بالبنوة الصحيحة

ولم يكن من الأغنياء ولكنه وصل الى الثروة من طريق الزواج ، فأصهر الى أوتو هنكل Otto Hinckel صاحب الملايين من تجار الانبذة المعدودين

وكان فى نشأته ، وبعد الحرب ، يتجر بالنبيذ فى المانيا الغربية حيث يعسكر الفرنسيون وجنود الحلفاء ، وهى تجارة كانت تقوم على التهريب برعاية «الاعداء» المحتلين للبلاد !

وكان سبب التعارف بينه وبين هتلر من « أليق » الاسباب باخلاق النازيين وطبيعة الحركة النازية

فقد كان ريبنتروب منوطا بالتجسس على الاحزاب البافارية فى أعقاب الحرب الماضية ، وكان ضابطا يساعده فى هذه المهمة ضابط آخر ، فكانا موضع الشبهة والارتياب بين العمال وصغار الجند لانتمائهما الى طبقة الضباط التى كانت كما أسلفنا متهمة النيات فى عرف السواد من أبناء الطبقة العاملة

وكان من جراء ذلك أنهما بحثا عن « جندى » يؤدى عنهما هذه المهمة وينقل اليهما ما يسمع ويرى فعثرا بالطلبة المنشودة ، ولم تكن هذه الطلبة غير « هتلر » الذى كان مستعدا لكل صناعة من هذا القبيل فى مقاهى ميونيخ

وعلى هذا النحو تم التعارف بين الرئيس والمرؤس ، أو بين المرؤس والرئيس وريبنتروب ، بعد ، هو موقع الميثاق الالمانى اليابانى لخمس سنوات وهو هو الساعى فى ابرام المحالفة بين الالمان والروس !! وانه لعمل لايخلو من الدلالة على الأخلاق مهما يقل القائلون فى تسويغه باسم السياسة والمناورات الدولية

أما جورينج فالثابت من الاوراق الرسمية فى بلاد السويد أنه كان يتعاطى

المورفين بشـــهادة الاطباء والصيادلة أمام قضاة الأحوال الشخصية فى مدينة « ستوكهلم » سنة ١٩٢٦

وفحوى القضية أن زوجته السويدية طُلقت من زوجها السابق فون كانتزو Von Kantzow ولهـا منه ولد قاصر فاختلفا على الحضانة ، وجاء أهل الزوج السابق إلى المحـكمة يثبتون أن تربيـــة الولد على خطر محقق بين الأم وزوجها الجديد . . . لأن الأم مصابة بالنوبات المزمنة ، والزوج — وهو جورينج — مصاب بادمان المخدرات وأعراض الجنون

و بعد تقديم الوثائق وسماع أقوال الخبراء والشهود قضت المحكمة بفصل الولد عن الزوجين وتسليمه الى حضانة آخرين

وقد ثبت فى المحكمة أن جورينج دخل مستشفى اسبودن Aspudden بعاصمة السويد فى منتصف سـنة ١٩٢٦ للعلاج من آفة المخـدرات وعوارض الجنون ، وأنه نقل منه الى مستشفى كاتارينا Katarina حيث كانوا يحجزونه فى حجرة مبطنة لفرط هياجه بعد تحريم المورفين عليه (١)

وعجائب جورينج فى حب الظهور ونشوز الأخلاق لا تحصى ولا تفرغ منها فـكاهات أهل برلين من نازيين وغير نازيين : حسبك منها انه يلعب بشبل أسد وانه يبدّل نيفاً وعشرين كسوة رسمية ، و يملأ كل واحدة منها بالأنواط والأوسمة والشارات !

والظاهر أن الآفة عامة بين زعماء النازيين على صور وأشكال . فكلهم جياع إلى المظهر البراق ، وكلهم يعيشون فى جو التمثيل والاخراج .

فالمنافس الأول لجورينج — وهو ريبنتروب — لا يكثر مثله فى تبديل الـكسى وحمل الأنواط والأوسمة ، ولكنه لا يعيش بغير تمثيل وتهويل سواء أقام فى

---

(١) كتاب « جورنج أخطر رجل فى ألمانيا » تأليف كورت سنجر Kurt Singer

بلاده أو تغرّب عنها . . . ومن ذاك انه تولى وزارة الخارجية فأقام فيها حرسا من مائة وخمسين فتى يلبسون الكسوة الرمادية الخضراء ، ويرسلون الأهداب من الأكتاف ، ويصطفون كل صباح لأداء التحية فى فناء الوزارة .

وروى مراسل « لايف » Life الامريكية انه حضر مأدبة من مآدب ريبنتروب الرسمية وهو سفير فى العاصمة الانجليزية ، فلما دخل الردهة الكبيرة بصر بابنه رودلف واقفاً على الشرفة وفى يده نسخة لم تفتح من كتاب « كفاحى » لهتلر يقلّب فيها كأنه يقرأها وينعم فى قراءتها !

ثم أدب ريبنتروب مأدبة أخرى فى الخريف التالى تكريماً للكونت شيانو فحضرها المراسل مع الصحفيين المدعوين . قال : فرأيت الفتى فى وقفته الأولى ، وفى موضعه الأول ومعه الكتاب لم يفتح بعد ، وهو مقبل على قراءته بانعام .

وحكاية « هيل هتلر » والوقفة النازيه فى بلاط لندن أعجب ما يُروى من مهازل هذا التمثيل والاخراج !

وقد تساوى ريبنتروب وجورينج فى استغلال الوطنية والاستفادة من محنة الأمة عند الحاجة .

فاحتلال الحلفاء لوادى الرين لم يمنع ريبنتروب أن يقنص الفرصة ويتجر هنالك بتهريب النبيذ .

وحماسة جورينج الوطنية لم تمنعه أن يعرض مر المظلات الواقيـة للبيع فى الأسواق الأوربية ، فأنشأ فى أيام الجمهورية الألمانية المعروفة باسم الريخ الثانى مصنعاً لهذه المظلات بعاصمة السويد يعرضها لمن يشاء أن يشتريها من دول الأعداء والأصدقاء ، وهى تلك المظلات التى يعتمدون عليها الآن فى غارات النرويج والميادين الغربية .

وقد حفظت نسخة الاعلان فى دار المحفوظات السويدية وفقاً للقانون الذى يقضى فى تلك البلاد بايداع نسخة فى المكتبات الحكومية من كل

ورقة مطبوعة . . . فكأنّ جورينج لا يختص وطنه بمخترعاته إلا إذا كان له نصيب من حكمه ، أما إذا كان يائساً من الحكم غريباً فى بلاد أجنبية فليس لوطنه هذا الحق عليه .

وندع هنا ما أفشاه الصحفى سفتون ديلمر Sefton Delmer عن ودائع الزعماء النازيين فى المصارف الأوربية والامريكية وتبلغ فى تقديره سبعة ملايين من الجنيهات .

فسواء ثبت هذا الخبر أو لم يثبت فالهدايا التى قبلها جورنج فى عرسه (سنة ١٩٣٤) ولا يزال يقبل أمثالها تبلغ الملايين ولا شك فيها بين الألمان ... والأسهم التى اشتراها جوبلز فى البلاد الخارجية حقيقة لا تقبل الانكار ، ومنها مائة سهم فى شركة كبيرة يعرفها المصريون وهى شركة قناة السويس حُجز عليها (أى على الأسهم) بقرار من نيابة محكمة السين فى منتصف شهر مايو (١٩٤٠) . . . وقس على ما ثبت بالأوراق والشهادات ماهو مزوىٌ إلى الساعة فى انتظار الاثبات .

إلا اننا لو نفينا الاختلاس وابتزاز الأموال عن هؤلاء الناس لظلوا على وصفهم الذى تنكره الأخلاق والأذواق عصابةً من مرضى الظهور ونهّازى الفرص وأصحاب الضراوة بالشرور .

فما هى القضية الشريفة التى يخدمها أمثال هؤلاء ؟ وما الذى يرحض عنهم وصمة هذه الشرور ؟ أيرحضها عنهم انهم أذكياء لبقون فى التحيل ونصب الفخاخ ؟

لقد حيّرت عصابات المهربين فى الولايات المتحدة ذكاء الشرطة والمحققين ورؤساء الحكومة حتى اضطروهم إلى رفع الحظر عن المسكرات . فمن المجرمين أذكياء ومنظمون ، ولكن ليس من رجال الخير والنجدة والقضايا الشريفة فتاكون أشرار ، مجردون من فضائل النبل وسجايا المروءة .

ولولا أن العمل الذى يتولاه هتلر « جريمة انسانية » لما تولاه معه أناس بهذه الطباع .

تلخيص

وفحوى ماتقدم أننا أمام رجل أبتر مدخول الطبيعة

لم تؤهله للخير وراثته ولا نشأته ، ولا صلة الارحام بينه وبين أهله ، ولاصلة المودة بينه وبين صحبه ، ولا القدرة على كسب عيشه ، ولا النجاح والتوفيق فى الفنون الجميلة التى ظن أنه مستعد لها بطبعه ، ولا الغرائز والعواطف التى ركبها الله فى تكوين كل ذكر وأنثى

والى جانب هذا لم يكن لطبيعته المكبوتة مصرف من الحركة الجسدية والألعاب الرياضية التى تُلهى وتشغل عن هواجس النفس المصدومة النافرة وأشواق الجسد العاجز المحسور . لأن هتلر على كل إطنابه فى مدح الالعاب وتنشئة الجيل عليها لم يولع قط بلعبة رياضية أو حركة جسدية ، ولم يشتهر كما اشتهر غيره من الطغاة بغرام السرعة فى ركوب الطيارات والسيارات ، أو غرام الفروسية فى الصيد وتجربة السلاح ، أو ما شاكل ذلك من وسائل التنفيس والتفريج

ولو اقتصر أمره على هذا لكانت نهايته التى لاشك فيها إما الى الاجرام أو الجنون ، وإما الى الخمول والهزال ، ولما سمع به أحدٌ ولا كتب له اسم فى سجل التاريخ

ولكنه نشأ موهوب الذهن فى فترة الزعازع الدولية والمفاجآت السياسية واتفق له أنه كان « مختار » خمسة أو ستة فى بدء حياته الحزبية : اختاروه ولم يكن فى وسعهم أن يختاروا من يشاءون كما يشاءون . ثم تكفّل التاريخ

بالبقية الباقيـة ، وأصبحت الصعوبة بعد ذلك فى اسقاطه ومحوه لا فى ارتقائه وتمهيد طريقه

كيف وصل هتلر إلى الزعامة ؟

وصل اليها لأنه كان « مختار » أولئك الخمسة أو الستة من البداية ، ولم يكن من السهل اسقاط زعيم بعد اختياره

وكيف فعل بعد ذلك مافعل فى عالم السياسة الدولية ؟

فعله لأنه قبض بفضل تلك الزعامة على موارد أمة كبيرة كالأمة الألمـانية ، عدتها ثمانون مليونا وطاقتها الحربية والسياسية والصناعية لاتفوقها طاقة أمة أوربية ، وعقيدة الجيل الناشىء منها فى طاعة « الزعيم » أنها مقدمة على طاعة الاله كما قال مدير المدارس الدكتور رينولد كروس Reinold Kraus حيث كتب فى صحيفة دوتش تاجسيتونج « إن المسيحية عالمية فى شعورها . ولـكن الواجب هو تقديم الوطن على العالم . فمن المستحيـل أن تؤمن بالريخ الثالث ثم تؤمن بان طاعة الله مقدمة على طاعة الانسان »

ورجل يقبض على زمام ثمـانين مليونا من المخلوقات الآدمية هذه عقيدتهم وهذه فطرتهم وذلك استعدادهم للطاعة العمياء ما الذى يستكثر عليه مما فعل ؟ ولماذا يستكثر عليه ؟ ولمـاذا نقف أمام فعله موقف الدهشة والاكبار .

لو أنه كان متقيدا بدستور أومتقيدا بقانون أو متقيدا بعرف مأثور أو متقيدا بمعاهدات مرعية أو متقيدا باجتناب الحرب أو بالسير فى طريق محدود لايتحاشاه ولا يحيد عنه لـكان العجب مفهوما من أن يستطيع ما استطاع . لـكنه لم يتقيد قط بشىء من الأشياء ، ولم يزل يأمر ويطاع فى كل ماأراد

---

(١) ١٩ — ٣ — ١٩٣٤ من صحيفة Deutsche Tageszeitung

بل نحن نخطىء إذا فهمنا أن المسألة هنا مسألة طاعة . لأنها فى حقيقتها أكثر جدا من الطاعة

المسألة هنا مسألة تعصب لزعيم يراد له التقديس والتمجيد ، ومسألة « ثورة شعورية » جامحة فى سبيل التمكين والتأييد ، أو هى « هوسة » تسبق الطاعة إلى المفاداة والمغامرة ، لأن غريزة الجماعات قد جاشت جيشانها ، فاندفعت كما يندفع القطيع من الماشية فى أثر الحيوان السابق ، ولو إلى الهلاك

أيقال إن هذا مطلب صعب على من يريده ؟

كلا . بل هذا أسهل المراكب وأوطؤها لمن لايحسب حسابا ولا يتقيد بقيد ... فليس أسهل من إثارة الشرّ فى نفوس الجماعات الغاضبة المتعطشة إلى الانتقام ، المهتاجة بصيحة الحرب والعدوان

وأنه لأسهل المراكب من الوجهة الاقتصادية والسياسية ، لا من الوجهة الشعورية ولا من وجهة النظر إلى غرائز الجماعة دون غيرها

تسلحوا أيها الألمان جميعاً . . !

هذه أسهل صيحة تصاح وأقمنها بالاجابة والقبول :

يقبلها أصحاب المصانع لأنهم يروّجون بها مناجم الفحم والحديد ومصانع السلاح

ويقبلها الضباط والجنود لأنهم يعتزون بها ويضمنون بها العيش والكرامة

ويقبلها العمال والصناع لأنهم يجدون عملا فى صنع السلاح أو فى حمل السلاح

ويقبلها الشيوخ المحافظون لما فيها من تعزيز النظام القديم ، ويقبلها الشبان المتطرفون لما فيها من الحماسة والضجيج ، ويقبلها النساء لأنهن زوجات عمال أو جنود أو أصحاب أموال ، ولأنهن معجبات بمظاهر الفروسية ومواكب الجنود فى كل زمان

فأنت ترى أنها ليست بمعجزة

بل هى نقيض المعجزة

إنها أسهل شىء يخطر على بال من يريد ، ولا مانع يمنعها إلا التفكير فى العواقب على الأمة الألمانية ، وعلى الامم المجاورة لها وعلى العالم الانسانى بأسره ...

وهذا مالم يفكر هتلر فيه

لأنه مجرم يركب رأسه

لا لأنه رجل مقدام

* * *

وكل ماصنع هتلر فهو ضرورى لغرض واحد : ضرورى لاشباع غريزة الحقد والغرور والبطش والاجرام فى نفس بتراء ممسوخة

وليس بضرورى لغرض آخر كائنا ما كان

نعم ليس بضرورى لسيطرة ألمانيا المزعومة حتى لو أمكن أن تسود ألمانيا على الدنيا ، وهو مستحيل

وغاية ماهنالك أن « سيطرة المانيا المزعومة » هى الستار الذى يدارى به هتلر بشاعة إجرامه ، أو هى المخدر الذى ينيم به وسواسه قبل اقتراف الجريمة أو بعد اقترافها

وإلا فكيف كان هتلر يطيق تلك الأشباح كلها لو صارح نفسه بالحقيقة ، وأعلن نفسه أنه يهدر ما أهدر ويقتل من قتل لمحض الاستمتاع بشهوة الدماء ونهمة الأحقاد

إن القاتل ليرتعد من الوجل والرعب أمام شبح واحد وجثة واحدة . فكيف بالمجرم الذى يقذف بالعالم كله فى اتون النار . وكيف بالمجرم الذى تتراءى له الرؤوس الطائحة من أصدقائه وأعدائه بالألوف ؟ وكيف بالمجرم الذى يقضى على شعوب ويهتك كل حرمة مقدسة فى الشرائع والآداب ؟

الجنون السريع أيسر ما يصيب المجرم الذى تطارده كل هاتيك الاشباح ، ثم يصمد لها الليل بعد الليل والنهار بعد النهار ، بغير مخدّر فعال

وسيطرة المانيا المزعومة هى ذلك المخدر الفعال

فاقتل ياهتلر اذن واضرب وغامر وانتقم وأشبع ما بدالك من ضغينة وشر وكنود ، فما أنت بمجرم منهوم بالشر المستطير بل أنت بطل مشغوف بمجد المانيا الموعود

هل ضمن مجد المانيا الموعود ؟ وهل ضمن السيطرة الالمانية على الدنيا ؟

كلا ! فسيطرة المانيا على الدنيا ولو انتصرت فى الحروب كافةً مطلب لا يكون ، ومصير غير مضمون ، ولا هو بعد ضمانه بمأمون

ولكنه ضمن المطلب الذى لاريب فيه ، وهو اشباع مافيه من شر متفزز ومسخ متحفز ، وطبع مكظوم

وقد يقول قائل الآن انه استهان بالأرواح والحرمات وأقدم على الشر المستطير فى سبيل خطة عظيمة هو واضعها وهو الكفيل بانجازها فى مكان الزعامة على الأمة الالمانية ، أو فى المكان الذى يستطيع فيه أن يتمنى و يحقق ما يتمناه

لكنه مع ذلك فرح بالشر المستطير عند اعلان الحرب الماضية وتهلل له وقال فى كتابه « ان تلك الساعات كانت نجاة لى من الضيق الذى كان يرين على نفسى فى أيام شبابى . فلا يخجلنى أن أقول اليوم اننى قد أُخذت بمجىء تلك الساعة و ركعت على ركبتىّ أشكر الله من أعماق قلبى لأنه أتاح لى العيش فى هذا الزمان »

فهو يفرح بالشر المستطير وهو جندى من عشرة ملايين ، و يفرح به وهو زعيم لا يشاركه أحد فى الزعامة ، وليس فى وسع مخيلة أن تتوهم أنه قد فرح بالكارثة العظمى ذلك الفرح لأنه رأى امته منتصرة ورأى أنه سيجلس على

عرشها بديلا من آل هوهنزلرن وهم ظافرون ! أو رأى أمته منتصرة وهو يتنبأ للدولة النمسوية بالانهيار ، أو رآها منهزمة ثم تسلسلت أمامه الحوادث إلى اليوم الذى يشن فيه هذه الحرب الحاضرة . فتلك أوهام بعيدة من تخيل المتخيلين ، وإنما الصحيح من كل هذا أنه مجرم شرير يفرح بالشر حيث كان لأنه لا يعرف الفرح بغيره فى عمل من الأعمال

***

وإيانا أن ننخدع عن كنه الاجرام فنفهم أن المجرم ينوى الجريمة ويعترف بينه وبين وجدانه باختيارها وتفضيلها ولو تسنى له اجتنابها

فان المجرمين ليعتقدون أنهم مكرهون ، وأنهم لولا الأيام والصروف لما اقترفوا قط ما يقترفون ، وما من نزيل من نزلاء السجون تسأله فيقول لك إنه كان يأبى أن يعيش كما عاش فلان الصالح السرى وفلان العائل المكفول المؤنة بين

هتلر يسمع اعلان الحرب الماضية سنة (١٩١٤)

عياله وأهله ، وهتلر أيضا لو سألته لقال لك مخلصا أو غير مخلص أنه كان يود لو تم له كل ما أراد بغير قتال

إننا لنبحث عبثاً فى سجلات التاريخ ووقائع الدنيا الماثلة بين أيدينا لو بحثنا عن المجرم الذى يقول إنه خرب العالم وله مندوحة عن خرابه ، أو ظلم من ظلم وسفح ما سفح لأنه يستريح إلى الظلم وسفك الدماء .

فانكار الجريمة لا ينفى طبيعة الاجرام .

وكفى أن يكون الشر سهلا يواقعه المرء لأيسر ضرورة أو لضرورة موهومة لتثبت طبيعة الاجرام أيما ثبوت .

وما ضرورة دانزيج . وما ضرورة تأجيلها أو انتظار اليأس من المفاوضة فيها ؟

ليست بضرورة على الاطلاق

لكنها مع هذا كانت أعضل على هتلر من معضلة المغامرة بسلام الدنيا ومصير بنى الانسان

وسوّغها المسوغون فقالوا إنه قد أسرع إلى الحرب لأنه عاهد الروسيين على التزام الحيدة وتقسيم الغنائم ، كأنهم ينسون أنهم يعنون بذلك تفسيرا واحدا لا تفسير غيره ؛ وهو أن صاحبهم يتلهف على ذرائع الشر والبغى فلا يرفضها ساعة العثور عليها ، وليس يتلهف على ذرائع الرفق والسلام

***

و بعد فسيطرة المانيا على الدنيا ليست حقيقة فى حيز الوجود ، وليست حقيقة فى مستقبل الأيام ، وليست حقيقة تساوى أهوالها وخسائرها على فرض امكانها

لكنها حقيقة على صورة واحدة : وهى الاعانة على طوية الشر والبغى والتمادى فيهما إلى أقصى مداهما . . ففى هذا ولا شك هى حقيقة وافية بغاياتها ، مؤدية إلى نتائجها

وليس فى تاريخ الرجل عمل واحد يستعصى على انسان متوسط الذكاء غير

مقيد بالعواقب ولا بوازع القانون والاخلاق

فهو لم يصنع معجزة يوم اختاروه زعيما لخمسة أو لستة من الفارغين للمشاغبات السياسية فى ميونيخ . ولا سيما إذا ذكرنا أن هذه الزعامة لم تكن أمنية مرغوبا فيها ، للشك فى مصيرها واستلزامها أن ينقطع لها صاحبها عن الأعمال والعلاقات

وهو لم يصنع معجزة ببقائه فى زعامته ، لأن خلع الزعيم ولو كان خصومه على هدى ، أصعب جدا من بقائه فى الزعامة ولو كان على ضلال

وهو لم يصنع معجزة باقتداره على مافعل و بين يديه موارد الدولة الألمانية وأمامه عالم لا يريد الحرب ولا يتفق على المقاومة

وفضيلته الكبرى هى نقيصته الكبرى :

هى أنه ركب الدولاب الجامح ولم يبال وخامة المركب ، لأن أسوأ العواقب لا يعنيه ولا يثنيه

فلم يفكر ماذا يكون المصير والمانيا كلها هاجمة على التسليح مشغولة بالتأهب للقتال فالمصانع لا تخرج المدافع والدبابات أبد الآبدين : دورانها على السلاح سرمدا مستحيل ، ووقوفها بعد دورانها أعواما مستحيل ، لما فيه من اغضاب أصحاب المال ، واغضاب الملايين من العمال ، المتسكعين بين الجوع والسؤال

والتحدث عن الحرب ليل نهار لابد أن ينتهى إلى حرب عاجلة ولو لم تكن لازمة ولا ناجحة

وتربية الشعب على المفاجآت المسرحية تعوّده أن يترقبها و يتحفز لها ولا يطيق الفراغ منها ، و إلا فترت الحمية وخمدت نار الزعامة التى هى قوامها وعلة وجودها

وهكذا دار الدولاب الجهنمى دورته المرهوبة ، ولم يكن عند هتلر إلا لعبة أخاذة يستطيبها خيال اكتع لم يخلق للعظمة الفنية ، وطبيعة جارمة خوت من الرحم الانسانى ، وعقل مخبول يومض فيه الذكاء ، ولكنه ذكاء فى قبضة شيطان .

هتلر بين يدى هندنبرج

الفصل الرابع

قضية اليوم

قضية اليوم :

ما هى إذن قضية اليوم ؟ ما هى القضية التى يعرضها النازيون على العالم للفصل فيها ؟ وأين هى مصلحة العالم من طرفَىْ القضية ؟

ان هتلر يعرض على العالم قضية الطغيان والحرية الانسانية ، أو قضية الايمان بالسلاح وحده والايمان بشىء فى الحياة وفى الحضارة غير السلاح .

وهو لا يعرض على الناس قضية الطغيان ليقول لهم : أيها الاخوان . تعالوا وكونوا طغاة مثلى . . . . . ولـكنه يعرضها ليكون هو الطاغية المتحكم وهم العبيد المستسلمين .

وهو لا يؤمن بالسلاح وحده ليقضى به فى خصومته مع بولونيا وانجلترا وفرنسا وبلجيكا وغيرها وغيرها ثم يكفر به ويلقيه جانباً ويعترف بالحقوق والحرمات .

كلا ! بل هو يعتمد عليه اليوم مرة ويعتمد عليه غداً عشر مرات ، لأنه إذا بلغ به ما أراد زاد اعتماده عليه ، وأصبح أقدر على استخدامه مما هو الآن .

فهو قد عمل للحرب فجمع لها عدتها . . . وغيره لم يعملوا للحرب فلم يجمعوا لها مثل تلك العدة .

هل أصاب أو أخطأ فى اشتغاله للحرب دون غيرها ؟

قل انه أصاب أو قل انه أخطأ فليس هـذا مقطع القول الآن ، وإنما مقطع القول ان الذى ينصره أو يتمنى له النصر يخطىء كل الخطأ ولا يصيب فى حقه ولا فى حق العالم أقل صواب .

على ان العالم لو اشتغل للحرب وحدها كما اشتغل لها هتلر لكان معنى ذلك ان الهتلرية قد ربحت المعركة قبل دخولها ، وقد دان العالم بدين الطغيان وكفر بدين الحرية . وأصبح لزاما عليه أن ينقلب إلى معسكر ميدان لا يتربى فيه الطفل ولا يعمل فيه الرجل ، ولا تفكر فيه العقول ، ولا تجمع الدولة مالا أو تنفقه ، ولا تبيح الحكومة شيئاً أو تحرمه إلا فى هذا السبيل .

وبئس الوقاية من الهتلرية تلك الوقاية .

* * *

يقول هتلر للعالم :

« اعطونى حرية الانسان . . . اعطونى حقوق الانسان . . . اعطونى ضمان الرأى والروح . . . اعطونى تراث الماضى والرجاء فى المستقبل . . . اعطونى حقوق الفرد فى الدولة ألغيها ، واعطونى الدول الصغيرة أدوسها ، والدول الكبيرة أمزقها . . . وقواعد الطمأنينة فى الأرض كلها أزعزعها وألقى الفزع والفوضى والمصير المجهول فى مكانها . . . . اعطونى كل ما تعزّون ولا تسألونى ماذا تأخذون ! . . لأننى آخذ ولا أعطى : آخذ الحرية التى عندكم ولا أعطى القوة التى عندى ، أو آخذ رجاءكم فى الحرية ولا أعطى رجاءكم فى القوة . إذ هى لى وحدى لا أعطيها أحدا حتى بين الألمان خلاصة بنى الانسان . . . فكيف يعطاها غيرهم من المخلوقين للطاعة والهوان ؟

يقول هتلر للعالم : اعطونى الحرمات والحقوق لأن ألمانيا لا تعيش فى الدنيا وللدنيا حرمات وحقوق ؟

فهل يصدق فيما يقول ؟ كلا . بل هو يكذب ويلغو . فما فى الأرض أمة تعيش قريرة راضية والدنيا مسلوبة الحرمات والحقوق .

وهبوه مع ذلك صادقا فعلام يدل صدقه ؟ يدل على أن مصلحة المانيا ومصلحة العالم نقيضان ، وان العالم لن يستريح وللألمان سطوة وشنآن .

والواقع ان العالم — كذب هتلر أو صدق — ان يستريح والسطوة الهتلرية قائمة والدولة النازية دائمة .

فقضية الانسان اليوم هى أن تنهزم المانيا الهتلرية الهزيمة المبرمة التى لا قيام بعدها ، لأن انتصارها هو انتصار لمطالبها التى تبغيها ، ومبادئها التى تدين بها ، ومطالبها الصريحة التى لا تكتمها هى استغلال الشعوب الأخرى وابتزازها ، ومبادئها الصريحة التى تبشر بها هى سيادة القوة بينها و بين الدول ، وسيادة القوة بين الحكومة والرعية . . . وهل لأحد أن يطمع من حكومة ألمانية فى حرية أوسع من الحرية التى يؤذن بها لأبناء المانيا نفسها ؟ كلا . فما للحرية وجود فى عالم يسوده فرد مقدس معصوم يطلب من الناس ما لا يطلبه الخالق من المخلوقات .

كل ما هنالك مبادىء القوة ، ومعنى مبادىء القوة الغاء التفاهم والتعاقد فى السياسة الخارجية ، والغاء الشورى والانتقاد وضمان الحقوق والأرواح فى السياسة الداخلية . فلا شىء غير طغيان السيد واذعان الضعيف المحكوم اذعان المستسلم الصامت الذى لا ينبس بشكاية ، ولا يطمع فى اصغاء .

ليس يكفى أن تخرج المانيا من الحرب وقدفاتها النصر والاستعلاء ، بل يجب أن تخرج منها مهزومة عاجزة عن التهديد .

لأنها إذا ملكت زمام التهديد بعد الحرب لم يلبث العالم أن يعود إلى ما كان فيه من الفزع الدائم والتسابق الأهوج فى مضمار التسليح ، وأن يسرف إسرافه المنهك فى أهبة الهجوم والدفاع . فتذهب موارده فى اعداد عدة التدمير ثم تضيق هذه الموارد بكل عمل مفيد من أعمال البناء والتعمير . ويعانى أبناء

الأمم جميعا ما كانوا يعانونه من الكساد وارهاق النفقات ، بغير أمل فى تبديل هذه الحاله

ولا موضع للمفاضلة بين خروج ألمانيا منصورة أو موفورة القوة و بين خروج الحلفاء منصورين قادرين على المقاومة

فأقل ما يُرجى من انتصار الأمم الديمقراطية أن تبقى حالة الحرية كما كانت فى السنوات الأخيرة ، وهى حالة أكرم وأسلم من كل حالة يتوقعها العالم بعد تسليط الألمان عليه

هذا أقل مايرجى من انتصار الأمم الديمقراطية . أما أكبر مايرجى من انتصارها فهو اتساع آفاق التفاهم والتعاون بينها و بين الأمم الضعيفة ، وهى خطة صالحة للأقوياء والضعفاء على السواء : يظفر منها الأقوياء بمودة لا يستهان بها وتخفيف فى النفقات الحربية هم أحوج ما يكونون اليه ، ويظفر منها الضعفاء بالعضد الذى يريحهم من أعباء الدفاع ، ويتيح لهم أن يوجهوا أموالهم وأرزاقهم وجهة الاصلاح والتعمير

وقد يخطر على بال جاهل أن خروج الدول الديمقراطية من الحرب مضعضعة خائرة أصلح للعالم وأجدى على الأمم الضعيفة

فهذا الخاطر سخيف مأفون . لأن الدول المضعضعة الخائرة لا تضمن تقرير السلام واخافة المتربصين المتوثبين للشر وهم كثيرون : منهم المستبدون الذين تجنبوا الحرب فصانوا قوتهم للارهاب والنهب بغير حساب ، ومنهم الشيوعيون الذين يرقبون يوما يفرضون فيه مذاهب الهدم والكراهية على جميع الشعوب ، وأى فرصة ينتهزونها لترويج مذاهبهم كالفرصة التى يجدونها وهم آمنون سطوة الدول الديمقراطية الكبرى ؟ لعلهم يصيبون بين شعوب تلك الدول نفسها تربة صالحة لالقاء بذور الفتنة والتمرد والانتقاض ، متى وجدوها مضعضعة خائرة

لاتقوى على إخافتهم ولا على علاج المشكلات المتراكمة فى داخل بلادها

وقد يخطر لأحـــد أن مذاهب الهدم والـكراهية تشقى أناسا وتسعد آخرين.... فان كان المقصود انها تسعد الحاكمين بأمرهم فذلك صحيح. أما إن كان المقصود أنها تسعد الأيدى العاملة فليس أفشل من هذا الخـاطر بشهادة العيان

فقد اتسع مجال التجربة للطغاة الشيوعيين جيلا كاملا فماذا صنعوا ؟ وماذا أفاءوا على الطبقة الفقيرة من فلاحين أو صناع؟ جمعوا على رأسها من الذل والارهاق مالم يجتمع فى أمة حاضرة ، وجعلوا الدولة صاحبة رأس المال وصاحبة المرافق فى داخل البلاد وخارجها ، فأصبحت الطبقة العاملة من أجل ذلك محرومة حقها قِبَل رأس المال وأصبح الاحتجاج أو الاضطراب فى هذه الحالة تمردا على الدولة وخيانة عظمى يعاقب عليها بالموت أو بالسجن الطويل، وأصبحت السلطة التى يشكو منها العامل هى السلطة التى يشكو اليها . بل أصبحت روسيا كلهـا سجنا كبيرا لايباح الخروج منه ولا الدخول اليه إلا كما يباح الدخول والخروج فى السجون

ولا يكتم الشيوعيون هذا الاخفاق الذى لاسبيل إلى كتمانه ، فهم يعترفون به ويردونه إلى كل سبب غير سببه الصحيح ، وهو سخافة المذهب الذى يجعل تاريخ الانسان كله تاريخ « بنك » أبدى لا محل فيه لغير أطوار النقد وأسعار المصارفات ، ولن يفقهوا هذا ولن يرجعوا عنه . لأن المسألة عنـدهم مسألة شهوة لامسألة فـكرة ، وهى فى قلوبهم حقد على المحسودين وليست رأفة بالمحرومين . وسيمنّون أنفسهم مااستطاعوا أن ينهزم العالم ويتضعضع فيتاح لهم الأمل المنشود ، ويدركوا يومئذ مالم يدركوه بعد الحرب المـاضية التى خرج منهـا الظافرون وهم متماسكون غير مضعضعين

* * *

ولهذا نقول أن قضية العالم هى انهزام المانيا وانتصار الدول الديمقراطية

وكما نقول أن كل نتيجة دون هزيمة المانيا لاتكفى ، نقول كذلك أن كل نتيجة دون انتصار الديمقراطية لا تكفى . لأن الشيوعيين والمستبدين هم المستفيدون دون غيرهم من هزيمة الديمقراطية أو من انتصارها على أعدائها انتصارا لا تحميه

* * *

إن النازيين يتقربون الينا نحن الشرقيين بحجة غريبة ، ويتقربون الى الأمم الأخرى بحجة أغرب وأدعى الى الريبة

أما الشرقيون فيذكرون لهم الشكايات التى يشكونها من الدول الديمقراطية ، والقضايا الوطنية المعلقة بين تلك الدول وبعض الشعوب العربية والشرقية

ومهما يكن من شأن هذه القضايا والشكايات فمما لانزاع فيه أن المرء لايحمد جراثيم السل لأنه يشكو الزكام ، ولا يرضى بصولة النازيين وطريقتهم فى حكم البولونيين والتشكيين والنمسويين والهولنديين وأبناء الشمال ، لأنه يلقى ما يسوءه من الدول الديمقراطية

فان الفرق لبعيد جدا بين من ينكر الحرية أصلا وفصلا وبين من يعترف بها ويماطلك فيها ، أو يخالفك فى مقدارها

ولا أمل على الاطلاق فى حرية أو رخاء مع النازيين ، ولا يأس على الاطلاق من بلوغ الحرية والرخاء مادامت للديمقراطية حجة قائمة

* * *

ما من شرقى يرضى للشرق بما دون الانصاف الشامل والحقوق الوافية ، وسيبلغ أبناؤه لا محالة ما يتوقون اليه من انصاف ومنعة بفضل الجهود التى يقوم بها رجال كل بلد على حدة ، وفضل الجهود التى يتعاون عليها رجال الأمم العربية كافة . فمطلب الحرية والانصاف لأمم الشرق مطلب مفروغ منه ، ولا جدال فيه

إلا أننا حين ننظر الى النزاع الاوربى إنما ننظر الى المسألة من جانب الموقف الحربى والسياسة الخارجية ، وهى لا يمكن أن تكون إلا على وجه من وجوه ثلاثة : أن تقف الأمم الشرقية وحدها ، أو تقف الى جانب النازيين ، أو تقف الى جانب الحلفاء

فالوقوف وحدها فى حومة هذا النزاع العالمى لا يتأتى . اذ ليس فى أمم الشرق الأدنى أمة أقوى من فرنسا وهى لم تستغن عن المعونة الانجليزية ، ولا أقوى من بريطانيا العظمى وهى لم تستغن عن المعونة الفرنسية

وحسبنا أن نتخيل تركيا وقد وقفت أمام الروسيا وألمانيا ونظرت الى خلفها فلم تجد من يحمى ظهرها و يملك العدة اللازمة لنصرتها . فماذا يسعها أن تصنع ؟ وماذا يكون المصير إلا أن يطغى الروس والألمان ومن معهم على كل أرض فى طريقهم ليقتسموها أو يقتتلوا عليها ؟

بقى الوقوف الى جانب الحلفاء أو الوقوف الى جانب النازيين ، ولا تردد فى المفاضلة بين الموقفين : قوم يسلمون الحق و يؤجلون موعده ، وقوم ينكرون كل حق لمن عداهم فى خيرات الدنيا ولا ينتظرون من الساميين خاصة الا الخضوع لسيادة الآريين ، بغير أمل فى الخلاص أو فى تبديل الحال ، إلا أن تتبدل الأجناس ... وهيهات !

فالأمم الشرقية لا تعرف مصيرا هو أولى بخشيتها واتقائها وضياع آمالها من مصيرها مع النازيين ، إذا ملكوا زمامها بوسيلة من وسائل الغلب والارهاب

* * *

أما الحجة التى يتقرب بها النازيون الى العالم مسوغين بها مطامعهم وملطفين بها من شرور عدوانهم فهى أنهم لا يصنعون اليوم إلا ما صنعه الانجليز والفرنسيون فى الاجيال الماضية ، فلماذا يجوز الفتح للانجليز والفرنسيين ولا يجوز للنازيين ؟

ولماذا تهنأ بريطانيا العظمى مثلا بالسيطرة العالمية ولا يغلبها النازيون عليها ؟

فاذا سلَّم العالم هذه الحجة وجب أن يطلّق الأمل فى التقدم والتفاهم والسلام أبد الآبدين ، وأن يجعل السيطرة العالمية قبلةً لكل دوله تشعر بالقوة وتعتز بالعدد والعدة : يوم للالمان ويوم للروس ويوم للطليان ويوم لأهل اليابان أو الصين أو من شئت من البلاد ، ولا راحة للدنيا فى هذا الرجراج الصاعد الهابط بين قوم قد استعدوا وقوم يستعدون ، أو بين عدة أقوام مستعدين فى جيل واحد . . . وذلك هو الجحيم بعينه للظافرين والمظفور بهم أجمعين

والحقيقة أن السيطرة على العالم خرافة أغبياء وستظل خرافة أغبياء إلى آخر الزمان

والناس لا يملكهم واحـــــد
مهما علا فى ملكه واستطال

كما قلنا فى توديع غليوم الثانى الذى ركبه الغرور قبل ربع قرن كما ركب الهتلريين فى هذه الأيام

فالدنيا لاتسودها دولة فى العصور الحديثة وان تسودها دولة فى العصور المقبلة ، وما سادتها بريطانيا العظمى فى أيامنا هذه ولا فى أيامها الماضية . وأحرى بالمستقبل أن يجرى على سنة أقوم من هذه السنة مادام للحضارة معنى وللمصالح المشتركة قدرة على كبح من يعدون عليها ، طغياناً فى سبيل الفتوح ، أو إيثاراً لمصلحة دولة واحدة على المصالح جمعاء

والأمم التى تدخل فى الدولة البريطانية إما مستقلة كافريقيا الجنوبية وكندا واستراليا وزيلاندة الجديدة ، وربما كان سلطانها على لندن أكبر من سلطان لندن عليها

وإما تابعة كالمستعمرات الافريقية وما شابهها وليست سيادة الانجليز لها دليلا على سيادتهم للعالم ، لأن البلجيكيين والاسبانيين يملكون مثلها . ولا ينفع

النازيين عند هذه الأمم أن تُجلى الانجليز عن أرضها . فانها متى استطاعت اجلاءهم فلن تفعل ذلك لتركع تحت أقدام النازيين ، وتقبل السيطرة ممن يحسبون الأمم الافريقية فى زمرة القرود

و بين الأمم المستقلة والأمم التابعة أمم كأهل الهند يتقدمون فى طريق الاستقلال، وقد تكون للنازيين مصلحة فى الحلول من أهل الهند محل الانجليز... ولكن ما هى مصلحة أهل الهند ؟ وما هى مصلحة العالم ؟ وما هى مصلحة الأمم الغالبة أو الدول المغلوبة ؟ وما هى مصلحة الأمم الواقعة فى الطريق ؟

على أننا لم نذكر الهند لنقرر هذه الحقيقة . فهى غنية عن التقرير ، وانما ذكرناها لنقول ان الحالة الحاضرة فى الهند لا ترجع إلى العوامل الخارجية كما ترجع إلى العوامل الداخلية ، وان بريطانيا العظمى لو رفعت يدها اليوم عن تلك البلاد لما زالت جميع الحوائل بينها و بين قيام الحكومة الوطنية الشاملة ، ولا قاربت الزوال

فهناك الأمراء الحاكمون فى ولاياتهم وهم لا يتفقون ولا يرضون أن يحكمهم مجلس فى عاصمة بعيدة عن عواصم الامارات

وهناك المسلمون وهم كثرة فى بعض الأقاليم وقلة فى بعض الأقاليم الأخرى ، ولو شملتهم حكومة واحدة لأصبحوا قلة ضائعة فى جميع الأقاليم

وهناك المنبوذون وهم عشرات الملايين ينظر اليهم البراهمة نظرتهم إلى الرجس الذى يفرقون من ظله ، ولا خير لهم فى حكومة تضعهم هذا الموضع وتهملهم هذا الاهمال

وهناك اختلاف الأقاليم فى الأجناس واللغات والأديان وعناصر الثروة ومعادن التربة الزراعية ، مما لا يجتمع نظيره إلا فى قارة من القارات الكبار

فمسألة الهند العضال ليست مسألة السيادة الخارجية وحدها ، سواء كانت

عالمية أو مقصورة على بعض أجزاء العالم ، إذ لو فرغت كل سيادة عالمية فى الدنيا لما فرغت المسألة الهندية ، بل لعلها تبدأ يومئذ من جديد

وانما المسألة فى الهند انها محتاجة إلى الانجليز كاحتياج الانجليز اليها ، وانها لاتخسر إذا حالفت الانجليز محالفة استقلال وكرامة ، كما تخسر إذا انفصل الفريقان دفعة واحدة

فالعلاقة الوحيدة الصالحة للتوفيق بين أمتين فى زماننا هذا هى علاقة المصالح المشتركه والمعونة المتبادلة ، ولو كانت بريطانيا العظمى أقوى مما هى اليوم اضعافا مضاعفات لما استطاعت أن تقيم علاقاتها مع الأمم المتصلة بها على غير هذا الأساس

أما السيطرة على العالم فى زماننا هذا فأوجز ما نقول فيها انها خرافة أغبياء ، وأنها قد بطلت اليوم كل البطلان ، ونرجو أن يكون بطلانا سرمديا لارجعة فيه

* * *

وهنا مفترق الطريقين فى قضية اليوم :

طريق الايمان بالقوة الحيوانية تبقى اليوم كما كانت بالأمس وتبقى إلى آخر الزمان كما كانت فى أول الزمان ، فلا تبديل لها ولا رجاء فى التبديل ولا خير فيه لو كان إلى تحقيقه سبيل ، وسيسود القوى العالم وينبغى أن يسوده وأنفه راغم . ولا عبرة بما يتعلل به طلاب المثل العليا من الآمال والأحلام

وهذه طريق النازيين

وطريق الايمان بشريعة فى الحياة غيرشريعة القوة الحيوانية : وهى شريعة الحق والانصاف والأمل فى تقدم الانسان إلى سنن فى المعاملات بين الأمم والافراد وراء سنة الكهف والغابة

وهذه طريق الديمقراطيين

ويقول النازيون أن شريعة القوة حقيقـــة لا ريب فيها ، وأن الانسان لا يغالط نفسه فى وجودها إلا لعلةٍ على حد قول أبى الطيب . فالدول الديمقراطية تنادى اليوم بشريعة القوانين والعهود وتنكر سياسة البطش والارهاب لأنهـا شبعت وامتلأت فلا حاجة بها إلى مزيد من السطوة والسيادة ، والأمم الضعيفة تنادى بشريعـة القوانين والعهود لأنها تطمع فى المساواة بينها وبين الأقوياء على أحكام هذه الشريعة

وكل ما يقال عدا ذلك فهو أكاذيب وأوهام

وعندنا أن هذا القول على فرض صحته لن ينفع النازيين ولن يشفع لهم بين يدى العالم . فاذا كانت المسألة كما يقولون مسألة مصلحة وليست بمسألة حق ، فقد كفى خذلانا لقضيتهم أن تـكون مصلحتهم هم ومصلحـة العالم نقيضين ، وأن يكون نجاحهم أول خطوة فى خذلان من عداهم من شعوب الدنيا ، حتى شعوب الدول التى تدين بالقوة ولا تدين بالعـدل والانصاف ، فان نجاح النازيين يضير تلك الشعوب كما يضير الدول الديمقراطية الـكبرى ويضير المستضعفين

على أن المسألة هنا ليست مسألة مصلحة وحسب كما يقول النازيون . فشريعة القوة وشريعة الحق موجودتان لاشك فيهما ، والخصومة بينهما قائمة على أمور مشهودة وليست قائمة على أوهام وأكاذيب ، واحتياج الحق إلى القوة لا ينفى هذه الحقيقة ، لأن القوة أيضا تحتاج إلى الحق فى عملها وفى دعواها

ونحن لا ننكر شريعة القوة والارهاب وننصر شريعة العدل والقانون لأننا أمم ضعيفـة تحسب حساب مصلحتها كما يقول النازيون ، بل نحن ننـكر تلك وننصر هذه لأن بينهما فرقا صحيحاً بل فوارق جمة فى جميع الأمور : فوارق يجب أن يحرص عليهـا القوى كما يحرص عليها الضعيف ، ويظهر أثرها فى الضمائر

والأخلاق والعقول كما يظهر فى المرافق التى تتناولها السياسة خارجيـة كانت أو داخلية

وفيما يلى تلخيص بعض هذه الفوارق التى تدعونا إلى تفضيل شريعة القانون على شريعة القوة ، أو تفضيل الديمقراطية على النازية وما اليها . سواء بلغنا شأو القوة العسكرية أو قنعنا بما نحن فيه

بداية القضية

إن قضية الحرية الانسانية لم تُطرح للفصل فيها اليوم فى إبان الحرب الحاضرة أو أثناء الأزمات المتعاقبة التى تقدمتها

ولكنها طُرحت للفصل فيها منذ بضع عشرة سنة ، أى من اليوم الذى تصدّى فيه المستبدون للحكم وهم يعلنون جهرة أنهم يستبدون لأن الاستبداد فى الحكم هو الواجب وهو الصواب ، وأنه هو النظام المفضّل على نظام الحرية فى كل شعب وفى كل آونة ، ولم يقولوا كما كان يقال من قبل أن الاستبداد ضرورة موقوتة الى أيام معدودة ، ثم تعود الحرية الى مجراها وترجع الشعوب الى شوراها

يومئذ بدأت قضية الحرية الانسانية فى القرن العشرين ، ووجب أن يتوقع الناس النهاية من تلك البداية

وبدا لنا يومئذ أن نعالج الموضوع من نواحيه القريبة الينا عسى أن ننبه ولو الى بعض الخطر ، وأن نجلو ولو بعض الشبهات . فكتبنا رسالتنا عن « الحكم المطلق فى القرن العشرين » وصدرناها بفصلين نعيدهما فى هذا المقام ونحن نقارن بين الاستبداد والحرية ، لأن وجه المسالة لم يتغير بين أمسه ويومه ، ولم تزل

الدعاوى هى الدعاوى والآراء هى الآراء ، سواء من جانب الحرية الانسانية أو من جانب الطغيان

بدأنا الرسالة بفصل سألنا فيه : « هل فشلت الديمقراطية ؟ » ثم أجبنا السؤال بفصل تال عنوانه « لم تفشل الديمقراطية » . . . وهذان هما الفصلان ننقلهما توطئة للمقارنة التى سنعقدها بين الديمقراطية والنازية على النحو الذى تمثل فى النزاع الحاضر ، ونرجو أن نصل بذلك بين بداية القضيه قبل بضعة عشرة سنة و بين أعقابها التى استطردت اليها فى هذه الآونة

هل فشلت الديمقراطية

كان الاستبداد المطلق مقدساً فى زعم رجال الدين الذين كانوا يستعينون به على حفظ مكانتهم وقضاء مآربهم ، وكان هو يستعين بهم على تقرير نفوذه وشمول سلطانه على الضمائر والأجسام ، وكان لحق الحكم مصدرٌ إلهىٌ يتلقاه الحاكم المستبد من السماء فلا يُسأل عنه ولا يكون للشعب إلا أن يطيعه كما يطيع خالقه ، ويؤمن بحكمته التى تخفى عليه كما يؤمن بأسرار حكمة القدر . فالحكومة رسالة سماوية معصومة على هذه الارض الخاطئة ، والشك فى الحكومة كالشك فى العقيدة . . . كلاهما كفر يعاقب عليه بالحرمان السرمدى من رحمة الله

كان هذا هو مصدر الحكومة المستبدة الى ماقبل القرن الثامن عشر . وكان الايمان به عاماً شائعاً لا يشك فيه إلا أفراد معدودون من أحرار الفكر يخفون آراءهم كما يخفى المجرم جريمته والآثم وصمة عاره ، فلما انتقل سلطان الحكم من المستبدين الى مشيئة الشعوب انتقلت القداسة معه الى المصدر الجديد ، وأصبح حق الحكم مقدساً — مرة أخرى — من طريق الشعب لا من طريق الصوامع والكهان . وتغيّر النظام القديم ولم يتغير قالبه الذى صنعته العادات المتأصلة والمصالح المتشعبة والعقائد الموروثة

وربما بدأت هذه القداسة الشعبية على سبيل المجاز فى التعبير يلجأ اليه دعاة النظام الحديث للمقابلة بين أساس الحكومة الغابرة وأساس الحكومة الحاضرة ، ثم أضيفت الى هذا المجاز حماقة الفكرة الناشئة وروح الأمل فى المستقبل ، والنقمة

على الماضى . فأصبحت القداسة الحديثة عقيدة فى الضمير يشوبها من الابهام كلُّ ما يشوب العقائد التى تستعصى على متناول العقول

أصبحت الديمقراطية عقيدة مقدسة فى العرف الشائع فجاءها الخطر من هذه الناحية فى عصر الشك والسخرية من جميع « المقدسات » . . . وسمع الشاكّون والساخرون بهذه « المقدسة » الجديدة فعلموا أن هناك شيئا طريفا يظهرون فيه براعة التفنيد وقدرة التصغير والتقييد ، فأسرعوا اليه فى جد ووقار ، وأعنتوا أنفسهم كثيراً ليقولوا ان الديمقراطية شىء لم يهبط على الارض من السماء وأن القداسة هنا مجارّ لاحقيقة له فى العلم والاستقراء ... فكان الجاحدون لقداسة الديمقراطية والمؤمنون بتلك القداسة المنزهة عن الشوائب بمنزلة واحدة من الفهم والسداد ، لأن قداسة الديمقراطية لم تكن مسألة علمية يبحثها الناقدون المحصون على هذا الاعتبار من جانب القبول أو من جانب الانكار ، فالذين يضعونها هذا الموضع ينظرون اليها من أضيق حدودها التى يعرفها المجازيون والجهلاء ولا ينظرون اليها من أوسع الحدود التى يحيط بها من يعرف حقيقتها ويقيسها بمقياسها الصحيح . وإذا كان المتكلم الذى يقول ان الماء العذب شهد حلو المذاق مخطئاً فى صيغة التعبير العلمى فأشد منه امعانا فى الخطأ والغفلة عن الحقيقة من يحمل الماء العذب إلى المعمل الكيمى ليثبت أن الماء ماء وليس بشهد حلو المذاق ، كما يقولون فى لغة المجاز

* * *

فى أواخر القرن التاسع عشر ظهرت « السيكولوجية » أو علم النفس وتفرعت فروعه وكثر الاشتغال بتطبيقه على الأفراد والشعوب

ولعل أغرب ما استغر به الناس من قضايا هذا العلم وصفه لأطوار الجماعات والأساليب التى يُجرى عليها فى تكوين عقائدها وتوجيه أهوائها وتسيير

حركاتها واثارة خواطرها . فقد جاء هذا الوصف بعد شيوع الديمقراطية فى العالم الحديث بأكثر من جيلين ، فلاح لمعظم الناس كأنه غريب وكأنه مخالف للمقرر فى الأذهان أو لما يجب أن يتقرر فى الأذهان ! ولو أنه جاء قبل ذلك بمائتى سنة أو لو انه تقدم فى عصر الاصلاح مثلا لما وقع من الافكار موقع الغرابة فى شىء ولا أحاط به ذلك السحر الذى يحيط بكل هجمة مخالفة للمألوف ، ثم لجاءت الديمقراطية حتما فى سياقها الطبيعى دون أن يتخيل إلى أحد أن حقائق علم النفس تعارض الحكم الديمقراطى أو تعارض حكم الشعوب . لأن الديمقراطية كانت نتيجة لازمة لفساد حكم الاستبداد ولم تكن نتيجه لجهل الناس بالسيكولوجية وخطئهم فى تفسير حركات الجماعات . فلو علم الناس فى القرن الرابع عشر أو الخامس عشر أن حركات الشعوب غير مقدسة ولا منزهة عن عيوب الطبيعة البشرية لما كان ذلك مانعا لوقوع تلك الحركات فى أوانها ولا واقياً للأنظمة العتيقة من التداعى والسقوط . ولكن «السيكولوجية» ظهرت بعد الديمقراطية فنشأت غرابتها من ثَمَّ وكان استغراب الناس اياها وهما متولداً من الوهم القديم الذى تطرق اليهم من تقديس الشعب بعد تقديس العواهل المستبدين . فلولا الخرافة الداثرة خرافة المستبدين الالهيين لما وجدت خرافة الشعوب الالهية ولا اتُّخذت أطوار الجماعات التى استعرضتها مباحث العلماء النفسيين دليلا على بطلان الديمقراطية ، ولا قيل ان نظامها قائم على أساس واهن لأنه قائم على مشيئة الشعوب وهى مشيئة لا توصف بالعصمة . وقديما عرف الناس من أطوار الأفراد أنهم يطمعون ويستأثرون وأنهم ينقادون للهوى ويخضعون للشهوات وأنهم عرضة للخطأ الكثير والضلال البعيد وأنهم غير معصومين بحال ، فلم يكن هذا العلم بأطوار الأفراد هو الذى قضى على حكومة الفرد ، ولم تتقوض النظم الأولى الا حين تعذر التوفيق بينها وبين أحوال الرعايا ومطالب الأمم .

***

لم تنقض على الديمقراطية سنوات حتى خيبت آمال الحالمين فيها وخيبت آمال أولئك المظلومين الذين صوروا زمانها المترقب فى صورة الفردوس الأرضى أو العصر الذهبى الذى تغنّى به الشعراء وتحدثت به الأساطير . فلا ظلم ولا اجحاف ولا تمييز بين القوى والضعيف أو القريب والبعيد : كأنما صوت الشعب المنطلق من غيابات الأسر نغمة ساحرة كنغمات « أورفيوس » يتجاور فى سماعها الليث والحمل والضاريات والنقاد ، ومتى كان كل هذا منتظراً من الديمقراطية فلا جرم يخيب فيها الظن ويحكم عليها الحاكمون بالفشل بعد أول صدمة مع وقائع الحياة وعثرات التجربة الأولى ، وهى لا تخلو من النقائص ولا تسلم من الاضطراب

فلم يكن أقسى على الديمقراطية ولا أظلم لها من غلاة المؤمنين بها الذين كانوا يكلفونها ماليس يكلّفه نظام فى هذه الدنيا . أيةً كانت قواعده من الصحة ، ونيات القائمين به من الصلاح

هذه كلها أسباب يصح أن تسمى بالأسباب المصطنعة للشك فى حقيقة النظام الديمقراطى والأخذ فيه بالعرض دون الجوهر المقصود

على أنها ليست بجميع الأسباب المصطنعة التى يمكن أن تعدد فى هذا المقام . فهناك أسباب مثلها دعت إلى الشك فى حكومة الشعب قلما تتجاوز العرضيات إلى دخائل الأمور... فمنها أن عيوب الحكومة الشعبية مكشوفة ذائعة لاستفاضة علاقاتها واشتراك المئات والألوف فى دعواتها وأعمالها . فليس لها حجاب من الفخامة والروعة كذلك الحجاب الذى كانوا يسترون به عيوب الحكومات المستبدة ويتعاون فيه الكهان والمداح والبلاطيون على التمويه والتزويق ، وخليقٌ بهذا التكشف أن يغض من فضائلها بعض الشىء

وان مجرد القول بان الشعوب لا تصلح للديمقراطية لدليل على أنها درجة عالية يجب أن تتوجه اليها آمال المصلحين وطلاب الكمال ، فى حين أن القول

بجهل الشعوب واضطرارها من أجل ذلك إلى الحكم المطلق دليل على مصلحة الحكام المطلقين فى بقاء ذلك الجهل وتخليد هذه الحالة التى بها يخلدون

ومما يضعف جانب الحكام المطلقين فى دعوتهم هذه أنهم يعيبون على الجماهير أطوارها ليتخلصوا من ذلك إلى تزكية الحكم الدكتاتورى أو الحكم المطلق ... مع أن التجارب الكثيرة — والتجارب الحديثة منها على الخصوص — قد أظهرت أن الدكتاتورين الصالحين هم رجال الشعوب وثمرة تلك الأطوار ، وأن الجماهير لا تعوزها البديهة التى تفطن بها إلى مقدرة القادة وتوليهم إعجابها وتخصهم بثقتها واقبالها وتسلمهم زمامها حتى حين يجترئون على عاداتها التى تغار عليها وتغضب للمساس بها إذا مسها من ليست له تلك القدرة وذلك الاعجاب . فاذا احتاجت الجماهير إلى المصلح النافذ فى اصلاحه فليس أقدر على هذا المطلب من زعيم شعبى تبرزه البديهة الشعبية ، ولا أسرع منه فى حث غريزة الامم ومغالبة ما فيها من العيوب ، وكأن هذا المصلح هو الزوج المحبوب الذى يطاع لأن طاعته سرور ويقاس مقدار حبه بمقدار المشقة التى تبذل فى اطاعة أمره . وقد يكون الزوج زوجا بالصيغة الرسمية ولكنه لا ينال هذه المكانه ولا يأمن الرياء والخيانة إذا تكفلت له الصيغة الرسمية بالطاعة الظاهرة .

وعبث ولا ريب أن تعاب أطوار الجماهير وأن يقتصر الأمر فيها على النقد والزراية وهى هى الاطوار التى لازمتها فى كل ما تمخضت عنه الانسانية من الثقافات ، وفى كل من تمخضت عنهم من الدعاة والمصلحين

فأصلح الطبائع لاحياء الشعوب هى الطبائع التى بينها و بين الشعوب مجاوبة فى الشعور ومساجلة فى عناصر الحياة . وإذا كانت الشعوب تخطىء فى عرف العلماء فليس عرف العلماء هنا هو المقياس الذى يُرجع اليه فى تقدير الدوافع والنتائج ، لأن الطبيعة لا تستشير العلماء فيما تعمل وفيما تريد . بل ليس العلماء

أنفسهم بنجوة من الخطأ على حسب مقياسهم ، لأن أخطاءهم قديما وحديثا فى تصور الحكومات النافعة أكثر وأكبر من أخطاء الشعوب كلها مجتمعات .

للديمقراطية عيوبها ولكنها عيوب الطبيعة الانسانية التى لافكاك منها . وقد يكون لهذه العيوب فى مجموع الحضارات الانسانية فضل كفضل المحاسن المصطلح عليها إن لم يزد عليه

ولا تقارن الديمقراطية بحكومة المثل الأعلى المنشودة فى الخيال والموصوفة فى الاحلام . إذ هذه الحكومة لا موضع لها فى عالمنا ولن يكون لها موضع . ولكنها تقارن بالأنظمة الأخرى فى جملتها وُينظر الى عيوبها بصدق واخلاص وتقدير لجميع الظروف

فلعل هذه العيوب بعض لوازم الحسنات التى لا يستغنى عنها أو لعلها طارئة يزيلها المزيد من الديمقراطية . . . إذ كان من المحقق أن محاربة الديمقراطية لم تزلها فيما مضى ولا يرجى أن تزيلها فيما بعد

وكذلك لا يصح أن نقيس الديمقراطية بمقياس الأغراض التى أعلنها دعاتها والآمال التى عقدوها عليها لان هؤلاء الدعاة لم يخترعوها ولا يتأتى لهم أن يحصروها و يسيطروا عليها — و إنما تقاس مزاياها بالضرورات التى أدت اليها أولاً ثم بالفوائد التى نجمت عنها فعلا ولا تزال تنجم : فهى بلا ريب قد أوجدت للعصبيات الحزبية مخرجا غير الفتن الدموية ، وأقنعت الشعوب بأن عليها تبعة فى الحكم وأنها قادرة على تبديل الحكام ، فضعفت فيها نزعة الثورة بقدر ثقتها من الاشتراك فى الحكومة والقدرة على تبديلها ، وهى فى مدى خمسين سنة قد صاحبت فى عالم الصناعة والعلم تقدما لم تبلغه الانسانية فى خمسين الف سنة ، وكلما ازداد هذا التقدم صعب على الناس أن يؤمنوا بتلك الخرافة التى كانت تهيىء لفرد واحد أن يملكهم له ولابنائه عن بعده ملك السيد للعبيد .

* * *

يقول بعض الباحثين — (ومنهم الاستاذ سارولیا الذى ألقى محاضراته فى هذا الموضوع على طلبة الجامعة المصرية) — إن الحكم النيابى تراثٌ انجليزى غير قابل للتعميم فى الأمم الأخرى . ويضرب « سارولیا » المثل بالأمة الفرنسية التى لا تستقر فيها الوزارات طويلا لاختلاف الأحزاب وصعوبة التوفيق بينها إلى زمن طويل، ويعتبر ذلك الاختلاف من أعراض الحكم النيابى ومن الدلائل على أنه لا يصلح لكل أمة... ولو كان الحكم النيابى هو الذى خلق العصبيات الحزبية فى فرنسا لكان قول الاستاذ وأمثاله صحيحاً فى هذا المعنى وكانت فيه حجة من بعض الوجوه على الحكومة النيابية ، ولكن الواقع أن العصبيات الحزبية لم تفتأ تمزق فرنسا كل ممزق فى عهود حكامها المطلقين ، ولم يخلُ جيل واحد فى تاريخها من فتنة على وراثة العرش أو فتنة على المذاهب الدينية أو فتنة على القحط والافلاس أو نزاع بين التاج والنبلاء أو حروب تثار لاخفاء هذه المنازعات ، حتى توطدت فيها الديمقراطية فانحصرت « العصبيات » فى مناوشات الأحزاب وسكنت الثورات وبطلت المجاعات ، ولم يمنعها اختلاف الأحزاب أن تتماسك بعد الحرب العظمى وأن تستفيد من سمعة الديمقراطية أنصارا لا ينكر افادتهم لها منكر ، وأن توسع مستعمراتها وقد كانت تفقدها فى عهد الملوك الشموس ، وأن تكون هى وزميلاتها المنتصرات عنوانا لانتصار الحرية الشعبية وآيةً على أن حكومات الشعوب تحتمل من الصدمات ما لم تحتمله حكومات القياصرة والطغاة . فانكسرت الروسيا والنمسا وألمانيا وكان نصيبهن من التماسك بعد الحرب على قدر نصيبهن من الحرية والمشاركة فى الشئون العامة بين الشعب والحكومة ، وخرجت الأمم من تلك المحنة بعبرتها التى لا تضيع

وقد فعل تراث الحكم النيابى فعله فى انجلترا كما فعل فعله فى الأمة الفرنسية ، فوقاها الثورات والخصومات الداميـة وكانت وشيكة أن ترتطم فيها مرتين فى

القرن التاسع عشر عند الخلاف على تقسيم الدوائر الانتخابية وتعديل شروط الانتخاب ، وهو فى جوهره أشد من الخلاف الذى أفضى إلى الثورة الجائحة فى عهد الاستبداد

ومن النظريات التى أذاعها بعض المؤرخين — وفى طليعتهم فلندرس بترى العالم المشهور فى الأثريات المصرية — أن الحكومة الشعبية كانت هى الدور الأخير من أدوار الدول فى التاريخ القديم ولا سيما تواريخ الدول المصرية : يبدأ الدور بفاتح عظيم ثم يضعف الفاتح العظيم فينازعه الحكم أفراد القادة الغالبون ، ثم يضعف هؤلاء القادة ويستسلم أبناؤهم للترف والصغائر فتثور عليهم العامة وتتولى الأمر الحكومة الشعبية ، ثم يسطو عليهم مغير جديد فيبدأ الدور الأول كرة أخرى... وهكذا دواليك عصراً بعد عصر فى سجلات الفراعنة ومن جاورهم من المشارقة والمغاربة .

فاذا صح هـذا فهو مختلف مما نحن فيه اليوم . لأن الحكومة الشعبية كانت فى التاريخ القديم فترة منفردة تقع فى إحدى الدول ثم لا تكون الدول المحيطة بها مجارية لها فى تلك الفترة ، بل ربما كانت فى بداية الدور الأول — دور الفاتح العظيم — فتحدث الغارات من ثَمَّ وتتجدد الأدوار . أما اليوم فالحكومة الشعبية حركة عامة ومبدأ مشترك وليس بالفترة المنفردة ولا بالدور المقصور على بعض الحكومات !

لم تفشل الديمقراطية

لم تفشل الديمقراطية ولا ظهر إلى الآن من آثارها وعلاماتها الا ما يدل على نجاحها وثباتها وانها ستكون أساساً للحكم فى المستقبل تُبنى عليه قواعد الحكومات ويرجع اليه فى اصلاح كل مايحتاج منها إلى الاصلاح

أما تلك الأسباب المصطنعة التى ألممنا بها فأكثر من يتعلق بهـا ويعمل لترويجها هم أنصار الحـكم المطلق والرجعة إلى الاستبداد القديم ، وهم أقل الناس حقاً فى تجريح الديمقراطية بعد ماتبين من فشل حكمهم فى بلاد كثيرة وأحوال مختلفة . فاذا بطل ايمان الناس بقداسة الديمقراطية — مجازاً أو حقـا — فمن المقرر المقطوع به أنهم لايرجعون إلى الايمان بقداسة المستبدين وما يزيفونه من الدعاوى والجهالات ، واذا قيل ان الجماهير تنخدع للزعماء وتؤخذ بالمظاهر وتستمال إلى العقائد التى تُبث فيها بالايحاء والتكرار فهـذه الأطوار لم تـكن ملغاة فى العصور الماضية ولا كان شأنها ضعيفا فى تصريف الأمم وقيـادة الحـكومات . وماذا كان يصنع المستبدون طوال العصور المـاضية إلا أن يستعينوا على خداع الجماهير تارة بالخرافات والأوهام وتارة بالمظاهر والوجاهات والألقاب والأسماء وتارة أخرى بالعطايا والمواعيد إلى سائر ما هو معروف من أساليبهم فى تمويه الأعمال وإخفـاء الحقائق والتحيـل على الغرائز والشهوات . ولو أحصيت الحروب التى أريقت فيها دماء الألوف من المحاربين والمسالمين خداعا للشعوب وتمليقها لها ، أو لو

أحصيت الأرواح البريئة التى أزهقها أعداء الحرية والمعرفة ، أو لو أحصيت الثورات والقلاقل التى شجرت بين الحكام والرعايا من أجل المظاهر والأسماء والمنازعات الصبيانية والدعاوى الفارغة ، أو لو أحصيت الدسائس والجرائم التى انغمس فيها طلاب الحظوة وأعوان الطغيان لكان فى بعض ذلك شاهد على حقيقة من تنفعهم غفلة الجماهير ومن يضرهم انتباهها ، وأن تلك الغفلة لم تدم كما دامت فى عهود المستبدين ، ولم تفد أحدا كما أفادتهم ، ولم يحذروا شيئا قط كما حذروا يقظتها ولا رغبوا فى شىء قط كما رغبوا فى بقائها واستطالتها . . . وانما الفرق بين الاستبداد والديمقراطية أن المجال يتسع فى هذه لأقوال شتى تنكشف الحقيقة من بينها ، ولكنه لا يتسع فى عهد الاستبداد لكل قائل ولا يصعب فيه التواطؤ على الغش والكتمان

ومن الأسباب المصطنعة أنّ نقد الديمقراطية يرضى غرور تلك الفئة التى تحب أن تتعالى عن « الشعبيات » لما فى ذلك من الامتياز والادعاء ، ويرسل على الديمقراطية ألسنة الثرائرة والفضوليين ومن لا ينظرون إلى عواقب الكلام

ومنها أنه المستبدين الطامعين فى رجعة الحكم القديم يسعون سعيهم سراً وجهراً لتشويه كل نظام غير نظامهم وتأليب الناقمين على الحكم الحديث ، ولابد فى كل حكم من راضين وناقمين

ومنها أننا فى زمن تتوالى فيه المخترعات ويسألون فيه أبداً عن أحدث الآراء وأغرب الأخبار . فاذا مضت خمسون سنة على الناس وهم يمدحون الديمقراطية فالذى يفاجئهم بعد ذلك بنقدها لا يعدم له سامعين بين طلاب الزى الطريف فى كل مجال

فأنت ترى أن نقد الديمقراطية يصادف من العناية أضعاف ما تستوجبه الأسباب الحقيقية التى لا دخل فيها للوهم والغرض والفضول . وأما الاسباب

الصناعية فما هى وما مبلغ ما تجيزه ؟ هى أشياء لا تجيز لأحد أن يحكم بفشل الديمقراطية ولا بأنها فى طريق الفشل القريب .

على أننا اذا قدرنا أن السنة القديمة تتكرر اليوم كما تكررت فى دولات الفراعنة وجيرانهم فكل ما يستخرج من هذه النظرية أن الحكم قد تعذر على الطغاة والقادة لعجزهم واضمحلالهم فصار الامر الى الشعوب تحكم نفسها الى حين . ويبقى علينا أن نسأل انفسنا متعجبين : هل يعقل اليوم أن هذه الحرية الشعبية التى وصلنا اليها ان هى إلا فترة موقوتة جاء بها وباء عام أصاب الطغاة والنبلاء فى مقدرتهم على الحكم دون الكافة والأوساط ؟ وهل نعود بعد زوال هذا الوباء الى عهد يكون فيه لنا طغاة مقدسون وملوك مستبدون عصيانهم حرمان من ملكوت الله ؟.. لقد كانت الديمقراطية بالأمس حكومة الشعب وكان الشعب هو العامة . أما ديمقراطيتنا فليس نصيب العامة فيها الاجزءا من سلطان الأمة ، وهى كلٌّ شامل يدخل فيه السوقة والسراة والامراء

* * *

انتهى الفصلان من رسالة الحكم المطلق فى القرن العشرين

ويوم كتب هذان الفصلان كان هتلر يوالى دعوته ويوحى بكتابه الذى لم يكن يقرأه أحد ، وكان بينه وبين ولاية الحكم أربع سنوات ، وبين اضرام الحرب الحاضرة إحدى عشرة سنة . فاذا كان قد أقنع الناس بشىء فى هذه الفترة فقد أقنعهم بخطر الاستبداد على العالم ، وأراهم أن المستبد حيث كان إنما يسخر الحضارة فى خدمة الهمجية ، وإنما ينكص بالخاضعين له من قومه ومن الأقوام الأخرى أحقابا الى الوراء

الفوارق بين الديمقراطية والنازية

فى التقدم

إن النازيين ينكرون التقـــدم ويدعون أن المضاهاة بين ماضى الانسان وحاضره فى عناصر الأخلاق تدل على الدوران فى حيز واحد ، ولا تدل على التقدم خطوة بعد خطوة ، أو الارتقاء درجة فوق درجة

وهـذا بحث يطول ولا يفضى بنا الى طائل فيما نحن بصدده . فحسبنا أن التهذيب جائز مشاهد فى طبائع الحيوان ، وأن تقدم الانسان فى علومه وصناعاته وآرائه محسوس لا يخفى الفرق الشاسع بين حاضره وماضيه

ولنضرب مثـلا واحدا على امكان التهـذيب فى طبائع الحيوان يغنينا عن أمثـلة كثيرة ، وهو مثـل الكلب الذى كان فى توحّشه أخوف ما يُخاف على الأطفال والطير وصغار الغنم ، فأصبح الآن حاميا أمينا لهـا يدفـع عنها المخاوف ويرعاها وهو جائع محروم

أما التقـدم فى عـلوم الانسان وصناعاته وآرائه وأحواله المـلابسة للعلوم والصناعات فهو أظهر من أن يحتاج الى تمثيل

* * *

ومقاييس التقـدم كثيرة يقع فيها الاختلاف والاختلال : فاذا قسنا التقدم بالسعادة فقـد تتاح السعادة للحقير ويحرمها العظيم ، واذا قسناه بالغنى فقـد يغنى

الجاهل و يفتقر العالم ، واذا قسناه بالعلم فقد تعلم الأمم المضمحلة الشائخة وتجهل الأمم الوثيقة الفتيه

إلامقياسا واحدا لايقع فيه الاختلاف والاختلال ، وهو مقياس «المسؤلية» واحتمال التبعة

فانك لا تضاهى بين رجلين أو أمتين إلا وجدت أن الأفضل منهما هو صاحب النصيب الأوفى من المسئولية ، وصاحب القدرة الراجحة على النهوض بتبعاته والاضطلاع بحقوقه وواجباته

ولا اختلاف فى هذا المقياس كلما قست به الفارق بين الطفل القاصر والرجل الرشيد ، أو بين الهمجى والمدنى ، أو بين المجنون والعاقل ، أو بين الجاهل والعالم ، أو بين العبد والسيد ، أو بين العاجز والقادر ، أو بين كل مفضول وكل فاضل على اختلاف أوجه التفضيل

فاحتمال التبعات هو مناط التقدم المستطاع

والنازية تهدم هذا الخلق من أساسه ، لأنها تقضى على الحرية والتصرف والاختيار ، وليس من المعقول أن تحاسب إنسانا على التبعات وهو مسلوب الحرية مأمور ، فيما يأخذ وفيما يدع ، من مطالب عيشه وواجباته نحو قومه

وقد ركدت القرائح فى ألمانيا منذ تولاها النازيون . فلم يظهر فيها نابغة فى العلم والفن والحكمة ، ولم يؤثر عنها ابتكار مفيد فى الثقافة العالية ، هذا وهى الأمة التى امتلأ تاريخها بأعلام الأدب والبحث والاختراع

ولقد شكا هذا الركود وزراؤهم وقادتهم وكرروا الشكوى مرات . . . فكتب الدكتور سيروب Syrup رئيس مصلحة العمل فى شهر مارس من سنة ١٩٣٨ يقول : « إن الجيل الجديد من رجال العلم ناقص فى جامعاتنا . ولا شك أن بناء الدولة والثروة معا يستلزم وشيكاً أن ينشأ المهندسون والكيميون وعلماء طبقات الأرض والطبيعيون والأطباء »

وربما خطر لبعضهم أن النازيين لا يكترثون لذلك النقص ما استطاعوا إخراج الضباط والجنود وتزويدهم بالسلاح

ولكن الواقع غير ذلك . فان التعليم الفنى لازمٌ اليومَ للضباط والجنود لزومه للمهندسين والصناع . وقد كتب الماجور التوماس فى صحيفة فرانكفورتر زيتنع يقول : « ان الاستاذ زيميك Zemeck مدير المتحف الجرمانى فى ميونيخ قد أشار فى آخر اجتماع لمكتب الريخ الاقتصادى إشارةً خاصة الى هبوط طبقة التعليم العالى بين الناشئة الالمانية ، ولا مناص لى من موافقته فى رأيه . اذ الخطر عظيم فيما أرى على قوة دفاعنا اذا انحصر نطاق التربية الذهنية وضاق أفق التفكير ، من جراء فرط الاهتمام بالتربية البدنية .

ومتى بلغ بالأمر أن يلحظه قادة الفرق والألوية فى جنودهم المدعوين للخدمة فما لاجدال فيه أنه يدل على ضعف ماثل فى نظام تعليمنا الآن »

وقد تخرج من المدارس العليا فى سنة ١٩٣٧ ثمانية عشر ألف طالب فالتحق منهم عشرة آلاف بخدمة الجيش وانقطعوا عن حياة الدرس والاستبحار فى العلوم[1] ولم يظهر أن الآخرين وجدوا متسعا لهم فى هذه الحياة

***

وسواء شكا القادة النازيون أو لم يشكوا ذلك النقص المطرّد فهو نقص لايستغرب من جيل مفتون بالمواكب والصفوف ، مشغول بالثكنة والطريق عن المكتبة والمعمل ، مشغوف بما يرضى الحواس الحيوانية دون ما يرضى الفكر والروح

ومتى نظرنا الى المبادىء التى يقوم عليها بنيان النازية لم نجد بينها مبدأ واحدا يستدعى التقدم وراء آداب الحيوان

---

(١) هتلر والمانيا لمؤلفه هنريخ هاوزر Hitler Versus Germany

فالطاعة العمياء هى طاعة السرب والقطيع ، وحركة الصفوف هى حركة الطيور والنمال ، والزعامة « الغريزية » أعرق فى الحيوانية من زعامة الارتياء والاختيار ، بل حتى التضحية العمياء لها مرجع الى غريزة الحيوان ، وليست هى من فضائل البصيرة والضمير

وما من عبث ولا مصادفة كان تقدم العلوم والصناعات فى العصر الحديث أعظم وأوسع من تقدمها فى جميع العصور

فمنذ نشأت الديمقراطية نشأت حرية البحث وحرية الكشف وحرية الابتداع . ولا عجب أن يخترع الناس فى مائة وخمسين سنة أضعاف ما اخترعوه فى مائة وخمسين ألف سنة ، لأن الاختراع وليد التصرف والاختيار ، وهما نبات يزكو فى عهد الحرية ولا يزكو فى عهود القسر والتسخير

* * *

الأخلاق :

والأخلاق « أولا » لا تفهم بمعزل عن المشيئة والاختيار ، فاننا لا نعرف آلة ذات خلق . وإنما تبدأ الأخلاق حين يبدأ الادراك والتكليف

وأنت تستطيع أن تقيم على ابنك حارساً يلازمه فلا ينسى واجبا ولا يهم برذيلة ، ولكنك لا تربيه بهذه الحراسة ، ولا تجعل له روحا ولا تمييزا كتمييز العقلاء بين ماينتهى عنه وما ينتحيه

وكذلك تربى الأمة هذه التربية فلا تنتفع بما ربيت فيها من عادة التسليم والاستسلام ، بل تقتل فيها فضيلة الاستقلال وتهيؤها للذل والخنوع ، وربما كان ذلها وهى تشكو السيد وتثلبه أشرف لها وأجدى عليها من الذل لسيد تهتف له وتحييه

وكثيرا ما نسمع التشهير والتجريس بالفضائح أو الرشاوى التى تنكشف فى الأمم الديمقراطية ويتخذها المستبدون دليلا على فساد أصيل فى النظام الديمقراطى والحكام الديمقراطيين

ويحق لابواق الاستبداد أن تطنب فى ذلك التشهير وذلك التجريس لو كانت الرشاوى والسرقات تمتنع فى دولة المستبدين ولا تحدث إلا فى دولة الديمقراطيين . بيد أن الواقع الذى لاجدال فيه ان سرقات الطغاة المستبدين فى جيل واحد تربى على سرقات الديمقراطيين فى جميع الأجيال

وإنما يجسر الناس على اتهام السارق فى عهد الحرية ولا يجسرون على اتهامه فى عهود الطغاة ، أو يجسر منهم من لايبالى بالمصير فيلقى جزاءه من حيث ينجو السارق بما سرق ، وذلك أحرى أن يحسب للديمقراطية من المزايا ولا يحسب عليها من العيوب

وما يزعم أحدٌ أن « النظام الديمقراطى » يقتلع الرذائل من الطبائع البشرية ويتركها وليس فيها إلا الفضائل والحسنات

فهـــذا ما ليس يزعمه زاعم فى نظام من أنظمة الحكم كيفما كان، وغاية ما هنالك أن الديمقراطية تكشف رذائل الحكام ولا تحميها كما تحميها سطوة المستبدين ، وهذا وحده غنيمة جديرة بالذب عنها والحرص عليها

على أن الأموال التى أنفقها هتلر فى تشييد قصوره السحرية وتنظيم حراسته الشخصية ، والأموال التى فرضها على كل قارىء المانى ثمناً لكتابه تارة وثمنا لصحفه تارة أخرى ، لتبلغن أضعاف ما اختلس حاكمٌ ديمقراطىٌ أو عدة حكام ديمقراطيين فى عمر طويل ، وهو مع ذلك معدود فى عرفهم من أمثلة النزاهة والعفاف !

ولا يخفى أن الحرية ليست بأرخص من المال ، وأن جميع الحكام المستبدين

يسلبون الحرية ، وليس جميع الحكام الديمقراطيين يسلبون الأموال

كذلك لا يخفى أن القتل جريمة أقبح من السرقة وأوبل منها ، وهو شيء يقترفه الحاكم المستبد حيث شاء

قتل فى المانيا ألوف من الناس ولم تحفل الحكومة باثبات الذنب على واحد منهم ولو بعد نفاذ العقاب ، مع سهولة الاثبات لمن يقبض على أعنة الدواوين بغير رقيب

وإنما رخصت الأرواح وشاعت الغفلة فأمكن هذا حيث يحسبون اختلاس الأموال من المستحيلات

ومنذ خمس سنوات قتل المستشار النمسوى دلفوس فكتب النازيون يومئذ يقولون إنه شهيد الماركسيين ، وقال فون پاپن سفيرهم فى فينيا «إن حكومة الريخ تنعى الجريمة وتأسف لوقوعها »

وما هو إلا أن سقطت النمسا فى أيدى النازيين حتى احتفلوا بتكريم ذكرى القتلة وقام رودلف هس ينادى علانية « بأننا نذكرهم فى اليوم الذى سيق فيه هؤلاء الثلاثة عشرة من نخبة الزملاء إلى الموت المهين على المشانق الزرية ، وأن أطيافهم لتمشى فى مقدمة الصفوف حيث مشت فى الدنيا جموع النازيين »

فهذا العدوان الوضيع على حياة رجل لا ذنب له عندهم إلا الأمانة لاستقلال بلاده ، وهذا الرياء القبيح فى انكار الجريمة ثم الاشادة بفاعليها ، وهذه الرذائل التى تتكرر فى حبس شوشنيج والتنكيل بامثاله من رؤساء الأمم المغلوبة — من الذى قال انها دون السرقة فى شناعتها ووصمة عارها ؟ ومنذ متى كان للمستبدين حق الصولة على الضمير الانسانى فلا يأنف إلا مما يريدونه على الأنفة منه ، ولا يثنى على الخلق الجميل إلا إذا أمروه بالثناء ؟

إن فساد الأخلاق فى حكومات الاستبداد لما يمكن اثباته بالأرقام . ففى

المـانيا النازية مئات الألوف من الجواسيس والرقباء ، وكل جاسوس من هؤلاء فهو رمز للرياء والجبن والخوف واهدار الحقوق ، و إلى جانب هـــذا الجيش من الجواسيس والرقباء جيش مثله من الدعاة والمقرظين عملهم فى الحياة أن يكذبوا على أبناء وطنهم ويخدعوهم بالباطل والنفاق . وكل هذا — كل هذا لا يساوى فضائح ستافسكى وأمثالها من عيوب الحكومات الديمقراطية ؟... شاهت العقول أن كان هذا حكمها على الأخلاق ، فـكيف وفضائح ستافسكى شائعة مع رذائل التجسس والدعوة الـكاذبة لا يحجبها إلا الجبن والتهديد ؟

وأبشع من هـــذا أنهم يمسخون الأذواق فدسولون لها أن تستمرىء هذه الرذائل كأنها حسنات وطيبات . فمن الأمثلة التى ينصبونها للاعجاب مثل الابن الذى يشى بابيه وأولياء أمره و يتجسس عليهم لرؤسائه النازيين... فيشو بون هذا المعين الطاهر — معين الحنان والاخلاص — بشائبة مسممة لا تُبقى فى النفس الانسانية على موضع للأمان

* * *

ثم تسرى ظلمات هذه الأخلاق المنكوسة إلى دخائل العقول فتغشّى عليهـا بظلمات فوق ظلمات . لأن العقل الذى يتعود أن يرى للمسألة وجها واحدا لا وجه غيره يتعطل فيه التفكير ولا يفهم حجة الآخرين ، ثم يتعود أن يتلقى الأفـكار كما تصاغ له لا كما يصوغها هو بعد تقليبها على جميع الفروض والاحتمالات ، ولا يقتصر هذا العيب الفـادح على المحـكومين بل يسبقهم إلى الحـا كمين الذين لا يسمعون اعتراضا ولا يصبرون على اعتراض . ومن جرائر ذلك ولا شك أنهم يتعنتون فلا يديرون أسماعهم إلى حجج خصومهم ولا يعرفون من حل المشكلات إلا أن يقمعوا المعارضين فى أوطانهم و يشهروا السلاح على سائر الأوطان

حل المشكلات

وعلى ذكر المشكلات وحلها نقول ان الآخذين بالظواهر يتوهمون أن النظم « الدكتاتورية » أصلح النظم الحكومية لعلاج المشكلات العويصة وحل العقد المؤرّبة فى زمن وجيز

وهذا صحيح إذا نحن أخذنا بالظواهر ولم نتعقب الحلول والعلاجات إلى جرائرها المحتومة ونهاياتها التى لا محيد عنها

أما إذا نحن تجاورنا الظواهر إلى ما رواءها فالنظم الدكتاتورية فى الواقع تدارى المشكلات ولا تمحوها ، أو هى فى أكثر الأوقات تحل مشكلة واحدة وتخلق إلى جانبها مشكلات عديدة . كما فعلت فى مشكلة البطالة

قيل لكاتب انجليزى : لا بطالة فى ألمانيا !

قال نعم . ولا فى سجن دارتمور ! . .

ومعنى ذلك أن علاج البطالة على الطريقة الألمانيه النازية مستطاع فى كل مكان يرضى سكانه أن يعيشوا فى بلادهم عيشة السجناء فى دارتمور

وجلية الأمر أن النازيين عالجوا البطالة « بتشغيل » العاطلين جنودا فى الجيش ، ورقباء فى ديوان الجاسوسية ، وعمالا فى مصانع السلاح والذخيرة ، ونزلاء فى معسكرات الاعتقال ، وأجراء بانصاف أجور وارباع أجور

وكل علاج من هذه العلاجات يؤدى إلى كارثة مطبقة تهون إلى جانبها كارثة البطالة

لأن استنفاد ثروة الأمة فى المدافع والدبابات وما اليها يضيّع المال بغير عوض ويؤدى إلى رخص العملة وضعف القدرة على الشراء . فما يُشترى فى هذه الحالة بعشرة قروش لا يساوى ما يُشترى فى الأحوال الطبيعية بقرشين

ولأن انفاق الملايين على السلاح يلجىء الحكومة إلى ارهاق الرعية من أصحاب الأموال والموظفين والعمال بالضرائب الثقيلة والخصوم المتعددة بأسماء شتى . فيحسب الأجر على صاحبه خمسة قروش مثلا وهو لا يقبض منه أكثر من ثلث ما حسبوه

ولأن « تشغيل » المصانع بالسلاح والذخيرة لابد أن يقف أو يدوم . فان وقف فهناك صدمة الركود المفاجىء وكارثة البطالة من جديد ، وان دام فهناك دوام الكساد ورخص العملة وضرورة البحث عن مصرف للسلاح فى القتال والتخريب

وليس فى وسع حكومة أن تخلق جو الحرب بتجييش الجيوش وتكديس السلاح وتهييج الخواطر وتجويع الناس دون أن تصطدم بالحرب طائعة أو كارهة ، ومحتاجةً اليها أو زاهدة فيها ، فهى أسيرة مسخرة وليست بحرة قادرة على التدبير والتقدير ، وهى كالدابة المسحوبة من لجامها إلى حيث تشاء أو لاتشاء ، وليست كالرجل الذى يضع قدميه حيث تبصر عيناه

* * *

ومثل آخر مشكلة التجارة

فالنازيون يحلون هذه المشكلة بالترقيع والتلفيق والخداع والاحتيال ، فلا يلبثون قليلا حتى يجدوا أنفسهم بين ضرورات القوة العمياء

يعرضون على الأمم أسعاراً أكبر من الأسعار التى تبيع بها محصولاتها الزراعية ثم يعرضون عليها مصنوعات حربية بأرخص من أثمانها فى البلاد الأخرى ، مقايضةً ومبادلة . لأنهم لا يشترون بالنقد الحاضر

ثم يبيعون المحصولات الزراعية بأقل من الأسعار التى اشتروها بها ، ويماطلون فى تسليم المصنوعات بدلا منها ، ليرفعوا أثمانها

ولما كانت الأمم التى تعاملهم مضطرة إلى استيفاء ديونها فهى تعود فتقبل كل ثمن ، كما يقبل الدائن كل ما يستطيع الوصول اليه من أمتعة المدين المماطل

وتمضى فترة وجيزة فتعلم الأمم التى تعاملهم أنها خسرت عملاءها ، لأن عملاءها يشترون محصولاتها من النازيين بأرخص من الأثمان التى تباع بها فى أسواقها الوطنية .

وهنا يرى النازيون أنهم مستهدفون لقطع المعاملات ، عاجزون عن إطالتها والاستمرار عليها بغير التهديد والارهاب ، والقتال كرة أخرى

هـذه أمثلة من « العلاجات » النازية

وهى أشبه بعلاج الشعوذة والطلاسم منها بعلاج الطب والجراحة العلمية

والمشعوذ قـد يخدع مريضه فترة من الزمن ويقنعه أنه خير له من الطبيب وخير من الجراح !

والطبيب أو الجراح قد يفشلان فى بعض الأمراض ويبدو للمريض أنه أخطأ فى الركون اليهما وقلة الركون الى السحرة والمشعوذين

ولـكن الطب طب والشعوذة شعوذة على كل حال

ومتى عرف الطب عـلاجه فذلك هو العلاج الصحيح الذى يقاس عليـه ويطمأن اليه

أما إذا بقى العـلاج الطبى مجهولا فليس ذلك بحجة على صـلاح الشعوذة والتدجيل ، ولو نجحا الى حين

وهكذا مشكلة البطالة مثلا فى البلاد الديمقراطية ، فان هذه البلاد لم تحسم داءها حتى الساعة ، ولا تزال تعالجها بالاعانات تارة وإنشاء أعمال الاصـلاح والتعمير تارة أخرى ، الى ما شابه ذلك من المسكنات والملطفات . ولـكنها مسكنات الطب وليست بمسكنات الشعوذة ، ثم هى حيرة سليمة المغبة ، وليست بدواء كاذب يخلق الى جانبه عدة أو دواء

ومن الواضح أن مشكلة كمشكلة البطالة التى ترجع الى أسبابها العالمية لن يتأتى أن تحلها أمة واحدة فى داخـل حدودها ، ولن تعالَج يوما بمعزل عن علاج الـكساد العالمى واختلال المبادلات التجارية

فاذا شعرت الأمم بهذه الضرورة ودفعها الشعور بها الى ابتغاء الوسيلة الناجعة بالتعاون فيما بينها فذلك خيرٌ للعالم وخيرٌ لكل أمة على حدة من الجرعة القاتلة التى تودى بالعليل والصحيح

ومتى رأى الطبيب من واجبـــه أن يترك بنية المريض تعمل عملها وتدبر مقاومتها فعليه أن يظل طبيبا يفعل مايوحيه اليه طبه ، وليس عليه أن يلبس للناس لبوس المشعوذ الدجال

* * *

النظام

والنظام هو « نخر » النازيين لأنهم يعيبون على الديمقراطية اختلاف الآراء وصعوبة الاتفاق على قرار ، وبطء الانجاز بعد الاتفاق عليه

والقـول الصواب هنـا أن نقارن بين أحسن الديكتاتوريات وأحسن الديمقراطيات ، كما نقارن بين أسوأ الحكومات من الجانبين . فلا نفرض النظام الدكتاتورى كما يكون فى « مثله الأعلى » ونفرض النظام الديمقراطى كما يكون فى أقبح الأشكال والأوضاع

ومما لاشك فيه بعد هذه المقارنة أن أفضل حكومة ديمقراطية خير من أفضل حكومة دكتاتوريه . وأن الدكتاتور الردىء شر من الديمقراطية الرديئة على أسوأ ماتـكون

والنظام بغير « انتظام » نقيضةٌ لايقبلها العقل المستقيم . فما هى وسيلة انتظام

الدكتاتورية حاكماً معصوما بعد حاكم معصوم ، وخلفا صالحا بعد سلف صالح ؟

لا وسيلة على الاطلاق

ولكن الديمقراطية الصالحة تعقبها ديمقراطية صالحة ان لم تكن أصلح منها، لأن مرجع صلاحها الى الشعب قبل حاكميه

أما اذا كان الفساد من الشعب نفسه فهو فاسد مع الشورى وفاسد مع الاستبداد ، وقد يكون المستبد غبيا سفاحا كما يكون الحكام الديمقراطيون عجزة أو مختلسين

وما الحيلة فى فساد المستبد الجائر ، وكيف السبيل الى تبديل حكمه ؟ . . . .

لا سبيل غير الثورة والفوضى

أما الديمقراطية فباب التبديل فيها مفتوح بغير ثورات و بغير سفك دماء

على أن الحاكم المستبد إنما يصلح من جانب و يفسد من جوانب شتى ، فيعطى الأمة نظاما ان أعطاها ، و يسلب منها حرية الرأى و كرامة الاستقلال والارادة حيثما ظهر و كيفما كان

والديمقراطية بعد لا تعبى بالمواقف العصيبة التى لابد فيها من اطلاق أيدى الحاكمين . لأنها تطلق أيدى الحاكمين فى هذه المواقف بنظام مقرر معروف ، ليس كله استبدادا لأن أساسه تفويض الأمة . وليس كله حرية لأن الحرية فيه محدودة حيث تقام لها الحدود . وربما تعلمت من سرعة العمل فى أيام الحروب دروسا تنفعها أيام السلام . فتأتى السرعة من طريق التعليم والتعود لا من طريق الأرغام والالزام

فى الديمقراطية «احتياط» لأحوال الاستبداد ، وليس فى الاستبداد احتياط لأحوال الديمقراطية ، اذ هو استثناء دائم ، ولن لايجرى إلا على حكم الاستثناء وربما كان للاستبداد — إذا صلح — بعض حسنات المستشفى الذى يضمن

النازلون به نظافة الطعام وجودة الهواء وانتظام المواعيد بأعين الأطباء . فاذا استشرى فساده فهو حبس كحبس الحجاج لاحرية فيه ولاظل ولاطعام

أما الديمقراطية فهى بيتك الذى تعيش فيه وفق مرادك ، إذا صلح فهو خير من المستشفى ، وإذا فسد فهو خير من حبس الحجاج . . . والناس مخلوقون للعيش فى البيوت لا فى المستشفيات والسجون .

* * *

الصحة

ونحن نذكر المستشفى على سبيل المجاز والتمثيل ولا نعنى أن الصحة تتوافر لرعايا الحكومات المستبدة كما تتوافر فى المستشفيات

فمن غير المعقول أن حكوماتٍ تجور على أقوات رعاياها وتعتمد على نظام الجرايات فى أوقات السلم لتنفق على السلاح والذخيرة تستطيع أن تكفل التغذية النافعة لأولئك الرعايا المحرومين . وكل حكومة تتخذشعارها «العدة ولا الزبدة» كما تفعل الحكومة النازية فليس فى وسعها أن توفّق بين نقص الأرزاق وتصحيح الأجسام

وقد تعجب الناظر مواكب الألعاب الرياضية ومعارض الجيوش فيخالها عنوان الصحة الحسنة والأرزاق المكفولة لسواد الأمة ، ولكنه لا ينظر إلى ما وراء ذلك نظرة قريبة حتى يتبين مكامن الداء ويعرف الثمن الفاصم الذى اشتُريت به هذه المشاهد الجوفاء : موكب زمر وطبل واحد وراءه ألف أسرة تحرم الغذاء والكساء ؛ ولولا هذا التمويه الفاشل لوجدت منهما الكفاية وفوق الكفاية

ويقترن نقص الأرزاق بنقص الرعاية الطبية ، لانصراف الأطباء إلى ملازمة الفرق العسكرية ، أو لانصراف الشبان عن دراسة الطب والاستبحار فى العلوم

فتقل الرعاية الطبية وهى أحرى ما تكون بالمزيد ، لازدياد حاجة الناس اليها من جراء سوء التغذية وضعف الوقاية

وفى كتاب الدكتور مارتن جمپرت الألمانى المسمى « يحيى الجوع [1] » بيانات واحصاءات مستمدة من مصادر النازى الرسمية تدل على مبلغ انتشار الأمراض والعلل بين الناشئة الألمانية من أثر المبدأ القائل « العدة ولا الزبدة » أودعوا السمن واصنعوا المدفع Guns before Butter

فاصابات الحمى القرمزية فى سنة ١٩٣٣ كانت ٧٩٫٨٣٠ فأصبحت ١١٧٫٥٤٤ بعد أربع سنوات

و إصابات الدفتيريا فى سنة ١٩٣٣ كانت ٧٧٫٣٤٠ فأصبحت ١٤٦٫٧٣٣ بعد أربع سنوات .

وفى دورتمند خمسة وخمسون فى المائة من الأطفال مصابون بلين العظام ، ولا يزيد عدد الأطفال المعافين من أعراضه فى ميونيخ على خمسة وثلاثين فى الألف ؟

وجاء فى التقرير الطبى عن الجامعات سنة ١٩٣٩ « ان مقابلة الأحوال فى السنوات الأربع الماضية تدل على هبوط فى مستوى الصحة بين الشبان . فان زيادة المصابين بمرض القلب فى السنة الماضية مزعجة غاية الازعاج . . . . وعدد الطلاب الذين لايصلحون للانتظام فى سلك الفرق الرياضية قد تضاعف فى السنتين الماضيتين ، وكان عدد الطلاب الذين لا يقدرون على المشقات البدنية فى سنة ١٩٣٥ أقل من عشرين فى المائة ، فأوشك أن يبلغ الخمسين فى المائة الآن » .

وانتشار الأمراض بين العمال أكثر وأعضل . وقد حرّمت الأمم تشغيل الأطفال فى بعض المعامل إلا المانيا النازية ، فانها — لحاجتها إلى الصناع بالأجر

(1 Heil Hunger by Dr Martin Gumpert

القليل — قد أوجبت على الأطفال أن يعملوا من العاشرة ، وارتفعت نسبة الناشئين الذين يعملون فى وادى الرور بين الرابعه عشرة والعشرين من ٨٥٥ فى كل عشرة آلاف (سنة ١٩٣٢) إلى ١٧٧٨ بعد ذلك بخمس سنوات .

ويشيع النازيون انهم يروضون الناشئين على فرح القوة والفرح بالحياة . ولكن المقارنة بين حوادث الانتحار فى المانيا وحوادث الانتحار فى البلدان الأوربية الأخرى لا تنبىء عن فرح بالحياة بل فرح بالموت . فان عدد المنتحرين فى المانيا وحدها يكاد يساوى عددهم فى أرجاء القارة الأوربية بأجمعها .

وكذلك زاد عدد الموتى ثمانين ألفا كل سنة فى ألمانيا الجديدة ، وكان معظم الزيادة فى الأعمار ما بين الأولى والخامسة عشرة ، وما بين العشرين والخامسة والأربعين ، أى فى سن الطفولة وسن الشباب : سن الفرح بالحياة

وهذه نتيجة بدهية لا غرابة فيها مع نقص التغذية وإرهاق الأجسام بالعمل وكبت النفوس واستفزاز الأعصاب

* * *

التربية

وتربية العقول أضر فى ظل النازيين من تربية الأجسام

لأنهم يتعمدون تعويج الرؤس ويجردونها من ملكة التفكير المستقيم فلاترى الدنيا على حقيقتها بل تراها كما تحب الحكومه أن يروها ويثابروا على رؤيتها : يصبغون التاريخ والجغرافيا للطفل بالصبغة التى تساعدهم على ترويضه واقتياده ، ويغرسون فيه الأحقاد التى يضرمونها بالغضب والشر كلما أحبوا أن يضرموها ، ويخلقون له وجودا عجيبا لا مجد فيه ولا حق ولا فضيلة لغير الآريين المزعومين ، ويفقدونه الملكة الصحيحة التى يختبر بها حقائق الأمم والرجال ، فلايرى الأشياء

ولا يتصور المعانى الا بعد تحريفها وتشويهها كما ترى الأشباح فى المرايا المعقوفة ، واطرّادها أمامه على نسق واحد لا ينفى أنه زائغ مضلل وأن تفكيره وشيك أن يخونه متى لمح شعاعا واحدا من الضوء فى عالم الرؤية القويمة والنظر السليم

ويستولون على الطفل من السادسة فيقلدونه خنجراً صغيراً ويطبعونه على الشر والنقمة يسمونها المجد والنخوة الآرية ، ويخيل اليهم أنهم بهذا وأشباهه يقرعون الدنيا بجيل مشاكس متنمر لا حيلة لها فيه إلا أن تستكين له أو تقضى على كل قوة فى يديه . وذلك فى وهمهم مستحيل لشيخوخة الدنيا واضمحلالها ، وآية الشيخوخة والاضمحلال عندهم ان الدنيا لا تألف الضراوة بالشر ولا تتغنى بالقتل والقتال

فتلاميذهم على غرار تلاميذ الحسن بن الصباح الذى كان يخيل إلى أتباعه انهم فى نعيم مقيم مادامو فى طاعته ورضاه ، وانما يقود تلاميذه بتخدير الحشيش وهم يقودونهم بما يشبه الحشيش من الأوهام والأضاليل

وهؤلاء التلاميذ هم الذين يترنمون بصيحتهم على الحرية : « أيتها الحرية ! اننى أبصق على وجهك ! » . . . وكلمة أبصق هى ألطف تعبير لما يقولون فى ذلك النشيد

***

البيئة

ولعل الفاصل المبين بين الديمقراطية والنازية هو فاصل البيئة التى تعيش فيها كل منهما

فليس أدل على سلامة الديمقراطية من أن قيامها فى الأمة دليل على مزايا كثيرة فى تلك الأمة ، أو دليل على أن الأمة فى معيشة طيبة ومعاملة حسنة ،

وانها ذات أخلاق لاضرر من اطلاق الحرية لأصحابها ، وأطوار لاتعـــدو طوقها ولاتستعصى عليها

وليس أدل على وخامة الدكتاتورية من أن قيامها فى الأمة دليل على شذوذ فى معيشتها أو على خوف من بعض الاخطار المحدقة بكيانها ، كما يعترف الحاكمون بأمرهم كلما أعوزهم أن يسوغوا قيامهم فى شعب من الشعوب

فالبيئة الديمقراطية كالأرض الآمنة القريرة ، والبيئة الدكتاتورية كالمحجر الصحى أو كالمخفر الذى لا يعاش فيه بغير رقابة وتضييق

ولم يعرف التاريخ قط أن ديمقراطية حاربت ديمقراطية على مبادئها ، وانما تتحارب مثلا حكومة اسبرطة العسكرية وحكومة اثينا الدستورية ، أو تتحارب ولايات الشمال فى أمريكا وولايات الجنوب ، لأن الشمال يطلب الحرية للسود والجنوب يطلب لهم التسخير والاستعباد

أو يتحارب نابليون بونابرت وبريطانيا العظمى ، أو بسمارك ونابليون الثالث ، أو اليابان وروسيا القياصرة

وحتم على النازية وما شاكلها أن تكون بيئة حرب تنفر من السلم كما تنفر البنية من السم الذى يتلفها ويقضى عليها . فان « الزعيم » لا يخدع الناس عن عقولهم وحرياتهم إلا بما يزلفه لهم من بواعث الهياج وسورة الشعور وشهوة البغضاء وتعاقب الحوادث بالضجة والصليل . فان لم يتعهدهم بهذه المثيرات فتر عندهم وباخ وآذن نجمه بالأفول

وهو مع هذا يتعاظمهم بروعة التقديس والتأليه ومظهر القدرة التى تأمر فتطاع ، وتريد فلا يحال بينها وبين ما تريد . فان وقف بين جيرانه ونظرائه موقف المساوم الذى يأخذ ويعطى ويتقدم ويتراجع صغر فى أعينهم وضاع بينهم

وأوشكوا أن ينقلبوا عليه وينتقموا لذلتهم الماضية مما أسبغوا عليه من الهول والتهويل . فهو يشل يديه عن عمل الساسة كل يوم يلبس فيه هالة التقديس والتأليه ، فأما أن يرسل الصواعق من سماء جو بيتير ، وأما أن يهبط إلى الأرض مع الهابطين

فسلام الدنيا إذا حكمتها الديمقراطية مفهوم لأنها تقوم على التفاهم ولا تحصر الرأى فى يدى انسان واحد . ولكنه غير مفهوم والدنيا تحكمها الدكتاتورية ، بل غير مفهوم وفى الدنيا دكتاتورية واحدة على مذهب التقديس والتأليه ، تفتأ من يوم ظهورها تقعقع بسلاح العدوان وتنشىء أبناءها على تمجيده واصطفائه دون سائر الخطط وسائر الحلول

* * *

ومن الملائم أن نستحضر فى اخلادنا قبل ختام هذه المقارنة ان تفضيلنا الديموقراطيه يؤدى إلى تعميمها فى كل أمة ، وان تفضيلنا النازية أو الدكتاتورية لا يؤدى إلى مثل هذا التعميم ، لأن النازيين يعتبرون مذهبهم مزية جنسية يستأهلها صفوة الخلق من أبناء الشمال ولا يستأهلها الجنوبيون ولا المغلوبون ، وآخر ما يفكرون فيه إذا انتصروا أن يتركوا الشعوب الصغيرة للمستبدين من عشيرتها ، والزعماء المقدسين من أبناء جلدتها ، ولكنهم يدينونها بشريعه العسف التى لا تؤمن بتقديس ولا بحق مصون لحاكم أو محكوم من الضعفاء

ويحسن بنا كذلك أن نستحضر فى أخلادنا أن الديمقراطيه لم تنته من التطور ولم تتحجر على وضعها الذى هى عليه فى هذه الايام . فهى نظام يتقدم مع تقدم الشعوب ، وتزول نقائصه كلما زالت نقائص الناس ، ولا أمل من الناحية الاخرى فى ارتقاء الدكتاتورية طبقة بعد طبقة وسيدا بعد سيد . لأنها راجعة إلى

القفزات والنوادر ، منوطة بالآحاد المتفرقين ، معرضة للهدم والتخريب بعد كل بناء وتعمير

قال الامام الشيخ محمد عبده : «لا يصلح الشرق إلا بمستبد عادل .»

نعم . ولم يفسد الشرق إلا بالمستبدين الظالمين ، ولم ينهض نهضته المرجوة فى القرن العشرين إلا بنفحة من الحرية الديمقراطية سرت اليه . وقد جرب حظه فى الاستبداد طويلا فليجرب حظه فى الحرية ، وليجعلها اليوم قضيته الكبرى ، فهى فى الحق قضيته التى ينتصر فيها فينجو من ظلم أبنائه وظلم الغرباء

اوتو شتراسر

الفصل الخامس

قضيّة الغد

قضية الغد

ولعلها كانت أحجى أن تكون قضية أمس أو أمس الأول ، لو كانت « السياسة » تمشى فى طليعة الشعوب ولم تكن تمشى وراءها بخطوات

وقد قيل إن الساسة يتخلفون عن عصورهم ثلاثين سنة لأنهم يقتبسون أفكارهم الحديثة فى زمن ويتولون الحسكم فى زمن آخر ، ولأنهم يلبثون إلى أن يمر « الصف الأخير » من « محافظى الشعوب » ثم يمروا وراءه ليجتنبوا مشقة الابتداء والاقتحام، ويأمنوا مغبة «الرجة الثورية» التى تصاحب دعوات الاصلاح وليتها ثلاثون سنة !

فانها على ما نرى مائة أو مائة وخمسون ، وكأننا لا نزال الآن فى أوائل القرن التاسع عشر من حيث سياسة العالم وفض المشكلات بين الشعوب والحكومات

ماذا كان يحدث لو أن الدول جميعا — كبيرها وصغيرها — أجمعت على انذار هتلر بالحرب لو أنه رفض خطة التفاهم فى المشكلة البولونية وأبى إلا خطة الارغام ؟

كان ينثنى عن الحرب ولاجدال

وكانت كل دولة من هذه الدول تخدم مصلحتها هى قبل أن تخدم مصلحة العالم ... لأن خمس دول على الأقل كانت تأمن على حوزتها من غارة هتلر ، وان كانت بولونيا وحدها هى التى انفردت بالتهديد فى بداية النزاع

فلماذا لم تصنع الدول ذلك ؟

لم تصنعه لأنها تعمل فى السياسة الدولية كما كانوا يعملون قبل مائة سنة ، وهم يومئذ على صواب

فبعد الحروب الدينية والحروب التى نشبت بين الأسر المالكة من جراء الخلاف على الوراثة رشدت الأمم بعض الرشاد فاجتنبت الحروب « العاطفية » والنزوات الحماسية واتبعت « المصلحة » وحدها فى إدارة علاقاتها الخارجية ، فلا تعادى ولا تصادق من أجل مصالح الأمم الاخرى ولو كانت تجاورها أو تماثلها ، ولاتظن أن حدثا من الأحداث يعنيها مادام يجرى من وراء حدودها

وجعلت شعارها كلمتين اثنتين : الكلمة الأولى «مصلحتى» . . . والكلمة الثانية « لا يعنينى ! »

وصمدت على ذلك فى جميع الأزمات الدولية ، ولا سيما أزمات الحروب

* * *

إلا أن العالم قد تغيّر ، وقام بعد العالم فى القرن التاسع عشر عالم متشابك متماسك لا تنفصل فيه أمة عن أمة ، ولا تطرأ فيه المشكلة الدولية إلا سرت آثارها إلى أبعد الأمم وأقربها على السواء

فقيام حكومة النازى فى المانيا كان مسألة المانية داخلية على رأى الساسة « الحصفاء » من المدرسة العتيقة

ولكنْ ألم يكن كذلك مسألة داخلية بولونية ؟ ألم يكن مسألة داخلية بلجيكية ومسألة داخلية نرويجية و إنجليزية وفرنسية وتركية ومصرية ؟ ألم يكن مسألة داخلية فى جميع الأمم التى اضطرت من جراء قيام النازيين إلى انفاق مالم تكن تنفق ، وتدبير ما لم تكن تدبر ، واتخاذ ما لم تكن تتخذ من الحيطة ،

وفرض ما لم تكن تفرض من الضرائب ، وانتداب من لم تكن تفكر فى انتدابهم من الوزراء والساسة والسفراء !

أكل هذا لا يكفى لاعتبار المسألة الداخليـة فى أمة مسألة داخلية فى الأمم الأخرى ؟

بلى . إنه لكاف وأكثر من كاف

ولكنّ النازيين أغاروا على بولونيا ومن ورائها أمم شتى تنتظر وتحسب أنها تسلم بالانتظار ، وتبتعد وتحسب أنها تأمن بالابتعاد

فلم تنقض أسابيع حتى فهمت كل واحدة منها أنها اخطأت فى حق نفسها واخطأت فى حق غيرها ، ولم تفد أحدا غير المعتدى عليها وعلى غيرها

فلا هى سلكت طريق المروءة ، ولا هى سلكت طريق السلامة . . . وبئست السياسة التى تحيد عن هذين الطريقين لتمهد بيديها طريق المعتدين عليها

انتهى فى السياسة الدولية عهد « مصلحتى » وعهد شئونى وكفى !

وأصبحت المصلحة الآن فى التوحيد بين المصلحة الوطنية والمصلحة العالمية ، فلا تنفرد أمة فى سياستها إلا على نية من نيتين : العدوان على غيرها أو التعرض لعدوان المعتدين

فاذا أبت أمة من الأمم إلا أن تفرغ جهودها كلها للسطوة العسكرية وأن تشبع نفوس أبنائها كلهم بنوازع البغى والعدوان ، فماذا يبقى للامم الأخرى بازاء هذا الخطر الذى يهددها واحدة بعد واحدة ؟

لا يبقى لتلك الأمم إلا أن تعمل كلٌّ منها منفردةً فتستعد وحدها لدرء الخطر عنها ، وهى الخاسرة بما يضيع عليها من الأموال والجهود وعلى أبنائها من الحقوق والحريات

هذا أو تعمل الأمم مجتمعات وتقلع عن سياسة «مصلحتى» ، «ولا يعنينى» لأنها نقيض المصلحة والمروءة والسداد

وفى هذه الحالة يكفيها ربع الاستعداد الذى كانت مضطرة اليه لو أنها عملت على انفراد

لأن دولاً عشراً تبذل ربع مجهودها ومالها أقوى من دولة واحدة تبذل كل ما عندها من مجهود ومال

فهذه « الخطه العالمية » أقل نفقة وأقرب إلى السلامة ، وأشبه بالكرم والمروءة ، ولا عائق يعوق الأمم عن المضى فيها إلا البلادة والغباء

ومتى ثبت لزوم الخطة وثبت إمكانها ، وثبتت فوائدها فهى فى انتظار « الاداة » التى تصلح لتنفيذها ، أو هى فى انتظار « واسطة الاتصال » بين الحكومات

وليست هذه الواسطة المرجوّة — بل الضرورية اللازمة — بالطريق المقطوع فالتعاون الدولى قد أصبح بعد اليوم ضرورة و « عقلا » ولم يعد كما كان قبل اليوم حلما من الأحلام أو عاطفة من عواطف المتخيلين

وصداقات الدول لا ينبغى أن تقوم غدا على أساس غير أساس الاشتراك فى العدوان أو الاشتراك فى دفع العدوان

والاتفاق على دفع العدوان أيسر من الاتفاق على العدوان ، لأن المعتدين يتغالبون ويتنازعون ، ولا يمضون فى الوفاق الى نهاية الطريق

وتلك قضية الغد

وتلك هى عبرة الحرب الحاضرة ، إن كانت لها عبرة على الاطلاق

* * *

فلهذه الحرب أغراضها التى لامناص من تحقيقها

ولانعنى تلك الأغراض التى يعلنها الساسة و يؤمنون ، أولا يؤمنون ، أنهم يعملون لها و ينتهون اليها

ولـكننا نعـنى الاغراض التى تتجه اليها الحوادث وتوجه اليها الساسة فى تيارها الجارف الذى لايسلس عنانه لأحد ، و إن خيل الى كثيرين أنهم قابضون عليه ، مستوون فى الركاب

وكل حادث عظيم من حوادث الدنيا فله نتائجه اللازمة اللازبة اذا شئنا أن نتجنب كلمة المقاصد

فالحـرب الماضية انتهت بزيادة الأمم المسـتقلة فى أوربا وأفريقيا وآسيا ، وبدخول التحكيم الدولى فى دور جديد من أدواره الـكثيرة ، و بفشل النزعات المادية فى تجارب الأمم والأفراد . فقد فشلت تجربة الماركسية فى روسيا بعد أن أتيحت لهـا فرصة لا نظير لها ، وفشلت تجربة الخلاعة والانطلاق من ضوابط الآداب والأخلاق ، فأحس كل خليع مستخف بتلك الضوابط أن النفس التى لاضابط لهـا نفس متفكـكة خاوية ، وأنها من أجل ذلك خليقة أن تتهالك وتستخذى فى إبان سرورها وانتشائها ، كأنها تنفر من ضعفها وتتقزز من خوائها . فرجعت النفوس تتمرد على التمرد ، وتتمثل طريقها الى الايمان والمثل العليا

واذا قصرنا القول على الجانب السياسى فقد تحقق شطر من أغراض الحـرب الماضـية وهو تقـرير المصير فى أمم كثيرة ، و بقى شطر فى انتظار التحقيق وهو انصاف الاقوام الصغيرة أو الاقليات ، واتمام التعاون « عملا » بين الحكومات

فما هى أغراض الحرب الحاضرة ؟

أولى من سؤالنا عن أغراضها أن نسأل عن أسبابها

فاذا سألنا عن تلك الأسباب ظهر لنا الماركسيون والماديون بأسبابهـم التى لا يعرفون غيرها ، وخلاصـتها المضحكة أن الدول قد انفقت ألوف الألوف من

ربوات الدنانير للوصول الى عشر معشار هذا المقدار ، وهى لاتثق من هذا المكسب كما وثقت كل الثقة من ذلك الخسار

والماركسيون أو الماديون أول من يجهل أن « الدينار » ليس بشىء فى ذاته، وأنه لا يصبح شيئا إلا حين يمثل حاجات النفوس والأجسام ، ومنها الغلب والزهو و إرضاء الأوهام والخيالات

وقد أحصيت أسباب شتى للحرب الحاضرة غير أسباب الماركسيين والماديين وهى الخوف من الحرب واتخاذ الحيطة لها ، وفقدان المثل العليا والأصول الاخلاقية التى لااستقرار للنفوس مع فقدانها ، والتفاوت بين الامم فى طبقات الحضارة ونظم الاجتماع . فان التفاوت يمنع التعامل بقسطاس واحد ، ومتى تعددت أساليب المعاملة صعب التوفيق ونجمت أسباب الخلاف

إلا أن هذه الاسباب جميعاً تنطوى فى السبب الأكبر الذى تتلاقى عنده ، ولا قبل لنا باستيعابها فى تفصيلها إلا اذا استوعبناه فى جملته ، ثم رددناها اليه

ذلك السبب الأكبر هو افتراق الطريقين بين الماضى والمستقبل ، فان العالم اليوم حائر بين ماضيه ومصيره ، فلا هو قد فرغ من الماضى بتةً ولا هو قد وصل الى تقرير المستقبل وتوطيده والاتفاق عليه

ماض لا رجعة له ، ومستقبل لم يأت بعد ، وقد آذن فى عصرنا بالظهور :

فى الماضى كانت السياسة تقوم على أساس العصبيات وتُكثر منها ما استطاعت لتعتز بناصرها : بين عصبية وطنٍ وعصبية جنس وعصبية لغة وعصبية دين ، وعصبية موقع ومصلحة

وفى المستقبل يضيق العالم بهذه العصبيات ، لأنه يتسع و يتقارب بمواصلاته، و كلما اتسع وتقارب اشتبكت مصالحه ومشار به وتعذر على الامة أن تنعزل فيه ، واستحال أن يحكمه قوى واحد وأن يتفق على تقسيمه أقوياء متحاربون ،

واستحال أن يُهمَل فيه شأن الضعفاء ، فلا غنى فيه عن التفاهم والتعاون ، وأن ينسحق فيه القوى الذى لايأخذ خصومه الأقوياء والضعفاء بغير السلاح

فلا مناص إذن فى الغد المنظور من قيام السياسة على أساس العلاقات العالمية المشتركة ، حتى فى الأمور التى كانت تستأثر بها كل دولة وتأبى أشدالاباء أن تشاركها الدول الأخرى فى كثير أو قليل منها ، كالعملة والجيش والسياسة الخارجية ، والمصطلحات الاجتماعية

فهذه المسائل كانت معدودة فى شريعة العصبيات القديمة عنوان السيادة القومية التى يستقل بها كل قوم عن سائر الأقوام

فأصبحنا فى مسألة العملة نرى كثيرا من الأمم ترتبط بنظام واحد وترجع إلى ثقة واحدة ، ولا تملك أمة واحدة أن تستقل بعملتها عن سائر الأمم

وأصبحنا فى مسألة الجيش نرى فرنسا تشير على انجلترا بنظام التجنيد فتقبل اشارتها ، ونرى أسطولا فرنسيا بقيادة انجليز ، وجيشا انجليزيا بقيادة فرنسيين ، ونرى نحن المصريين اننا نقبل الجيوش الأجنبية فى أرضنا ونعتبراقامتها بيننا أثناء الحرب تنفيذاً لاتفاق محمود مرغوب فيه

وأصبحنا فى السياسه الخارجية نرى المذكرة الواحدة تكتب وتدرس فى دواوين أمم كثيرة قبل انفاذها ، ونرى اللجان « المختلطه » تحل محل الوزراء المنفردين فى كل دولة

و بلغ من اشتراك اللجان ومجالس الحرب فى جميع الشئون أنها لم تترك عملا واحدا تنفرد به السيادة القومية على النحو القديم

فهذا عالم جديد ، وهذه أحوال جديدة ، وهذه طلائع للمستقبل لابد أن تبلغ تمامها ، ولما تبلغه بعد

ومن ثمة هذا التقلقل ، وهذه المحاولات ، وهذه التجارب ، تارة فى ميادين

السياسه وتارة فى ميادين التجارة ، وتارة فى ميادين القتال

وما من عبث ولا مصادفة قد انقسم المعسكران المتقاتلان اليوم هذا الانقسام: معسكر ألمانيا وأصحابها الظاهرين والمستترين ، ومعسكر بريطانيا العظمى ومن معها من الحلفاء والأصدقاء

بل هما يمثلان فى انقسامهما عالم العصبيات من جهه ، وعالم المشاركة العالمية من جهة أخرى

فها هى ذى المانيا تحمل رايه العصبية الجنسية باسم الآرية أو باسم الأقوام الشمالية ، وفى صفها أو من خلفها الروسيا الشيوعية وهى التى تحمل راية التعصب للطبقة العاملة وتسميها سيادة الصعاليك

وها هى ذى بريطانيا العظمى تحمل راية المشاركة العالمية وتقوم على التساند بين شعوب كثيرة داخل الامبراطورية وخارجها ، قد اتصلت كلها بالمحالفات والمعاهدات والدساتير التى تساعد على المعاونة ولا تمنع الاستقلال ولا تجور على الحقوق الوطنية ، فليست كندا ولا استراليا ولا أفريقيا الجنوبية أقل استقلالا فى اعلان الحرب من انجلترا نفسها . . . أما خارج الأمبراطورية فهناك فرنسا وتركيا ومصر على اختلاف الأجناس واللغات والعقائد تتعاون وتتفق فى الغاية اتفاق الأنداد ، الذين لاينوون البغى على أحد من الأحرار ، باسم تعظيم جنس حاضر أو إحياء دولة غابرة

ففى أحد المعسكرين نموذج صغير للعالم البائد عالم العصبيات والعداوات والمشاكسات ، وقوامه جماعة النازيين

وفى المعسكر المقابل له نموذج صغير للعالم المقبل عالم التعاون على تحقيق المشاركة الدنيوية فى غير تعطيل للسيادة القومية ، وقوامه جماعة الحلفاء

و بين هذين النموذجين، أو هذين المعسكرين ، سر الحرب العظيم الذى تندمج

فيه الأسرار كافة ، وسببها الأكبر الذى تتفرع منه الأسباب النفسية والفكرية والاجتماعية والتجارية قاطبة . وتلك هى قضية الغد التى نترقب الفصل فيها بعد الحرب الحاضرة ، ولا يعنى الفصل فيها أحدا من بنى الانسان كما يعنى الأمم العزلاء

* * *

ومن التغرير بالآمال أن نتخيل أن المشاركة العالمية حاصلةٌ فى بكرة الهدنة بعد الحرب الحاضرة ، وان الدول سترمى السلاح بيدٍ وتقيم حق العالم باليد الأخرى . فالعافية درجات كما يقولون فى حكمة العامة ، وأمثال هذه الآمال الكبار لاتسرع إلى التمام فى اللحظات القصار ، وحسبنا أن نعرف اتجاه آمالنا وأن نتوخاه فى أعمالنا فنطمئن إذن إلى كل خطوة نخطوها ، وننزع عن عقولنا حيرة السالك فى مفازة لا معلم فى أرضها ولا قطب فى سمائها . ونثوب إلى الايمان فى السياسة ، فنصيب صواب المؤمنين ونخطىء خطأ المؤمنين ، ولا نقذف بأنفسنا فى تيار الحوادث يجرفنا إلى حيث شاء ، ويمضى بنا من حيث لاندرى إلى حيث لاندرى . كأننا خشبة من حطام لادفة لها ولا شراع

ليست هذه الحرب نهاية الحروب ، وليس المهم أن تنتهى الحرب بعد أمد قريب أو بعيد

وانما المهم ان نفصل بين بطولة الحرب واجرامها بفاصل يميزه الناس كما يميزون موت الشرطى فى سبيل الحق من موت اللص على مشنقة القصاص ، وأن تكون للعالم شريعة يدين بها الخارجين عليه كما كانت لكل أمة شريعة تدين بها من يخرج عليها

وقد يمضى زمن قبل أن يُشنق رئيس أمة باغية جزاء له على اضرام الحرب فى سبيل شهواته وخيالاته ، ولكنه إذا أصبح فى أعين الناس مستحقا للشنق

فوصول الحبل إلى عنقه وتقصيره عن الوصول اليه سيان فى حكم الآداب والأخلاق

وستبقى القوة والضعف بعد الحرب الحاضرة ، وتبقى بعد جميع الحروب المقبلة ، سواء نشبت فى سبيل الفتوح والمغامرات أو نشبت فى سبيل العدل والأمان

فلن يأتى فى تاريخ العالم يوم تصبح فيه القوة هى الضعف ويصبح فيه الضعف هو القوة : ذلك الغاء لمعنى الكلمات فضلا عن الغائه لحقائق الأشياء ولكن القوة ضروب .

فاللص الذى يقطع الطريق ويزهق فرائسه المنهزمين قوىٌ يعتمد على قوته .

والسيد السرى الذى يطمع فى حق الضعيف فيبذل المال فى إرضاء المحامين والشهود وتضليل القضاء ونقض الشريعة قوىٌ يعتمد على قوته

إلا أننا لانعرف عاقلا على الرغم من هذا يقول : الغوا القضاء وأبيحوا قطع الطريق لأن القوى والضعيف لايتساويان ، أو ينكر أن نصوص الشريعة وانظمة القضاء مكسب انسانى يغار عليه المظلوم وان لم يبلغ منه مايروم

فمن قال ان الحرب الحاضرة تسوّى بين القوى والضعيف فهو خادع أو مخدوع ، ولكنها إذا استطاعت فى عالم السياسة الدولية أن تفرّق بين قوة اللص الخارج على الجماعة وقوة السرى المعتز بمنزلته فى أمته فقد — استطاعت الشىء الكثير ، وتركت بقية للمستقبل عسى أن تتحقق فى زمن يسير

***

كيف تتأدى الحرب الحاضرة إلى هذه الغاية ؟

الرأى عندى أبداً هو أن العقيدة سابقة للنظام كما أن الوظيفة سابقة للعضو فى اصطلاح علماء الاحياء

فهل وجد فى الدنيا شىء يسمى « الحق العالمى » وشىء يسمى « الجريمة العالمية » ؟

هل ينظر العالم إلى من يزعج سلامه ويستهين بتراث الآداب فيه نظرته إلى مجرم مأفون أو نظرته إلى بطل جليل ؟

ذلك هو السؤال !

فاذا كان « الحق العالمى » قد وُجد بيننا ، بل إذا كانت الرغبة فى وجوده قد غلبت على نفوسنا ، فالنظام الذى يتولى الانفاذ والاجراء بالمرتبة الثانية بعد هذه المرتبة الأولى !

والذى أعتقده جازما لا أشك فيه ان تقرير الحق العالمى واجب ، وإننا اليوم فى مقام المشترع الذى يريد أن يقرّر بالنصوص حقوقا مرغوبا فيها وجرائم مغضوبا عليها ، وإننا فى أوانها وفى فرصتها الكبرى ، فينبغى أن نضن بها على الضياع

ويأتى بعد ذلك دور « النظام » الذى يتكفل بالانفاذ والاجراء ، فماذا عسى أن يكون هذا النظام ؟

إن الفروض والمقترحات فى هذا الباب لا تقتصر على المثاليين والخياليين ، فان أناسا من المسؤلين فى السياسة كالمسيو بريان قد عرضوا على سبع وعشرين دولة أن يفكروا فى تأسيس « اتحاد » كالاتحاد الأمريكى أو السويسرى أو الأسترالى على نحو من الأنحاء ، قبل نشوب الحرب الحاضرة بعشر سنوات

وقد سبقه ولحق به مفكرون من الأدباء والحكماء ذهبوا إلى توحيد الوزارات وتوحيد المجالس النيابية وتقسيم الكراسى فيها بين الأعضاء على قواعد يؤثرونها ويحسبونها وافية بالقصد قابلة للانفاذ

ويغلب على الظن أن إنشاء هذا الاتحاد غير ميسور وغير لازم فى الجيل

الذى نحن فيـــه ، لأن الاتفاق على أساس الانتخاب عسير . فهل نعتمد فى الانتخاب على العدد ؟ أو نعتمد فيه على طبقة الحضارة ؟ لا هذا ولا ذاك مما يسهل الاتفاق عليه

إلا أن الاتجاه مع ذلك مرسوم

والخطوات الأولى فى هـــذا الاتجاه تغرى بخطوات تالية لاتُخشى عاقبةُ المضى فيها

وأسهل من إنشاء الحكومة العالمية فيما نرى توجيه الجهود إلى إنشاء سوق عالمية للخامات ، وسوق عالميه للمصنوعات ، وأن يكون الاصدار والايراد بين هذه وتلك بمقدار متفق عليه ، على مثال الاتفاق الذى تلاحظه الدول فى زرع الحبوب والأعشاب التى تدخل فى سموم المخدرات

وليس من الضرورى أن يتوحد مكان هذه السوق أو تتوحد مصادر التصدير والتوريد . إذ يكفى أن يتوحد مكتب التسجيل والاحصاء حيث كان الانتاج والتوزيع ، ليعرف الطالب من أين يطلب والبائع لمن يبيع . وخليقٌ بالعالم الذى تتصل فيـه شرايين الأثير والكهرباء بين تليفون وتلغراف ومذياع أن يهدما كان عصيا من هذا المطلب قبل سنين

* * *

ولا يخلو من الطرافة أو من الأهمية أن نشير هنا إلى اقتراح الزعيم الألمانى الذى يرشحه الكثيرون لرئاسة الحكومة الديمقراطية فى ألمانيا بعد هزيمة هتلر وسقوط نظامه ، ونعنى به أوتو شتراسر Otto Strasser شقيق جريجور شتراسر ومساعده فى إنشاء حزب النازى بأقاليم ألمانيا الشمالية ، وقد كان جريجور صديقا لهتلر وكان هتلر أباً لولديه التوأمين فى العماد . ثم انفصلا. فأرسل إليه هتلر نفرا من أعوانه فأخذوه من بيته وهو بين زوجه وأبنائه وقتلوه ركلا بالأقدام

لكنّ هتلر لم يسترح من أوتو كما استراح من جريجور ، ولا يزال يخشاه ويتهمه بكل مكيدة تصيبه أو تصيب نظامه

ورأى « أوتو شتراسر » فى علاج مشكلة التجارة العالمية وما تنطوى عليه من مشكلة المستعمرات أن تؤلف لها شركة كبرى تدور فيها الأعمال على أساس المعاملات المالية التى لا تحتاج إلى مداخلة من الساسة أو الجيوش

ورأيه الذى أبداه لمكافحة الحرب قبل بضع سنوات أن تنصف الدول المانيا وتقضى على سيطرة بروسيا قضاءً لاتقوم لها من بعده قائمة ، وعنده أن تقويض بروسيا لا يتأتى بغير تقويض السادة البروسيين الذين يحتكرون الضياع الواسعة ويعيشون فيها عيشه الطغاة ولا يأذنون لحكومه فى المانيا أن تستقر وتهدأ فى أماكنها ما لم تقم على أركان الطغيان والعتو والعدوان

وفى هذا الرأى هو ولاشك مصيب ومخلص لوطنه وللعالم .. فما تأتى المصائب لألمانيا ولا للامم المبتلاة بطغيانها إلا من قبل أولئك « السادة » البروسيين

* * *

على أن التفكير فى حرب الدول لا يغنى عن التفكير فى حرب الطبقات ، إذ ربما نجمت الحرب الدولية من جرائر النزاع بين طبقة وطبقة فى أمة واحدة ، أو أمم عديدة

والرأى اليقين فى هذا الصدد أنّ حرب الطبقات لن تهدأ بتغليب طبقة ولا باستنزاف طبقة ، سواء كانت هى طبقة الأغنياء أو طبقة الصعاليك ، وإنما تهدأ بالتعاون القومى والتنافس الشريف ، وتبقى الطبقات باقية ، ما بقيت الحياة ، إذ ليس السر الكامن وراءها سر « النقود » كما فهم كارل ماركس وأشياعه ، ولكنه هو سر الحياة الذى يقضى بتعدد القيم وتعدد المساعى وتعدد الكفاءات والأذواق واللبانات

وخير ما تعالج به مشكلتها أن تتوسع الأمم فى نظام « الجماعات التعاونية » فـلا يستفيد « رأس المال » شيئا إلا كان مردّه إلى المشترين ، وأن تتوسع فى نظام المشاركة بين العامل وأصحـاب العمل فيصبح للعامل نصيب فى ربح عمـــله ، وترجع الدولة إلى مافاض من ربح يتجاوز المعقول فتأخذ منه حصةً للضريبة التى تفيد الجماعة كلها ، وتعين الفقراء منها قبل الأغنياء

لا نقول إننا وفينا الـكلام فى الاصلاح السياسى أو الاصلاح الاجتماعى بما قدمناه ، فليست توفية الـكلام فى ذلك من مطالب هذا الـكتاب

ولا نقول إن حلا من الحلول السياسية والاجتماعية كائنا ما كان سيفض مشكلة الحياة بين الأمم والأفراد . فمشكلة الحياة لا تفض ، ومطالبها لا تنتهى ، وقصاراها أن

تموت مع المرء حاجاته وتبقى له حاجة ما بقى

فان الحياة التى لا تواجه كل يوم كشفا جديدا وتسعى كلّ يوم إلى مجهول جديد لهى حياة قفراء جدباء لا تستحق أن تعاش

ولـكننا نقول إننا أشرنا إلى وجهة الهداية ، وإننا إذا مضينا فى هذه الوجهة على هداها فقد بلغنا شوطنا ، وأبرأنا ذمة أمسنا إلى غدنا ، ولم نـكن — نحن أبناء العصر الحاضر — سدًّا يعوق طريق العصر المقبل ، أو غيهبا ينحرف به عن مسراه

مصر

اجتمع مجلس النواب المصرى فى بداية دور انعقاده بعد اتفاق ميونيخ بنحو شهرين ، ودارت فيه ـ لمناسبة الرد على خطاب العرش ـ مناقشات عدة عن علاقة مصر بالحالة الدولية فى أوربا وغيرها من الأمم الأجنبية ، وكنت مقررا للجنة الرد على خطاب العرش ، فأجبت على الملاحظات التى أبديت فى هذا الصدد بما يلى : (١)

. . . . « سمعنا كلاما متعددا عن مادة الطوارىء فى المعاهدة وما عسى أن تجرنا إليه من مشكلات لا شأن لنا بها . فمن المتفق عليه — ولا شك — بين جميع المصريين أن مصر لا ينبغى أن تدخل حربا يمكنها اجتنابها . ولكن ماهى هذه الحرب التى يمكننا اجتنابها ؟ . . .

أخشى ياحضرات النواب المحترمين أن يُفهم من هذا أننا نقيس الأخطار من حيث قربها أو بعدها بالمقياس الجغرافى . . . أو بمقياس الأيام والساعات ! . . فالفرق عظيم جدا بين منشأ الحادثة و بين النتائج التى تؤدى اليها ، ومثال ذلك قريب الينا من الحرب العظمى . فبلدة سيراجيفو بعيدة كل البعد من الولايات المتحدة ، بعيدة كل البعد من اليابان ، ولكنّ حادثاً واحدا وقع فيها كان كافيا لأن يزج بكلتا الدولتين فى حرب يظهر لأول وهلة أنه ليس بينها و بينهما شأن كبير . أما نحن فقد وصلت الينا فقلبت تاريخنا وغيرت نظام الحكم عندنا

(١) مضبطة الجلسة الثالثة عشرة (٢٧ ديسمبر سنة ١٩٣٨)

وأنشأت لنا تاريخا آخر غير ما كان يسير اليـــه مجرى الحوادث لو لم تقع هذه المأساة فى سيراجيفو ، وهذا مثل بسيط يمكن أن يتكرر فى كل حادث

« قيل ان أعداء بريطانيا العظمى كثير ، وهذا صحيح . ولكن يجب أن نذكر أن أعداء بريطانيا العظمى لايحاربونها ليحتلوا لندن ولا لينتزعوا ليفربول ولـكنهم يحاربونها ليحتلوا مصر وأشباه مصر . فالخطر متجه الينا على كل حال ، وإذا انفردنا باخطارنا فليس معنى ذلك أنها تنقص بل لعلها تزيد ، ولست أعنى بهذا إلا أن نعرف الحقيقة على جليتها لأن من يتوهم أن الخطر بعيد وهو قريب منه يوشك أن يقع فيه »

وبعد كلام عن ميناء اسكندرية وقناة السويس قلت فى الرد على بعض حضرات الأعضاء ممن يرون الحد من الحرية الفردية .

« يريد . . . أن يفنى الفرد فى المجموع أو فى الدولة ، ولا يجوز أن أفهم من ذلك أنه يريد اقامة حكم نازى أو فاشيستى فى مصر ، ولـكن يجوز لى أن أقول إن فناء الفرد فى الدولة شىء لا تعرفه الديمقراطية

« فالديمقراطيـة تعطى الفرد أقصى ما يستطاع من الحقوق ، ومعلوم أن الغرض الأكبر من التقدم الانسانى هو حرية الفرد قبل كل شىء ، وان التفاضل بين أمة وأخرى إنما هو فى الأمة التى يتمتع فيها الفرد بحقوق الأحرار ، وليس فى مصر من يرى فرقا بين رجل يستعبده أحد من قومه سواء كان زعيما أو غير زعيم وبين رجل يستعبده حاكم أجنبى . هذا وهذا سواء عندنا على كل حال . لأننا نريد أن نكون أحرارا إزاء كل حاكم سواء كان وطنيا أو أجنبيا

ثم قلت :

« ان القوة العسكرية يا حضرات النواب المحترمين ليست هى مقياس الحضارة لأنها قد تكون ضرورية للوصول إلى غرض معلوم أو موقوت ، ولم يقل

أحد من الناس أنها هى مقياس الحضارة ، أو أن ترقّى الجنس الانسانى انما كان بمقدار كفاءة الأمة فى انشاء الجيوش . فأتيلا وهولاكو مثلا كان لهما جيش يعتبر من أقوى جيوش العالم . انما مقياس الرقى والتقدم الانسانى هو شىء واحد : وهو الانتاج العقلى ونبوغ العلماء والمفكرين والفنانين والمثقفين

فلنرجع إلى حالة البلاد التى أخذت بالنظام الدكتاتورى لنرى حالتها من ناحية الانتاج العقلى . أقول مع الأسف أن كل أمة أخذت بهذا النظام ضاعت فيها الحرية الفردية فركد فيها الانتاج العقلى ركودا تاما ولم يظهر فيها فى السنوات العشر الأخيرة عالم أو نابغ أو كاتب مشهور

« لقد اعترفت صحيفة (دوتشى الجمين زيتونج) كبرى صحف المانيا التى تعد من مفاخرها أن حالة الثقافة فى الوقت الحاضر حالة محزنة ، وإنهم يأسفون على القرن التاسع عشر الذى لم تخل فيه سنة من أثر قيم تتجاوب به أنحاء العالم

« ووقف الهر هتلر فى مؤتمر الثقافة فى نورمبرج منذ سنة واحدة وأعلن أن ألمانيا لا تزال تعوزها العبقريات الفذة التى تعبّر عن شعور المجامع . لم حدث ذلك ؟ يجب أن نبحث عن السبب لا أن نوازن بين تقدم الشعب فى البلاد المختلفة . فالسبب أن فناء الفرد فى المجموع يفنى المواهب العليا ، وإذ استمر هذا خافياً سنة أو سنتين فلا بد من ظهوره فى المستقبل ، لاسيما عند مايتجاوز الغرض الموقوت الذى أنشىء هذا النظام من أجله

« وإذا كان مثل هذا الضغط على الحرية الفردية قد أصاب بلادا لها سبق التقدم فى العلوم والمخترعات فماذا يصيبنا منه هنا ونحن لانزال فى أول شوطنا ؟ أظن أن الكارثة ستكون عظمى ، وسنيأس من مستقبلنا ولانجنى شيئا فى مقابلة ما جناه أولئك الحكام من الضغط على الحرية الفردية . ومع ذلك من منا يشك فى أن المانيا مثلا لو استطاعت أن تكون مثل انجلترا فى ديمقراطيتها ما كانت

تلجأ إلى الحكم الدكتاتورى ؟ إنها لو استطاعت أن تكون قوية كانجلترا لما فعلت ذلك . فهى واقعة فى حكم الضرورة القاسية ، والاضطرار لا يتخذ مقياسا لمجرى الحياة العامة . ثم من أين لنا إذا انشأنا دكتاتورية أن تكون مثل المانيا ؟ لماذا نقابل أنفسنا بالمانيا وانجلترا ولا نقابل أنفسنا بمن هم أمثالنا ؟ لماذا لانقول أن ديكتاتوريتنا فى هذه الحالة تصبح كالدكتاتورية فى دول أمريكا الجنوبية ؟ ولماذا لا نقول إنها تكون مجالا للنهب والسلب واظهار أحط الشهوات ؟ إن المعروف عن معظم الدكتاتورين أنهم لا يطمعون فى مال ، فمعروف عن هتلر وموسوليني وستالين أنهم يعملون بلا أجر . فمن أين لنا الا يقيض الله لنا فى مصر لصاً باسم دكتاتور »

* * *

هذا الخطاب الذى أُلقى فى مجلس النواب قبل الحرب الحاضرة بتسعة شهور يلخص جملة الآراء التى وردت فى هذا الكتاب

ولم يتغير الموقف بعد قيام الحرب الأوربية الحاضرة ، بل اقترب من الظهور والتوكيد كما تقترب الصورة التى كانت بعيدة ثم أخذت تتدانى وتتعرض للضياء

فمصر لا تستهدف للطوارىء والأخطار وحدها فى الحرب الحاضرة أو فى الأزمات الدولية التى تليها ، ولكنها تستهدف لها مع غيرها

ولهذا كان من السداد والانصاف ألا تنوء وحدها باعباء الدفاع عن نفسها والاستداد للطوارىء والأخطار التى قد تكتنفها وتكتنف غيرها

وهى لو أرادت ذلك لما أطاقته ولا أطاقت بعضه

لأنها تحتاج إلى مئات الألوف من الجند يحمون حدودها شرقا وغربا وشمالا وجنوبا و يحرسون مواقعها الأخرى فى إبان السلم . وتحتاج إلى أضعافهم فى إبان

الطوارىء والحرب الواقعة ، و إلى أسطول ضخم يحرس تجارتها فى البحار القريبة ، و إلى مصانع للسلاح مستوفاة كل الاستيفاء على اتصال دائم بينها و بين موارد المعادن والخامات

وما دام الخطر على مصر لا يصيبها وحدها فمن الظلم أن تنوء وحدها بدفعه فى جميع الحالات

حسبها أن تقوى على دفعه حتى توافيها قوة حلفائها ، ثم تكون قادرة على المساهمة بالنصيب النافع فى ترجيح الكفتين ، ولا تظل عالة على كواهل الأصدقاء ، مهملة فى حساب الاعداء

وليست مصر بدعا فى هذه السنة . لأنها السنة التى تجرى عليها الدول كبيرها وصغيرها . فلا تنفرد واحدة منها فى ميدان السياسة أو الحرب كائنا ما كان حظها من العدد والعدة والثراء

فلابد لمصر من صف تقف فيه

فأى الصفين أكرم لها وأصون لمصيرها وأدنى الى مقدورها ؟

أتدخل صفا يشترك داخلوه فى العدوان ؟

أو صفا يشترك داخلوه فى دفع العدوان أيا كان السبب : للشبع أو للضرورة أو لحب الحرية والسلام ؟

أما أن تدخل صفا تشترك فيه مع المعتدين فلا حاجة لها به ولا امكان ولا أمان : لأنها لم تتطلع قط الى بلد تعتدى عليه ، ولن تأمن أن يعتدى عليها من يخرجون للعدوان على الناس ، وهى فى طليعة المقصودين المهددين

فليس لمصر مكان أكرم من تأييد الديمقراطية ومبادىء التفاهم بين الشعوب والإيمان بقداسة المواثيق والعهود

ومن كرامة مصر أن تخرج الديمقواطية من الحرب الحاضرة قوية قادرة على الثبات فى ميادين السياسة العالمية ، لأننا عائدون لا محالة الى القلاقل والمطامع والعجز عن التعمير والى انفاق الأموال فيما يضيع ولا يفيد اذا بقيت الدول الباغية قادرة على التهديد والارهاب ، غير هيابة ولا مترددة أمام بأس الخصوم

ذلك أكرم الطريقين وأسلم الخيرتين . بل هى الخيرة الوحيدة التى يملكها العقل وهو حر طليق

* * *

أما العبرة لنا نحن المصريين من موضوع هذا الكتاب الأول وهو تقويم هتلر ووزن مزاياه بالميزان الوحيد الفارق بين الانسانية والوحشية فهى اجتناب الغلو فى استعظام أعماله وأعمال أمثاله ؛ لأن استعظام القدرة على مثل تلك الاعمال قد يسوق الى الاعجاب الخاطىء ؛ والاعجاب الخاطىء قد يسوق الى قبول ما يستنكر ولا يجمل بضمائر الاحرار

وعبرة أخرى هى اليقظة للدعوات التى من قبيل الدعوة الهتلرية كلما ظهر لها مروجون فى السياسة المصرية . فقد يخطر على البال أن الهوادة مع هؤلاء المروجين لن تضيرنا عاجلا ولا آجلا لأن الخطر الكبير لن يأتى الا من رأس كبير أو طبيعة غلابة أو رجل نادر بين عظماء الرجال . فاذا عرفنا حقيقة هتلر وعرفنا أن رجلا متهم العقل متهم الضمير مقسّم الرأى والهوى بين الجنون والاجرام أملت له الظروف والمصادفات فصنع ما صنع واقترف ما اقترف لم ننتظر بمن يحملون عود الثقاب حتى يتاح لهم مخزن البارود المستور ، ولم نجعل الحذر رهينا بالحريق دون عود الثقاب ، أو بكبار الرجال من ذى الملكات العليا دون الأوساط ومن هم أقل من الاوساط . فان الشر لعلى قدر المكان الذى يتبوأه الشرير ، وان المكان

الذى يتبوأه الشرير لقد ترفعه اليه المصادفات ولايشترط فى كل حال أن ترفعه اليه عظمة واقتدار

***

والعبرة الكبرى فوق كل عبرة وبعد كل عبرة هى أن نصحح مقاييسنا للحوادث والرجال. فان الانسان يطلب جودة النظر لأنها جودة النظر ، قبل أن يطلبها لما تجزيه من نفع أو وقاية ، ولا يزال يطلبها ويحرص عليها ولو استغنى عن المنافع والوقايات

كلمة ختـام

نختم هذه الصفحات وهتلر ماضٍ فى مغامرته الجديدة التى يقامر فيها بأرواح الملايين وهولا يبالى مصير ضحاياه

ونعنى بمغامرته الجديدة هجومه العنيف على شمال فرنسا من طريق هولندة وبلجيكا وامارة لكسمبرج ، وفاقا لخطة عسكرية عجيبة . . . يعتمد فيها كمايقول جورينج على الوحى والآراء الثورية ولايعتمد على أصول الحرب المعهودة ولا على آراء الخبراء من العسكريين .

وكل « وحى » يدعيه هتلر فانما هو فى حقيقته تجربة فجائية قوامها المعارف المشتتة ، والمقامرة الجامحة ، والاعتماد على الخيانة والتقصير فى موضع من المواضع .

وربما كانت خيانه الآخرين أقوى الدعائم التى يعتمد عليها فى مغامراته ، لأن هذا المخلوق الموكوس لم يثق قط بفضيلة من فضائل الانسان بعض ثقته التى لا حد لها بالسفالة الانسانية والغفلة الانسانية . ومن هنا تلك الدعوة التى يستغفل بها الناس وتلك الأموال التى يشترى بها ضمائر الناس . بل تلك الضراوة الوحشية التى يثيرها فى نفوس أتباعه بالتحريض والتلقين ، ولاتعد من الشجاعة أونبل الأخلاق لانها انتكاس إلى غرائز السباع . . . إلا إذا عُدَّت ضراوة السباع ضربا من الخلق النبيل

أما المعارف المشتتة هنا فهى خطة الكونت شليفن ، وخطة جورينج المعدلة

لها بعض التعديل ، وتقريرات الضباط الذين شهدوا الفتنة الأسبانية وغارة النرويج

فخطة الكونت شليفن هى الخطة التى وضعها هذا القائد الكبير يوم إن قام برئاسة أركان الحرب فى بروسيا من سنة ١٨٩١ إلى سنة ١٩٠٦ و بناها على طريقة هانيبال فى معركة كانيا Cannae حيث هجم هجومه العنيف بكل ما عنده من الفرسان على جناح العدو ثم اغرى الجناح الآخر منه بالتقدم إلى حيث استهدف للتطويق السريع .

وكان شليفن ينوى توجيه ثلاثة أرباع الجيش الألمانى — أى توجيه ثلاث وخمسين فرقة من اثنتين وسبعين — فى جناحه الأيمن إلى حدود هولندة و بلجيكا ثم الأرض الفرنسية على الشاطىء إلى العاصمة الفرنسية ، وأن يزوّد هذا الجناح الأيمن بأكبر ماعند الألمان من المدافع الضخام التى استكثروا منها كل الاستكثار . فلا تنقضى ، على تقديره ، ستة أسابيع حتى تنقضّ هذه القوة الجائحة على باريس .

وقد أوشكت خطته أن تنفذ فى الحرب الماضية لولا ان القائدين مولتكه الصغير وفون كلوك خالفاها فى عدة أمور ، فأهملا الهجوم على هولندة وأضعفا الجناح الأيمن بما سحباه من فيالقه القوية لتعزيز الجيش الألمانى فى الشرق وتعزيز الجناح الأيسر فى اللورين . ثم وقع الخطأ فى الزحف إلى الجنوب فلم يجر على النحو الذى قدره صاحب الخطة من الاسراع والاحكام .

ولبث الألمان يتغنون بهذه الخطة و يعتقدون أنها صالحة للتنفيذ فى تجربة أخرى ، لأن الفشل الذى أصابها إنما عرض لها من خطأ الآخرين وليس من خطأ فيها أو فى القواعد التى قامت عليها .

وقد ذكر هاهتلر فى كتابه فقال ما فحواه ان فن الحرب يتلخص فى مفاجأة العدو الأكبر بالعدد الأكبر ، والاستبسال فى الهجوم عليه .

ثم عدّل جورينج خطة شليفن بتعديل الأسلحة لا بتعديل القواعد والطريقة . فاعتمد على الدبابات والمركبات المصفحة والطيارات بدلا من الاعتماد على الأسلحة القديمة التى كان عليها المعول كله فى أوائل القرن العشرين . وسميت خطة جورينج بخطة كانيا Cannae الثالثة لأنه نظر فيها كما نظر شليفن من قبله إلى أساليب هانيبال (١) .

أما التقريرات الحديثة التى كتبها الضباط والخبراء الذين شهدوا الفتنة الأسبانية والغارة على النرويج فأكثر ما تدور على أساليب الفصائل المتفرقة فى الجبال وأساليب الجنود التى تهبط بالمظلات الواقية وتعيث وراء الخطوط لتعطيل المواصلات واقلاق السكان وازعاج المقاتلين من وراء الصفوف .

وهذا كله لم يكن ليغنى شيئاً لولا دسائس الجيوش الخامسة أو جيوش الجواسيس والدعاة المستترين الذين يكلفون الخزانة النازية ملايين الجنيهات فى كل سنة وينبثون فى البلاد المعتدى عليها لينتقضوا عليها فى أحرج الأوقات . فلولا التقصير فى نسف القناطر على نهر الموز مثلا لانتهت هذه الخطط جميعاً قبل أن توغل فى دور الابتداء .

وقد وقع تقصير ، ولا شك ، فى عدة الدفاع لا نعلم الآن ما حقيقته ومن المسئولون عنه ، ولعل الحكومة الفرنسية تكشف النقاب عنه قريبا كما وعد المسيو بول رينو رئيس الوزراء

إلا أن الأمر فيما عدا هذا التقصير ليس من السهولة والبساطة بحيث يبدو للمتعجلين والمستغربين والناصحين وأيديهم فى الماء للعاملين وأيديهم فى النار !

---

(١) كتاب هتلر على أوربا لمؤلفه ارنست هنرى .

Hitler over Europe by Ernest Henré

فهم يسألون : لم لم يتخذ الحلفاء كل حيطتهم فى الثغرة الضعيفة على حدودهم مادامت للهجوم خطط معروفة وتقديرات لاتعزب عن البال ، ولا سيما بال القواد المحنكين ؟

وهو سؤال يبدو وجيها عصىّ الجواب لولا أن سائليه قد غفلوا عن كثير من الحقائق التى لا تقل فى ثبوتها و بداهتها عن خطط الهجوم فى تقديرات النازيين

فأول ماهنالك أن وجود خطة حربية فى دولة من الدول لا يستلزم وقوع الاختيار عليها فى اللحظة الأخيرة ، ولا أن تنفذ بجملتها وتفصيلاتها عند وقوع الاختيار عليها

فقد يلجأ أركان الحرب إلى خطة أخرى يفضلونها على جميع الخططالمرسومة، وقد يلجأون إلى الخطة بعينها مع التعديل فى بعض أجزائها كما فعل مولتكه وكلوك فى الحرب الماضية

ولا يجب أن ننسى أن النازيين يستبيحون العدوان على حيدة البلدان المستقلة كهولندة و بلجيكا ولكسمبورج والدنمرك والنرويج ولا يستبيحه الديمقراطيون فى حربهم مع النازيين و إلا أسقطوا حجتهم وألحقوا قضيتهم بقضية المعتدين ، ومهما يقل القائلون فى الحجج الأدبية فهى شىء يكسب به الديمقراطيون ويخسر به النازيون ، وقد يكون له النفع أكبر النفع عند النظر فى شروط السلام ومغارم التعويض

ومتى كان النازيون متروكين أحرارا فى تدبير خطط العدوان وأوقات العدوان وفرائس العدوان ـ ففى وسعهم أن يوجهوا ثلاثة أرباع جيشهم إلى حيث شاءوا حين يشاءون . وليس فى وسع الحلفاء أن يضعوا ثلاثة أرباع جيشهم فى كل مكان وفى كل حين . ولعلهم اذ يختارون نقطة الدفاع مصيبين أو مخطئين أن ينبهوا أعداءهم إلى تعديل ما اعتزموه فى الوقت الأخير

هذا إلى أن هتلر يستطيع أن يجازف بأرواح الألوف ومئات الألوف من جنوده وهو لا يبالى بالمصير، لأنه غير مسؤل ولا متحرج كما هو دأب المغامرين والمقامرين . أما القادة المسؤلون فهم أبعد ما يكونون عن المجازفة بالأرواح والنجاة من الحساب . وليس من أساليبهم أن يطرحوا كل ما عندهم على مائدة القمار فى سبيل الغنى الكامل أو فى سبيل الافلاس

ويضاف إلى هذا وذاك مزية أخرى لاحيلة للحلفاء فيها : وهى وحدة القيادة عند الألمان وتفرقها عند الهولنديين والبلجيكيين والفرنسيين والانجليز . فطالما تعب الساسة الانجليز والفرنسيون وهم يقترحون على الأمم الصغيرة أن تعاونهم ويعاونوها فى تحضير خطط الدفاع وهى تعتصم بالحيدة وتحسب أنها عصمه تغنيها عن الحلفاء والأعوان . فلما هجم الألمان على هولندة وبلجيكا كانوا يعرفون مواقعهم وغاياتهم جملة وتفصيلاً وكان على الحلفاء أن يصلوا أولا إلى الميادين ثم ينظروا فى توجيه الجيوش المختلفة هنا وهنا على حسب الطوارىء من مقتضيات كل ساعة وكل حركة ، ومنها أهواء رؤساء البلاد

وتلك مزية تحسب للنازيين فى ميزان الحرب ، وإن كانت تحسب للحلفاء فى ميزان السياسة والقانون

ومزية أخرى لاتقل عن هذه المزية هى ارتجال الخطط التى لا يعول عليها أصحاب الأصول والقواعد المرعيـــة فى الحروب . فهذه البهلوانيات من حركات المظلات الواقية وفصائل الدراجات الموغلة من وراء الخطوط لعبٌ غيرمأمون وإن بدا نجاحه بعدالمفاجأة الأولى أو بعد مفاجآت كثيرة . وإذا كان جورينج قدخشى من عقباه واسرع إلى التبرؤ من تبعاته فى صيغة الشهادة لزعيمه فالأحرى بقواد الحلفـاء وهم لا يستوحون الخطط العسكرية من عالم الغيب أن يحاروا عنـــد المباغتة كما يحار اللاعب المدرب مع اللاعب الذى يخالف جميع الاصول ، وأن

يتريثوا هنيهة قبل أن يتعودوا طريقة هـذا اللاعب فى نقل الورق أو تنسيق الاحجار

تلك هى بعض المصاعب التى يعانيها المقاتلون الديمقراطيون ولا يعانيها المقاتلون النازيون

ولا بد للحرية من مصاعب ، ولا بد لها من ثمن غال

فليس لإنسان أن يجمع المزيتين ، وأن يكون مستبدا وحراً فى نزعة واحدة ... ولا أن يأكل حلاوة الحرية بغير نار

* * *

ونحن نـكتب هذه السطور والرحى تدور ولا يعلم أحـد أين يرتمى اللباب وأين ترتمى القشور

غير أن الرجاء فيما نعتقد معلق برجحان الروية على المجازفات ، وغلبـة القدرة الصابرة على القدرة اليائسة التى تفرغ رجاءها كله فى الهجمة الأولى . ثم يقعد بها الأعياء و يستعصى عليها الثبات

وهجمة هتلر دليل على هـذا الاستيئاس وعلى أنه يضيق ذرعا بالحصار ولا يقوى على مواجهة الشتاء

وهذا ما قدرناه من بداية الحرب فقلنا إن هتلر لا يصبر عليها ولا يثابر فيها شتائين متواليتين ، إلا وهو منهوك مضطر فى نهاية الشوط إلى التسليم

ولولا ذلك لما جازف بهذه الهجمة ولو كان على رجاء فى نجاحها ، فان احتمال الفشل فيها بالغا مابلغ من الضعف لخليق أن يحسّن له الانتظار لو كان يطيقه ويقوى عليه

وتلك علامة خير

وعـلامة الخير الـكبرى أن تفشل هذه الهجمة فيتاح للمدافعين عزل الفرق

النازية بين الشرق والغرب وتعريض من وصلوا منها الى الشاطىء لنيران البر والبحر والهواء . مع انقطاعهم عن المدد والتموين واتصال جيوش الحلفاء فى الميادين الفرنسية ، بعد تفرغهم لها وجلائهم عن الساحة البلجيكية

وأن حبوط هذه التجربة النازية لهو أصدق نذير بحبوط الدولة النازية وإن تطل الأيام ... ولعلها لا تطول

أبى الله لهذا العالم الذى أعيى الفاتحين من جبابرة التاريخ أن تحكمه عصابة من المغامرين والأفاقين ، وأن يرتد الى جاهلية جهلاء لا حرمات فيها ولا حقوق

ذلك مالا يكون ، وهيهات أن يكون

فلا أحلامهم مفلحة ، ولا آمال الانسانية مخفقة ، ولا كلمة الحرية منسية ، ولا قضيتها فى موازين القدر دون قضية الهمجية

وكل آت قريب ما؟

فهـرس

الصفحة	الموضوع
٣	مقدمة
٧	الفصل الاول ـ مخلوق الظروف والمصادفات
٨	تمهيد
١١	مخلوق الظروف والمصادفات
٢٢	أفكاره وأفكار غيره
٢٨	لا يخطىء !
٣٢	لماذا اختاروه؟
٤٠	سياسة هتلر
٤٥	الفصل الثانى ـ مطالب المانيا وشكاياتها
٤٦	مطالب ألمانيا وشكاياتها
٥٢	نظرة أخرى فى المطالب الالمانية
٥٢	فسحة العيش
٥٦	المستعمرات
٦٠	دانزيج
٦٣	خلة المانية

الصفحة الموضوع

٧٥ الفصل الثالث - نفس هتلر

٧٦ نفس هتلر

٨٢ التربية والنشأة

٩١ شجاعته

٩٥ مبلغ صدقه

٩٩ غرابة الاطوار

١٠٧ كفاءته الذهنية

١١٤ كفاءته الخطابية

١٢٦ سيماه

١٣٣ أصحابه

١٤٠ تلخيص

١٤٩ الفصل الرابع - قضية اليوم

١٥٠ قضية اليوم

١٦٢ بداية القضية

١٦٤ هل فشلت الديمقراطية ؟

١٧٢ لم تفشل الديمقراطية

١٧٥ الفوارق بين الديمقراطية والنازية — التقدم

١٧٨ » » » » — الأخلاق

١٨٢ » » » » حل المشكلات

١٨٥ » » » » النظام

١٨٧ » » » » الصحة
١٨٩ » » » » التربية
١٩٠ » » » » البيئه
١٩٥ الفصل الخامس ـ قضية الغد
١٩٦ قضية الغد
٢١٧ كلمة الختام

i 19959898
b13198710

تصويبات

ص	س	خطأ	صواب
٢٤	١٦	الفتك	الضنك
٣١	٨	عيد الميلاد	عيد العمال

١٨٧ » » » » » الصحة

١٨٩ » » » » » التربية

١٩٠ » » » » » البيئه

١٩٥ الفصل الخامس ـ قضية الغد

١٩٦ قضية الغد

٢١٧ كلمة الختام

i 19959898
6131Ǫ8710

19 MAY 2003